رولو ماي

البحث عن الذات

تعريب: الدكتور عبد علي الجسماني



البحث عن الذات

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:

بيروت، ساقية الجنزير، بناية
برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠٠/٨
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن:

دار الفارس للنشر والتوزيع: عمّان
ص.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٦٠٥٤٣٢، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

الطبعة الأولى

١٩٩٣

رولو ماي

البحث عن الذات

دراسة نفسية تحليلية

ترجمة وتعليق وتقديم :

الدكتور عبد علي الجسماني



المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

- ١ -

الانسان : هذا الكائن ، لا يزال قارة مجهولة الجنبات ؛ لم تستكشف كل أرجائها بعد . فلا جرم أن يبحث عن ذاته وان ينقب في ثنايا ذاته ليستبين حقيقة تكوينه وليستطلع موقعه ومكانته من هذا الكون الفسيح . فلا العلوم الاجتماعية ، ومنها علم النفس ، ولا العلوم الاستقرائية ومنها البيولوجيا ، قد تمكنت حتى الآن من سبر أغوار هذا الجرم الصغير وفيه انطوى العالم الأكبر .

- ٢ -

الأنا وجدان أو خبرة وجدانية يمكن تسميتها الشعور بالملكية . هذا الوجدان ، من حيث التكوين والأساس ، غريزي فينا ، ووظيفته الرئيسية التي تكشف عن نفسها شيئاً فشيئاً ، هو توحيد ضروب النشاط الصادرة عن الفرد ودفعها باتجاه التطوير .

الذات ، وان كانت مقوماتها تؤكد معنا الا انها لا تنمو ولا تتحدد ملامحها على نحو اصيل إلا من خلال الخبرات التي يمر بها الشخص ومن خلال تفاعلهما مع بيئته الطبيعية والاجتماعية ، ونمو الذات داخل المجتمع يجعل فكرة الذات عبارة عن شعور بما يميز حياة الفرد عن حياة الآخرين . وان الضمير

(أنا) في سياق الحياة اليومية ، وهو ما يرفع الأنا السيكولوجي الى مستوى الشعور الواضح ، يتضمن الاشارة الدالة على الآخرين .

- ٣ -

ومن أهم جوانب الذات التي تتأتى ضمن اهتمامات التحليل النفسي بخاصة ، وعلم النفس الاجتماعي بصورة أخص ، هو انها تكشف عن نفسها كونها (ذاتاً منعكسة) ؛ فهي تنعكس على مرآة المجتمع ، كما تنعكس صورة الانسان الواقف امام المرآة تماماً بتمام . ولعل هذا من بين الدواعي التي لا تكف عن حث الانسان حثاً ارادياً اختيارياً ليرى حقيقة ذاته كما خلقها الله ، وحقيقة ذاته كما يراها فيه الآخرون ، وحقيقة ذاته كما يراها هو .

الحديث عن الذات لا يعني بالضرورة الذات منفردة أو بمعزل في كينونتها عن الذات الاجتماعية . فهي لا يمكن أن تنمو ولا تتجلى لها حقيقة جوهرها بمنأى عن الـ (نحن) أو الذات الجماعية التي هي شكل من أشكال النمو المعنوي للذات الفردية .

في عصر القلق هذا ، عصر الاغتراب النفسي ، يتلمس الانسان مواطن (احترام الذات) تحقيقاً لوجوده في خضم عالم مضطرب . وخصيصة احترام الذات عاطفة تترتب على ارتقاء (الأنا) وتفتحه ، ومن خصائصها تميزها بقدر من المرونة ، والتقبل لبعض المؤثرات البيئية ، وتقديرها لغيرها من قيم وحقوق ؛ وهذا ما يكوّن فارقاً بين احترام الذات والاعتداد بالذات ، فهذا الضرب الأخير لا تتوفر فيه تلك العناصر الايجابية المتاحة المتوفرة في احترام الذات .

- ٤ -

ولعل مما هو ممتع ان يكون المرء على بينة من مسألة العلاقة بين النظرية العلمية وبين الاطار الحضاري للمجتمع الذي تظهر فيه هذه النظرية . وان

ما يهمنا هنا هو التأثير العميق الذي يضفيه المجتمع على الذات بمدلول (الأنا) او (أنا) بمعناهماالنفسي واللغوي . فشخصية الفرد في سن الرشد وأبان طفولته ومراهقته ، انما هي تحمل سمات المؤثرات البيئية الاجتماعية ، ومتأثرة بها ، فضلاً عن عناصر مكوناتها الفطرية .

فللمرء حاجاته الذاتية العامة ، ومنها على سبيل المثال ، الحاجة الى التعبير عن الذات ، الحاجة الى تقدير الذات ، الحاجة الى الأمن والطمأنينة ، وبقدر ما يكون الشح ، او التقصير ، او عدم القدرة على ارضاء هذه الحاجات تكون متاعب الفرد النفسية والاجتماعية . اذ هو قد يتهم نفسه بالتقتير والتقصير بحق ذاته ، ومن هنا يطفق يدين نفسه : دينونة الذات . وربما يتوجه باللائمة الى المجتمع فينحي عليه بلوائم اخفاقاته الذاتية ، وهنا يقصّر فيما يجب عليه للمجتمع من حقوق . وكلا الأمرين يفضي بالفرد الى السلبية .

وقد تتأتى سلبية المرء من اسباب شتى منها مثلاً الامراض النفسية او الخواء ، أو الاحساس بالعزلة الذاتية او الموضوعية ، او الشعور بالغربة والاغتراب وما بينهما من فوارق . السلبية تعني حرمان الشخص ذاته من استقاء خبرات جديدة . وباكتساب الفرد خبرات وتجارب طريفة انما يولد معها من جديد ويترك وراءه شخصية غير شخصيته في ساعته الراهنة .

- ٥ -

أي شيء يمكن ان تكون الحياة للانسان اذا هو أحس بذاته واهية ، واذا شعر بهويته باهتة ، او اذا ادرك ان وجوده في مهب الريح تتعاوره الأعاصير الهوجاء .

الانسان حين يخرج الى الحياة يتلمس مسالك وجوده فيها من خلال الآخرين المحيطين به، واولهم الأبوان . فيبدأ يشعرانه اعزل من سلاح الخبرة ومعرفة الناس من حوله . فيروح يبحث عن حدود ذاته ليطمئن من واقع

كينونته . وهكذا تبقى رحلة الحياة معه ومع طموحاته تجاوزاً متتالياً لمحطات ما اكثرها ! وانه بدون ان يكون قد ا تخذ لنفسه هدفاً فقد يتعذر عليه تحقيق هويته الذاتية وسيتبين ان الحياة كلها رتابة ، اذ من غير تجاوز المحطات المتعاقبة ، يستحيل التجدد والتجديد والاستمرار في الحياة .

- ٦ -

ولأن الناس هم مدنيون بالطبع ، ولا يتم لهم عيش الاّ بالتعاون ، فهم ينتظرون أو يتوقعون المكافأة على المناسبة . وهذا يصدق على الجماعة وعلى الفرد في اطار السياق الاجتماعي . وان ما يعبر عنه الآن في فلسفة العلم بـ (تنسيب المكان والزمان).، ينطبق تمام الانطباق على واقع ما يتعرض له الفرد في عصرنا هذا من متغيرات نفسية واجتماعية وحضارية وثقافية ، وكلها تطبع شخصيته بطابعها وبمؤثراتها ، شاء ذلك هو أم أبى . والتوصل الى هذا قد يكون ممكناً من خلال دراسات التفاعل بين مختلف فروع النشاط التي يضطلع بها الفرد ليحقق هوية ذاته .

هذه الذات التي تكون احياناً مرادفة للشخصية ، أو تستخدم بديلاً عنها ، أو قد تستعمل للتفريد المشخص ، انما هي مركب متفاعل من عناصر مادية ومعنوية ونفسية وروحية لا حصر لها .

فالحياة العقلية الشعورية وشبه الشعورية واللاشعورية مثلاً ، من مكونات الذات النفسية . والشعور في أبسط حالاته هو معرفة النفس بأفعالها وانفعالاتها . انه معرفة مباشرة يطلع الانسان من خلالها على ما يجري في نفسه من عواطف وذكريات ، ويدرك الوان حياته الداخلية من غير ان يحتاج في ذلك كله الى واسطة خارجية ، وللشعور صور شتى ابرزها التلقائية والتأملية ، ولهاتين الصورتين اثرهماالبالغ في التأمل النفسي . والشعور تابع وخاضع لشروط حيوية وعملية ، والشعور ليس بمستقل عن الظواهر النفسية ، انما هو هي . انه صورة جوهرية كلية تنطوي على ظواهر النفس . ثم هناك اللاشعور

الذي يمثل خبرات الانسان المنسية او المنحّاة مؤقتاً ، لكنها لا تبرح عملها وتفعل فعلها في حياة الانسان اليومية ، ولذلك ادخلت على علم النفس فكرة (اللانهاية الصغرى) كما أدخلت من قبل على العلوم الرياضية . ذلك لأنه قد ثبت بالتجربة ان هنالك لدى الانسان في كل لحظة عدداً لا نهاية له من الادراكات التي لا تأمل فيها ولا نظر وانما هي عفوية وتقدح بوميضها في عقل المرء على غير توقع .

من مقومات الذات الارادة التي تنمو بالممارسة والتمرين . ولذلك فهي تكتسب وتنمى ، ومن هنا نتبين كم هي مهمة للانسان اذا نحن اوليناها اهتماماً يليق بها لدى تربيتنا للأجيال . ولا بدّ من التفريق بين نية وارادة الفعل . فنية الفعل تنطوي على تصور سابق لنتيجة الفعل ؛ اما ارادة الفعل فأكثر تركيباً من نية الفعل ، لأنها لا تتضمن تصوراً سابقاً فحسب ، بل تتضمن ايضاً نزوع النفس الى الشيء ، واتخاذ القرار وعناصر أخرى شتى . والارادة هنا انما نعني بها وفق مدلولها النفسي لا الفيزيائي . وكلما كانت اقوى استتلت ما يصطلح على تسميته بـ (الأهواء العالية) او (الأهواء الرفيعة) تمييزاً عن الأهواء الوضيعة (الخسيسة) والاهواء المتوسطة . فالأهواء الرفيعة تتطلب ارادة قوية الشكيمة ولا تنمو الاّ بها ، كالحياة العقلية المتميزة والحياة الفنية الرفيعة والحياة الأدبية والفكرية .

ومن شرائط الارادة تصور المثل الأعلى والايمان بالنفس . وهو يختلف باختلاف الناس وأغراضهم ، لكن وصفه بـ (الأعلى) يضفي عليه سمة السمو والرفعة ، وبارتفاع الذات وتسامي النفس يرتفع . اما الايمان بالنفس والثقة بها فأنه المعين الذي تستمد النفس منه قوتها . اذا لم يؤمن الانسان بنفسه خسر معركة الحياة ، وهو ، بعد ، اذا لم يقاوم شعوره بالنقص هبط الى الهاوية .

من قوى الذات الاحساس ، وهو ظاهرة نفسية اولية ؛ ولعله يكون

عنصراً من عناصر الحياة الانفعالية ، وقد يكون عنصراً من عناصر الحياة العقلية . والاحساس من مقومات الشعور الذي يعد ـ الشعور ـ مبدع الصفات والكيفيات ، ومبدل الأشياء وواهب المتعة والالتذاذ بمباهج الحياة .

مقومات الذات ، المذكورة آنفاً وسواها كثير لم يذكر ، لضيق المجال لما ينبغي ان يقال فيها من مقال ، الضمير الذي كثيراً ما يوصف بأنه (محكمة عليا متنقلة) ، وهو جزء من وظيفة الأنا الأعلى ، وقبل ان يتكون للمرء ضميره في بداياته ، تكون له مثل وآمال ، يطلق عليها مثل الأنا ego ideals .

ـ ٧ ـ

الذات في الحياة منوط بها واجب . الواجب هذا تؤديه بمحض الاختيار ليتحقق معه الابداع . لكن الابداع هذا يجدر ان يتمخض عنه إئتلاف بين الأنا ، والأنا العليا ، والهذا (أو الهذي ، او الهو) والمحيط الخارجي . لكن مطالب هذه العناصر ابداً متنافرة ، وهي في أغلب الأحيان غير متوائمة . فلا عجب ان تنهار (الأنا) في بعض الأحيان تحن وطأة أعبائها .

ـ ٨ ـ

لكن المتحقق في علم النفس اننا لم نشهد (أنا) واحدة تصنع القرارات او تنتخب الاختيارات في حياة الذات . (الأنا) جزء واحد في نطاق شخصية المرء ، تحاول المواءمة بين الأجزاء الأخرى المتصلة بها ـ الأنا الأعلى والهذا ـ وبين العالم الخارجي . وهنا يحق لنا أن نسأل : تحت أي ظروف يكون لنا شعور (بالاختيار الحر) ، وما هي وظيفة هذا الشعور في حياة الانسان ، وما هي مهمته في اطار صياغة قوانين السلوك البشري .

والحرية المسؤولة لا تتألف من توازن متساوٍ بين اختيارات الخير والشر ، انما هي تتألف من حب ما هو خير حقاً وقبوله ، وكراهية ما هو شر ونبذه . ففعل الخير ، اذن ، اثبات لهوية الذات ، ومقاربة الشر ومداناته اجحاف بحقها وانكار لها ولجوهرها واعتساف وأعنات .

وفوق هذا كله يأتي العقل ، (ومن العقال اشتقاقه) . انه بكل بنائه ومسالكه وتعقيداته ، إنما يمثل قوة التوجيه العقلاني للوصول بالانسان الى غاية الحقيقة ضمن مرامي السياق الإجتماعي .

العقل هو المجموع الكلي المنظم للعمليات النفسية المنطقية التي تمكن الفرد من التفاعل مع بيئته . وهو مجموع التجارب والخبرات الشعورية . وبغض النظر عما قيل عنه ـ كالقول انه هو الذات ، او انه هو النفس ، او الفكر ، او انه الذكاء ، او انه شيء مادي ، . . . الخ ـ فإنه في حقيقة تكوينه وحدة دينامية ، وترابط في الاستجابات ، وتتابع في النشاطات . انه أس الشخصية وبه تتكامل .

وبقدر ما تسمح به مديات علم النفس اجتهد الدكتور رولو ماي ، وقد أفلح الى حد بعيد ، ان يذهب بقراء كتابه هذا . والدكتور ماي محلل نفساني ومعالج فيه ، وانه لمشهود له بتحري أعماق النفس . كتابه هذا ثمرة تجربة امتدت على مدى سنين طوال ، أمضاها بين التدريس الأكاديمي واستشفاف الخبرات الصادرة من خلال ممارساته العيادية (الأكلينيكية) .

في عصر القلق هذا ، اراد رولو ماي ان يوضح كيف يتاح للانسان ، وهو باستطاعته اذا شاء ، أن احساس الفرد بكينونة شخصيته انما ينبثق من أعماق نفسه اذا تماسكت . انه كتاب يتيح المجال للتعرف على التوجهات التي تمكن المرء من استبانة الحقائق .

سيتبينّ لدى القارىء كم هو استيعاب الدكتور رولو ماي عميق ، وكم هو أصيل في المامه وكم هو أمين في أحكامه ، مع معرفة شمولية موسوعية . ولهذا فإن كتابه هذا ليس فقط كتاباً من اجل المساعدة الذاتية حسب المفاهيم الاعتيادية العابرة ، بل هو كذلك اسهام جدير بالقراءة ؛ انه يبصّر بالنمو والصحة العقلية للانسان الحديث .

يتسم هذا الكتاب باستثارة متميزة ، مبتدئاً بذلك ارتياد مثابات جديدة في التبصر النفسي والروحي ، وانه في الوقت نفسه ليشير الى السبيل الذي يفضي الى تكامل القيم المشتتة ، التي تؤدي بتضافرها ، الى تعزيز وحدة الذات ؛ وانه ليرمي بالتالي الى تنشيط الاحساس بأسباب الحياة وكيفياتها .

ان ما ضمنه مؤلفه من فكر تحليلي جعله حرياً بالقراءة ، لما ينطوي عليه من طريقة فريدة ، ربطت فيها الأهداف النفسية بالخصائص المثالية للحرية المسؤولة ، والشجاعة ، والمسؤولية الذاتية ، والمحبة ، والتكامل . فهو كتاب يحلل الحياة كما نحياها بالفعل .

- ١٠ -

كتاب رولو ماي هذا عرض جذاب لسيكولوجية الشخصية . فيه أودعت حكمة الخبرة والتجربة فضلاً عن حسن العرض المعزز بالأمثلة المستمدة من واقع الحياة . لهذا فقد صدرت بحق هذا الكتاب ومؤلفه كثير من التقريظات ، وكلها حافلة بما يستحق من اطراءات .

وطدت العزم ، بعد التوكل على الله ، على ترجمة الكتاب هذا الى العربية لما انطوى عليه من مزايا اشرنا الى بعضها آنفاً . وفي هوامش بعض الصفحات ، وحيثما اقتضت الضرورات ، اضفت شروحاً وتوضيحات .

أقدمت على عمل الخير هذا وفي ذهني قول لأبي حيّان التوحيدي حين سئل : ما الأهمية ؟ فأجاب : (هي أن تجدد العزيمة في نفسك . . . ثم تصل العزيمة بالصريمة في الصبر على واردات . . .) المتاعب والمصاعب .

وما على المرء الا استفراغ وجده ، واستغراق جهده ، بعد صفاء النية وخلوص الطوية ، والله وحده المرتجى في كل مسعى .

الاستاذ الدكتور عبد علي الجسماني
عمان ـ الأردن

توطئة المؤلف

احدى النعم القلائل للعيش في عصر يسوده القلق هي أننا مضطرون الى أن نعي حقيقة أنفسنا . فعندما لا يكون بمقدور مجتمعنا ، وهو يجتاز وقتاً تضطرب فيه المعايير والقيم ، أن يرفدنا بصورة صافية واضحة المعالم عما عبّر عنه ماثيو أرنولد بـ (ما نحن وما ينبغي علينا أن نكون عليه) ، فإننا في هذه الحالة نكون قد انكفأنا على أنفسنا بحثاً عن ذواتنا . ان هاجس التوجس والخوف المفزع المحدق بنا من كل جانب ليبعث فينا حافزاً جديداً يحملنا على ان نسأل : هل يحتمل ان يكون هناك مصدر مهم من نوع ما من مصادر الهداية والقوة كنا قد أهملناه ؟

اني لمدرك ، بطبيعة الحال ، ان هذه بوجه عام لا تسمى نعمة . فالناس ، بدلاً من ذلك كله ، يسألون : كيف يتسنى لنا ولأي منا ان يحرز تكاملاً ذاتياً داخلياً في عالم مفكك كهذا ؟ ولعلهم يتساءلون : كيف يكون بوسع المرء ان يأخذ على عاتقه مهمة أمد التطور الطويل هذا صوب ادراك الذات وفهمها في وقت ، ما من شيء فيه عملياً ثابت ومؤكد ، في الحاضر سواء كان ذلك أم في المستقبل ؟

ان أغلب الناس المفكرين يتأملون هذه الأسئلة ملياً . والمعالج النفساني لا يملك اجابات سحرية تشفي الغليل عن هذه الأسئلة وما ماثلها . ومن المؤكد ان ما يسلطه علم النفس من أضواء جديدة على أعماق الدوافع الدفينة

التي تحركنا الى ان نفكر ونحس ونعمل على النحو الذي نقوم به بكل ذلك ، يجب ان تكون عوناً حاسماً لمن يبحث عن ذاته . ولكن ثمة شيء آخر يضاف الى تدريبه الفني والى فهمه ذاته ، وذلك الشيء المضاف من شأنه منح المؤلف ، أي مؤلف ، الشجاعة لأن يقتحم ما تتهيبه الملائكة وتتحاماه ، وعندئذ يستطيع تقديم أفكاره وخبرته لمواجهة ما يثار من الأسئلة الصعبة التي سنواجهها في متن هذا الكتاب .

ان الشيء المنشود هذا هو الحكمة التي يجنيها المعالج النفساني وهو يعمل مع اناس يكافحون للتغلب على معضلاتهم ، فهو (المعالج النفساني) يظفر بامتياز مرموق ، وإن كان مضنياً ، امتياز مصاحبة اشخاص ، هم من خلال صراع داخلي لديهم عميق ومرير ، يسعون لبلوغ تكامل جديد يرمون اليه . وهو، فضلاً عن ذلك، لا يلمح ما يضرب على أعين الناس من غشاوة في زماننا هذا ، فيجعلهم يعشون عما في دواخلهم ، فلا يدرك (المعالج) ما يعيقهم عما يصبون اليه من قيم واهداف يستطيعون تمكينها وترسيخها لو أنهم تحرروا من تلك الغشاوات والمعوقات .

قال ألفريد أدلر مرة ، وهو يشير بقوله الى اطفال المدرسة التي أنشأها في فيينا ، (التلاميذ يعلمون المعلمين)(*) ، وان الأمر هو دائماً كذلك في ميدان العلاج النفسي . واني لا ارى المعالج النفساني الاّ أن يكون ممتناً من أعماقه لما يتعلمه يومياً حول مسائل الحياة والكرامة فيها ، يتعلمه من اولئك الذين يسميهم مرضاه .

إني كذلك كثير الإمتنان الى زملائي لما تعلمته منهم من أشياء جمّة تخص هذه الموضوعات ؛ وعرفاني بالجميل اسجله الى طلابي وهيئة كلية ملنر في كاليفورنيا لما اتحفوني به من استجابات غنية أثرت الأفكار التي ناقشتها معهم

(*) يقصد أنهم مجال اكساب المعلمين خبرات جديدة في الحياة (المترجم) .

المتضمنة في محاضراتي التي القيتها هناك بالمناسبة المئوية للكلية وموضوعها : (التماسك الشخصي في عصر يسوده القلق) .

ان هذا الكتاب ليس بديلاً عن العلاج النفسي . وما هو بكتاب يمكن وصفه بعبارة : اخدم نفسك بنفسك ، بمعنى انه ينطوي على تطبيب هين يتيسر بين عشية وضحاها . لكنه ، من جهة اخرى ، كتاب جدير بالتأمل والتدبر لما فيه من عمق خليق باضفاء تبصر ذاتي ، اذ هو يقدم العون للقارىء من خلال تمكينه من استقراء ما في اعماق نفسه واستجلاء خبراته كما يعكسها له هذا الكتاب ، ومن ثم تمكينه من تسليط ضوء جديد على مشاكله المتعلقة بتكامله الشخصي . واني لأرجو أن يكون الكتاب الذي أتمناه .

وفي هذه الفصول من الكتاب ، سوف لا نتملى فقط ما في الدلالات النفسية أو ما اسداه علم النفس من تبصير بما خفي من مستويات الذات البشرية وحسب ، بل سنتولى بالبحث كذلك حكمة اولئك الذين سعوا الى ان يتبنوا مما تحصل لديهم وتراكم من خبرات الحياة بحكم تقادم الأعمار وما حفلت به مجالات الأدب ، وما زخرت به حلبات الفلسفة ، وما جدّ في مجال مستجدات علم الأخلاق ، والى ان يتفهموا كيف يتمكن الانسان في أحسن الاحوال من أن يضمن لنفسه ولأمنه جواً من الأمان ، وكيف يواجه ازماته الشخصية ، ليحولها ، من أزمات ، الى منافع بنّاءة . وهدفنا هو استكشاف أساليب تمكننا من الوقوف في وقتنا الراهن بوجه ما يتهدد أمننا ، وعلينا كذلك ان نتحرى مواطن القوة في دواخل انفسنا ، ومن ثم ، وبقدر المستطاع ، ان نحدد معالم الطريق المؤدي الى تحقيق القيم والأهداف التي يمكن الاتكاء عليها في وقت باتت تتضاءل فيه فرص ضمان الأمن والأمان .

رولو ماي

القسم اول

معضلتنا

الفصل الأول
الوحدة والقلق لدى الانسان المعاصر

ما هي المشكلات الداخلية الرئيسية التي تشغل بال النـاس في وقتنا الراهن ؟ عندما نتمعن في ما تحت الحالات الظاهرية المفضية الى اضطرابات الناس ، كتهديـد الحرب لهم ، مثـلاً ، وحالات الـطوارىء ، والتذبـذب الاقتصادي ، فماذا عسانا ان نجد في ما وراء الصراعات المحتدمة تلك ؟ من المؤكد ان اعراض الاضطراب التي يصفها الناس ، في عصرنا هذا كما في سائر العصور ، هي غياب السعادة ، وعدم القدرة على اتخاذ القرار بشأن الزواج الموفق ، او اختيار المهنة المناسبة ، واليأس العام ، والحياة بلا هدف ولا معنى لمسيرة حياتهم ، وهلم جرا . ولكن ماذا ينتظم الأعراض هذه جميعاً ؟ .

في مستهل القرن العشرين هذا ، كان أهم سبب يكمن وراء مشكلات كهذه هو ما وصفه سيجموند فرويد Sigmund Freud وصفاً جيداً حين أشار الى صعوبة تقبل الشخص لدوافعه الغريزية في حياته وما نجم عن ذلك من صراع بين نوازع الفرد الجنسية وبين المحرمات الاجتماعية . وفي عام ١٩٢٠ وما تلا ذلـك من أعوام كتب أوتـو رانك Otto Rank ، يقـول ان الجذور المتأصلة الضاربة بعيداً في أغوار مشكلات الناس النفسية يومئذ كانت تتمثل في مشاعر القصور ، والإحساس بعدم الكفاية[1] ، والشعور بالذنب . وفي

(١) الكفاية والكفاءة بمعنى ، والأولى أفصح . (المترجم .

عام ١٩٣٠ وما بعدها ، انتقلت بؤرة الصراع النفسي تارة أخرى فاتخذت لها منحىً آخر : الا وهو ان الاساس المشترك كان ، كما عبرت كارين هورني Karen Horney ، هو العداء المستحكم بين الأفراد والجماعات ، وكان العداء هذا يقترن بمشاعر التنافس والتسابق نحو مَنْ يبزّ مَنْ . والآن : فما هي جذور المشاكل في منتصف القرن العشرين هذا وفي (اواخره) ؟ .

اناس ساهمون ساهون[٢] .

قد يبدو مثيراً للدهش عندما أقول ، وذلك على اساس من ممارستي التحليل والعلاج في العيادة (الكلينك) ، وكذلك على أساس من خبرتي النفسية وخبرة زملائي المختصين في الطب النفسي ، أقول ان مشكلة الناس الرئيسة في العقد الوسيط من القرن العشرين هذا هي مشكلة السهاوة والسهوم[٣] . ولا أعني بقولي هذا فقط أن كثيراً من الناس لا يعرفون ماذا يريدون ، وانما هم كذلك في الغالب ليست لديهم فكرة واضحة بما يحسون . فهم حينما يتحدثون عن حاجتهم الى الاستقلالية الذاتية الشخصية او عندما يألمون من عجزهم عن اتخاذ قرار يريدونه ـ وهي مشكلات قائمة في جميع العقود وفي كل الأزمان ـ فسرعان ما يتضح أن مشكلاتهم الضمنية تتمثل في انهم ليست لديهم أدنى تجربة محددة بشأن رغباتهم وحاجاتهم . لهذا فهم يشعرون بالتأرجح بين هذا الجانب وذاك ، تتجاذبهم الأهواء ، تتبطنهم مشاعر مؤلمة جراء مايحسونه من عجز ، ذلك لأنهم يستشعرون وطأة الفراغ والخواء . قد تكون الشكاة التي تدفعهم الى العيادات النفسية هي ، على سبيل المثال ، أن علاقاتهم في الحب دائماً تنتهي بالانفصام ، أو أنهم لا يستمرون في خطط الزواج الى غاياتها ، أو ان أحد الطرفين في الزواج لا

---

(٢) آثرنا ترجمتها كما في المتن وتقابلها بالانجليزية Hollow People ، وتعني بحرفيتها أجوف ، أو خاوي ، ولكنها لا تفيان بما في السياق الذي اراده المؤلف . (المترجم) .

(٣) السهوان من يبدو وكأنه أفرغ من أحاسيسه ومشاعره بسبب الهموم والقلق . (المترجم) .

يـرضيه الشريـك الآخر في الحيـاة الزوجيـة . ولكنهم لا يفصحون عـما في دواخلهم الا بعد فوات الأوان وبعد تريث كل منهما بانتظار أنْ يقـدم أحد الطرفين بتلافي الخطأ ، وحينما لا يحصل ذلك فإنهما يقلقان ويغضبان لأنه او لأنها لم يقم أي منهما بالخطوة الايجابية .

ويمكنهم بوجه عام التحدث عما يلزمهم وعما يريدون بطلاقة وجلاء ـ لاستكمال النجاح الذي تحققه لهم شهاداتهم العلمية الجامعية ، للظفر بعمل مثلاً ، وان يحبوا وأن يتزوجوا لتكوين اسرة ـ ولكن سرعان ما يتكشف حتى أمام أبصارهم ، انهم انما يصفون ما يتحدث به غيرهم عنهم ، كالآباء مثلاً ، أو الأساتذة ، أو أصحاب المصالح ، وما يتوقعه هؤلاء كافة منهم ، بدلاً من أن يكون مدار حديثهم عما يبتغون هم بالفعل . ان اهدافاً خارجيـة كهذه يمكن حملها على محمل الجد وكان يمكن النظر اليها على أنها جد خطيرة ، لو أنها كانت قد طرأت قبل عقدين من الزمان ؛ لكن المرء الآن يدرك جيداً ، حتى في لحظة تحدثه عن ذلك ، أن ما من أحد في حقيقة الأمر ، لا الآبـاء ولا المجتمع ، يتطلب منه ما يؤوده ويثقل كاهله . وما اكثر ما حدثه ابواه ، ولو نظرياً في الأقل ، انهما منحاه الحرية : حرية اتخاذ قراره بنفسه لنفسه . وفضلاً عن هذا فإن المرء نفسه يدرك ادراكاً لا شائبة فيه أن لا جدوى من تعقب اهداف خارجية كهذه والسعي وراءها . بل انه يتوصل الى قناعة ان ذلك مما يجعل مشكلته اكثر تعقيداً ، لما في قرارة ذاته من اعتقاد متضائل أو احساس متدنٍ بواقعية اهدافه التي يسعى اليها . وجلية الموقف لا تعدو ما عبّر عنه أحدهم بقوله (اني مجرد مجموعة من المرايا ، تعكس ما ينتظره كـل امرىء مني) .

في ما مضى من عقود ، كان المرء الذي يأتي الى العيادات الاستشارية طلباً للاستشارة النفسية لا يعرف ماذا يريد ولا بماذا يحس ، فكان يتبادر الى الذهن بصورة عامة افتراضاً انه إنما ينشد شيئاً محدداً تماماً فلا يريد الافضاء عنه ولا البوح به ، وذلك الشيء هو الاشباع الجنسي مثلاً وارضاء متطلباته ،

لكنه لا يجروء على الافصاح عنه حتى لنفسه . فالرغبة قابعة هناك في اعماقه ، كما عبر فرويد عن ذلك ؛ ان الشيء الأساسي وبما تقضي به الضرورة هو ازالة الكبت repression ، ومن ثم الأخذ بيد المريض وتمكينه من التصرف وفق سياق الواقع المقبول . بيد أن روادع المحرمات taboos الجنسية[٤] في ايامنا هذه هي أوهى بكثير عما كانت عليه في الأيام الخوالي ، ومن شاء فليرجع الى ما تضمنه تقرير كنزي Kinsey ان كان المرء لا يزال في مرية[٥] من الأمر . ان فرص الارتواء العاطفي يمكن العثور عليها ماثلة من غير كبير عنا لدى الأشخاص الذين لم يظهروا تذمراً من مشاكل أخرى ثاوية في نفوسهم . هذا ، وأن المشكلات التي يأتي بها أصحابها اليوم الى العيادات الاستشارية يطلبون لسببها العلاج قلما تكون ناجمة عن النواهي والروادع الاجتماعية كما هي عليه ، وانما هي متأصلة في أغوار الشكّاك أنفسهم كنقص الفعالية مثلاً او فقدان القدرة على الاحساس بقوة المشاعر المضطرمة ازاء الشريك الآخر. وبتعبير آخر ، فإن المشكلة العامة الآن لا تكمن في روادع فرضها او يفرضها المجتمع ، وانما المشكلة بوجه عام تقبع وراء آلية العلاقات الخالية من الاحاسيس الرقراقة في ما بين الزوجين .

في ما يلي حلم فتاة كاعب يوضح معضلة الشخص (المرأة) . اذ كانت تماماً متطلقة من ناحية الالتزامات الجنسية . بيد انها شاءت ان تتزوج ، فتبلبلت في المفاضلة بين رجلين ، أياً منهما تختار . فأحدهما متزن ، ينتمي الى اسرة من الطبقة الوسطى ، وان أسرتها الموسرة يقيناً تحبذه وتوافق على زواجها منه ؛ غير أن الآخر يشاطرها كثيراً من ميولها الفنية ونزعاتها البوهيمية . وبيناً هي في غمرة نوباتها التي تتنازعها وعدم استطاعتها حسم الموضوع باتخاذ قرار من جانبها ، وعجزها عن حزم أمرها بتحديد حقيقة شخصيتها وبلبالها بشأن طبيعة الحياة التي يجب عليها أن تنتهج ، حلمت حلماً رأت فيه جماعة كبيرة من

---

(٤) يتحدث المؤلف هنا عن واقع البيئة التي يعيش فيها . (المترجم) .

(٥) المرية (بكسر الميم وسكون الراء) الشك والريبة . (المترجم) .

الناس قد صوتوا الى جانب الرجل الذي ينبغي عليها ان تتزوج منه ، أحست أثناء الحلم بالارتياح - يقيناً كان هذا حـلاً موائـماً ! والمشكلة الوحيـدة التي واجهتها انها بعد استيقاظها من نومها نسيت ايما الرجلين كـان في صالحـه تصويت المفاضلة .

وكثير من الناس بمقدورهم ان يرددوا من أعماقهم مضمون خـبرات خطرت لهم ، يرددونها بنفس كلمات ت. أس. اليوت T.S. Eliot النبوئية التي دبجها عام ١٩٢٥ ، اذ قال :

نحن اناس جوف ساهون
نحن أناس بالأبواء[٦] اشبه
على بعضنا تكوّفنا
ورؤوسنا بالقش محشوة . واأسفاه !
فنحن شكل بلا مظهر ، ونحن ظلال بلا لون ولا مخبر ،
نحن قـوى مشلولـة ، ونحن عـلامـات بـلا حـراك يذكر[٧] .

قد يلمح بعض القراء الى ان هذا الخواء ، وهذا العجز عن معرفة كنه ما يحسه المرء أو ما يريده ، إنما يعزى الى حقيقة كوننا نعيش في زمن مهتز غير مستقر على حال - زمن حروب ، واستنفار عام ، وتحولات اقتصادية متداركة ، مع ما يواجهنا من مستقبل غير مضمون الأمان بصرف النظر عن طبيعة نظرتنا اليه . فلا عجب ، اذاً ، الاّ يعرف الفرد ما يريـد التخطيط لـه ، فيحس بالفألة ! غير ان هذه الكناشة[٨] من الضحالة بمكان . ان المشـاكل ، كـما ستتبين في ما بعد ، هي أعمق مما تشير اليه هذه المناسبات التي تسبقها . هذا

---

(٦) جمع والمفرد بو : وهو الجلد المحشو بالتبن او القش . (المترجم) .

(٧) من مجموعة قصائد اليوت المنشورة عام ١٩٣٤ ، وعنوان القصيدة (The Hollow Men) .

(٨) الخلاصة ، النتيجة ، المآل . (المترجم) .

فضلاً عن أن الحروب ، والتقلبات الاقتصادية ، والتغيرات الاجتماعية ، ان هي في حقيقة الأمر الا أعراض تنم عن نفس الظروف المتبطنة ثنايا مجتمعنا ، ومنها أعراض المشكلات النفسية التي نحن بسبيل مناقشتها .

ولعل قرّاء آخرين يثيرون سؤالاً آخر غير ما تقدم مثل : (قد يكون صحيحاً أن اولئك الاشخاص الذين ينشدون العون النفسي يستعرون بحالة الفراغ والخواء ، ولكن ألا يمكن ان يكون ذلك هو مصدر المشكلات العصبية التي تمضّهم وتفسد عليهم حياتهم ، وانها ليست بالضرورة مما يمكن تعميمه على الغالبية العظمى من الناس ؟) من المؤكد انه لحري بنا ان نجيب ، بأن الاشخاص الذين يأتون الى العيادات الاستشارية لا يمثلون مقطعاً مستعرضاً لعموم السكان . ومجمل القول انهم افراد بالنسبة لهم اعراف المجتمع وروادعه لا جدوى منها نظراً لوضعهم العقلي والنفسي . انهم في الغالب مفرطو الحساسية ، ولهم مواهبهم في المجتمع ؛ انهم أناس بحاجة الى تلقي المساعدة النفسية ، ذلك لأنهم في تبرير وقائع الحياة ادنى نجحاً وأقل من المواطن حسن التكيف الذي بمقدوره ان يخفي مؤقتاً ما يعتلج في داخله من صراعات ضمنية وداخلية . ومن المحقق ان المرضى الذين كانوا يغشون عيادة فرويد في اواخر القرن التاسع عشر وفي العقد الاول من القرن الحالي ، ممن كانوا يعانون من اضطرابات جنسية كما وصفهم فرويد نفسه ، لم يكونوا يمثلون في المجتمع يومئذ حضارة العصر الفكتوري[٩] : فأغلب الناس من حولهم كانوا كذلك يخضعون لنفس المؤثرات الاجتماعية ويعيشون تحت عوامل المحرمات ذاتها والمبررات عينها تلك التي كانت سائدة في الفكتوريانية كلها ، وكان اولئك المتمسكون بالقيم يعللون النفس بأن الانزلاق في مهاوي الجنس انما هو شيء

---

(٩) منسوب الى الملكة فكتوريا (١٨٣٧ ـ ١٩٠١) وكل ما هو منسوب الى عصرها . والفكتوريانية Victorianism خصائص العصر الفكتوري وسمات الاتجاهات الفكرية والأخلاقية التي سادت فيه . المترجم .

بغيض وينبغي كبته ما وسع المرء ذلك. ولكن غب الحرب العالمية الأولى وفي العشرينات من هذا القرن قد كشرت تلك المشكـلات الجنسية عن أنيـابها فباتت تشكل جواً وبيئاً . وكل شخص مثقف في أوروبا قد خبر حينذاك نفس الصراعات الناشبة اظفارها في اغوار ذاته بين دوافعه الجنسية من جهة وبين نوازعه في المحرمات الاجتماعية من جهة اخرى ، تلك الصراعات التي كانت قلة من الناس تناضل من اجل التخلص منها منذ عقد مضى او عقدين . ومهما تكن فكرة المرء عن فرويد رفيعـة ، فلا ينبغي لـه ان يكون هـذا المرء من السذاجة بمكـان فيظن بـأن ما كتبـه فرويـد كان السبب وراء هـذا التقدم والتطور ؛ انه (فرويد) فقط تنبأ بذلك وحسب . لذا نجد عدداً قليلاً نسبياً من الاشخاص ـ اولئك الذين كانوا يلتمسون العون النفسي في العلاج اثناء كفاحهم من اجل بلوغ التكامل الذاتي ـ كانوا يؤلفون مسباراً ذا دلالة كاشفة لضروب الصراعات والتوترات القابعة وراء الظواهر النفسية في المجتمـع .

وان مثل هذا المسبار ينبغي ان يؤخذ مأخذ الجد ، ذلك لأنه يمثل خير مؤشر يشير الى طبيعة الغليـان والاهتياج المحتـدم في دواخل اصحـابه ، ومـا قد يتمخض عنه من انفجارات ومشكلات لم تنفجر بعد ، لكنها قد تأتي بعـد حين ، فيعم شررها المتطاير المجتمع كله .

اضف الى ما تقدم ، فإنه ليس فقط في غرف النفسانيين ولا في عيادات المحللين النفسانيين وحدها نلحظ مشكلة الانسان الحديث متمثلة في خوائه الذاتي الداخلي . فثمة كثير من البيانـات الاجتماعيـة تشير الى ان السهـاوة والخواء هذه متمكنة من نفوس أنـاس ، اذ هي قد دبت بـطرائق متفاوتـة فوجدت طريقها الى ثنايا مجتمعنا . ونجد ان ديفيد ريزمن David Riesman قد توصل في كتابه المتميز : **الجمهور المستوحد** The Lonely Growd ، الذي ظفرت به وانا بصدد كتابة هذه الفصول ، قد توصل في تحليله الجذاب الى نفس ما توصلت اليـه من خواء يعـاني منه الشخص الامـريكي في الوقت الحاضر . فقبل الحرب العالمية الاولى ، كان الفـرد الامريكي ، كـما يذكـر

ريزمن ، موجهاً (توجيهاً ذاتياً) . ويتمثل التوجيه الذاتي هذا في تقبله المقاييس التي تم له تعلمها ، فكان أخلاقي النزعة بكل ما ينطوي عليه المستوى الفكتوري من معنى ، وكان على جانب رصين من البواعث والطموحات ، المستمدة من خارج ذاته وانه كانت اصولها متأصلة في داخله . فكان ذلك الفرد يعيش ايامه وكأنه قد منح الاستقرار بفعل توازن Gyroscope ذاتي . وهذا هو النموذج الذي يوائم الوصف التحليلي النفسي المبكر للشخص المكبوت انفعالياً الموجه بقوة الذات العليا المهيمنة .

لكن الشخص الامريكي النموذجي الحالي ، حسبما يذهب ريزمن الى ذلك ، متجه في نزعته الى (خارج حدود ذاته) . فهو لا يسعى الى ان يكون بارزاً ، لكنه يتوق الى ان يكون (متوائماً) ؛ انه يعيش وكأن جهاز استشعار او استحساس (رادار) دائم مثبت في دماغه ينبئه بما يتطلبه الناس الآخرون منه وما يتوقعون . وجهاز الاستشعار هذا يتلقى بواعثه وتوجيهاته من الآخرين ؛ فهو اشبه بالرجل الذي وصف نفسه بأنه مجموعة من المرايا ، انه قادر على ان يستجيب ، ولكنه عاجز عن الاختيار ؛ فهو لا يملك موقفاً فعالاً من التحفيز خاصاً به .

إننا لا نعني ـ ولا كذلك ريزمن ـ الاعراب عن الاعجاب بأفراد التوجيه الذاتي ممن عاشوا في الفترة المتأخرة من العصر الفكتوري . فهؤلاء الأفراد قد استمدوا قوتهم من استبطانهم القواعد الخارجية ، ومن استقطاب قوة الارادة واستحضار طاقة الفكر ، ومن كبت مشاعرهم والهيمنة عليها . وهذا النموذج كان مناسباً تماماً للنجاح في الأعمال المنشودة ، مثلهم في ذلك مثل ملّاك المال في القرن التاسع عشر ، المسيطرين على مقاليد السكك الحديد ، وأسياد الصناعة ، اذ كان بمقدورهم استغلال الناس مثلما يتم استغلال حاويات الفحم او التصرف بمخزون الاسواق . والتوازن الذاتي والمحافظة عليه هو أميز رمز لهم،ذلك أنه يمثل آلية تامة لطبيعة الثبات والجمود . وكان وليم راندولف هيرست William Randolph Hearst ، مثالاً لهذا النموذج : اذ

جمع بين القوة الجسدية وتكديس الثروة المادية ، لكنه تحت وطأة هذه القوة الـظاهريـة ، كان ينـوء بأعبـاء القلق الخانق ، وكـان يعاني من قلق الموت بخاصة ، اذ لم يكن يسمح لأحد أن يذكر امامه كلمة (الموت) . وان الأفراد من ذوي الطبيعة الآلية يكون تأثيرهم على أطفالهم تأثيراً منحوساً وذلك بسبب ما تعودوه من جمود ، وما اعتادوا عليه من نزعة تسلطيـة تحكمية ، وعـدم قدرتهم على التعلم والتطور والتغير الى الأفضل . وفي تقديري ان اتجاهات هؤلاء الرجال وسلوكهم انما هي امثلة تشير الى الكيفية التي تتحجر فيها بعض الاتجاهات في المجتمع قبل ان تتهاوى . ومن هنا فمن الميسور ان نرى كيف ان فترة الخواء والسهاوة تلي فترة [الرجال الأشداء[١٠]] ؛ فالجامدون افرغهم من المحرّك الآلي فيهم ، تجدهم خواة فارغين .

لذا لا ترانا نأسى لموت انسان (الجيروسكوب) . وبوسع المرء ان يثبت على جدثه شاهداً[١١] مكتوباً عليه : (انه بالديناصور أشبه ، كان يمتلك طاقة فائقة ولكن من غير قدرة على التغير ، ويتمتع بالقوة ولكن من غير كفاية ـ كفاءة ـ على التعلم . تكمن القيمة الرئيسة في فهمنا لهؤلاء الذين يمثلون جيلاً متبقياً من نماذج القرن التاسع عشر ، تكمن في احتمال أن نكون اقل تأثراً (بقوتهم الذاتية) الزائفة . ولئن تمكنا من ادراك حقيقـة ان منهجهم الآلي الرامي الى الظفر بالطاقة النفسية كان منهجاً سقيماً ، فهو بالتالي يحمل في ثناياه الهروب الذاتي . ان التوجيه الذاتي هو بديل أخلاقي عن التكامل بدلاً من أن يكون هو التكامل بعينه ، بعد هذا كله سنكون اكثر قناعة بضرورة ايجاد موقف للقوة جديد في اعماق نفوسنا .

والحق ، ان مجتمعنا لم يتوصل بعد الى شيء ما ليحل محل ما في الانسان الآلي من قواعد جامدة . ويشير ريزمن الى أن الناس في زماننا هذا ، من ذوي

---

(١٠) ترجمة لعبارة iron men وآثرناها في المتن بدلاً من ترجمتها حرفياً بـ (الرجال الحديديين) . (المترجم) .

(١١) الحجر الذي يحمل اسم الميت وتاريخ وفاته . (المترجم) .

(التوجيه الذاتي الخارجي) يتصفون عامة باتجاهات تتسم بالسلبية[١٢] Passivity وبفتور الشعور[١٣] apathy . فشباب اليوم ، مثلاً ، قد تخلوا عما يدفعهم الى التفوق من طموح حافز يبلغهم الذراري ، وهم اذا كان لـديهم مثل هـذا الطموح ، حسبوه متوهمين انه انما وصل اليهم خطأ فيروحون يعتذرون عن الأخذ بما يعدونه من مخلفات اعراف mores آبـائهم القليديـة . انهم فقط يحبون ان يروا انفسهم مقبولين من لدن اقرانهم منذ يحين في الجماعة حتى ولو كان ذلك بعيداً عن الحد المعقول والمقبول اجتماعياً . والصورة الاجتماعية هذه في خطوطها العريضة اشبه بالصورة التي تتحصل لدينا من خلال عملنا مع الأفراد الذين تقتضي الظروف لأن نكون معهم على تماس[١٤] .

منذ عقد مضى أو عقدين خليا ، عندما أخذت بوادر الخواء تظهر آثارها اول مرة على نطاق واسع وراح الناس يتحسسونها ، وقد بدأ ذلك النوع من الضغط يلقي بظلاله على فئات الطبقة الوسطى من المجتمع ، شرع الناس يستهينون بذلك الضرب من الخواء ويصفونه بأنه من (أمراض الضاحية) the sickness of the Suburbs ، ويراد بذلك حياة الضواحي وما فيها من رتابة وملل ، واوضح صورة لذلك : الحياة الخالية الخاوية التي يحياها انسان ضواحي المدن ؛ فهو يستيقظ في الساعة نفسها من صباح كل يوم ، ويستقل نفس القطار الذي يوصله الى مكان عمله في المدينة ، فيؤدي نفس المهمـة الموكولة اليه في مكتبه ، ويتناول طعام الغداء في نفس المكان ، ويعطي عاملِ السفرة في المطعم نفس الهبة tips ونفس المقدار من النقود ، ويعود مساءً قافلاً الى بيته في نفس القطار ، ويكون قد أنجب طفلين او ثلاثة ، ويعنى بحديقة

---

(١٢) السلبية نمط من الشخصية يتسم صاحبها بمشاعر الخضوع والخنوع وبمشـاعر الانـزواء ، في العلاقات مع الآخرين ، وهي سمات أقرب الى سمات الفصاميين . (المترجم) .

(١٣) فتور الشعور او اللامبالاة حالات نفسية تفضي الى اعاقة النشاط التعبيري في الانسـان ، فيكون الفرد في حالة تبلد انفعالي وذلك لأسباب قد تكون خارجية وقد تكون عصابية . (المترجم) .

(١٤) يقصد المؤلف اولئك الذين يأتون اليه في العيادة . (المترجم) .

بيته الصغيرة ، وفي كل صيف يمضي عطلة امدها اسبوعان على ساحل البحر وهي عطلة بلا طعم ولا يستمتع بها ، ويغشى الكنيسة أيام عيد الميلاد وعيد الفصح ، فهو يتحرك في وجود آلي رتيب عاماً تلو عام حتى يدركه سن التقاعد في الخامسة والستين من حياته ، وسرعان ما يموت من نوبة قلبية ، وربما تكون قد أصابته جراء استياء وحقد مكبوت دفين ، على اني دائماً يساورني شك خفي أنه انما يموت بسبب السأم والملل .

ولكن ثمة في العقد الحالي أمارات تنمّ عن أن الخواء والسأم قد أصبحا حالتين تنطويان على مخاطر أشد بالنسبة لكثير من الناس . فمن أمد ليس ببعيد ، نشرت الصحف في نيويورك نبأ عن حدث يثير الاستغراب ، وهو أن سائق باص في مدينة (برونكس) Bronx بكل بساطة ساق باصه خالياً وتوجه الى جهة مجهولة ، ولكن (البوليس) تأثره فعثر عليه بعد بضعة أيام في (فلوريد) Florida . وعندما سئل أوضح انه جراء الملل الذي كان يعانيه بسبب مروره كل يوم بنفس الطريق ، قرر أن يبتعد عن ذلك والقيام بسفرة على طريقته الخاصة . وفي الوقت الذي تمت فيه إعادته اتضح مما نشرته الصحافة ان الشركة مالكة الباص كانت تواجه صعوبة في اتخاذ قرار فيما اذا كان ينبغي معاقبة ذلك السائق وكيف يمكن ان يكون العقاب . وفي الوقت الذي وصل فيه برونكس كان موضع حفاوة ، وان جمعاً من الناس كانوا قد تجمهروا ليحيوه ، وإن لم يكونوا يعرفونه من قبل . وعندما أعلنت الشركة انها لن تعاقبه وانها ستعيده الى عمله على أن يكف مستقبلاً عن القيام بجولات كهذه ؛ فما ان تسامع الناس بهذا النبأ حتى انطلقت هتافات الاستحسان فعلاً ومجازاً بحيث عمت ارجاء برونكس بأسرها .

لماذا يخلق مواطنو مدينة برونكس هؤلاء من انسان هو وفق معاييرهم سارق لذاته auto thief ، يخلقون منه بطلاً ؟ الا يمكن ان يكون قد تشبع بالملل جراء ممارسته مهنة كلها رتابة ، مما رأى فيه سكان مدينة برونكس انه انما هو حالة معبرة عن حالاتهم هم : فكلهم مثلاً يشبهونه حيث يحسون في

دواخلهم بالخواء والفراغ والملل . فالخواء ، في هذه الحالة ، وضع نفسي يشق على من يعانون[١٥] منه .

وفي بعض الدارات يُتخذ الخواءُ هدفاً يسعى اليه الساعون ، تحت غطاء مهلهل من التعتيم يعبر عنه بأنه (التكيف) . وما من مكان تم فيه توضيح ذلك على نحو اكثر استثاراً بالاهتمام أنسب مما نشرته (مجلة حياة) The Life Magazine في مقال في هذا المجال بعنوان (مشكلة الزوجة)[١٦] The Wife Problem ، ففي هذا المقال وهو يلخص نتائج بحوث كانت قد تم نشرها في مجلة (فورتيون) Fortune ، تناولت دور زوجات المديرين التنفيذيين لاتحاد شركات معينة ، فوردت الاشارة في المقال المذكور هذا الى أن الزوج سواء تمت ترقّيته أم لم تتم كان الأمر كله يتوقف الى حد بعيد على ملاءمة الزوجة (النمط)للموقف ككل . لقد مضى ذلك الزمن يوم كانت فيه زوجة القس لا مناص لها من ان يراها مجلس امناء الكنيسة ويقابلونها قبل تعيين زوجها ، اما الآن ، فإن زوجة مديري الشركة تحجب ، بالفعل والمجاز ، ظاهراً وباطناً ، وهو اجراء تعمد اليه معظم الشركات سواء ، في ذلك شركات الصلب او شركات النسيج او اي نهج تنتهجه الشركة وتراه مناسباً فتستخدمه . فالمطلوب توفره فيها ـ في زوجة مدير الشركة ـ ان تتمثل فيها الروح الاجتماعية العالية وليس بالضرورة ان تكون مفكرة او عالية الثقافة ، ويجب ان تكون مفرطة الحساسية في تحسساتها الاجتماعية[أي ذات صفة رادارية عالية] بحيث دائماً تتمكن من التكيف الدائم .

فالزوجة الصالحة انما تكون كذلك لا بما تقوم به من أشياء تنفذها ـ ولا بالشكوى والتذمر عندما يتأخر زوجها في مكتبه لانجاز مهامه ، ولا بالضجة والضجيج حينما يتم نقل زوجها الى مكان آخر ؛ ولا بانشغالها بأعمال مختلفة

---

(١٥) الخشية من الفراغ والخواء هي ان يتحول الى يأس واليأس عدو لدود للأمل ، والنفس التي تخلو من الأمل تفقد أحاسيس التمتع بمباهج الحياة وبالتالي يتدنى الابداع . (المترجم) .

(١٦) في ٧ كانون الثاني ، ١٩٥٢ .

متناقضة . كلا ، ليس بأي من ذلك تكون صالحة او يكون صلاحها . لذا لا يعتمد نجاحها على الكيفية التي تستخدم فيها قواها وطاقاتها ، وانما يعتمد نجاحها على الكيفية التي تستخدم فيها قواها وطاقاتها ، وانما يعتمد نجاحها ويتوقف على الكيفية التي تكون فيها صادقة مع ذاتها ، منسجمة مع نفسها . والقاعدة التي تنتظم الجميع ، كما تقول مجلة (حياة) ، هي (**لا تكن مغالياً في أسس الصلاح** . مسايرتك الآخرين يعد أمراً بالغ الأهمية لا ريب . لكن المهم ان تدرك متى يمكن الانطلاق بشكل اساسي لتبزّ منافسيك ، ذلك هو السؤال ؛ وعليك يتوقف احكام الموقف . واليوم فإن المجاراة تعني : المجاراة ، لا غير . المسايرة . وبمقدور المرء أن ينطلق، نعم بوسعه ان يفعل ذلك ـ ولكن برفق ـ وان التوقيت يجب ان يكون دقيقاً) . وفي المآل فإن ظروف الشركة ستتأثر بكل ما تفعله الزوجة ـ ابتداء من نوع الرفقة المسموح لها بمصاحبتهم ، مروراً بنوع السيارة التي تمتلكها ، وانتهاءً بمقدار ما تشرب وبنوع ما تقرأ . وليكن معلوماً ، فإن الشركات الحديثة بالمقابل تهتم بأعضائها وترعاهم عن طريق تأمين الحماية الزائدة لهم وتوفير الضمان المطلوب ، والاجازات المبرمجة ، ومالى ذلك . وتعلق مجلة (حياة) على ذلك بقولها ان (الشركات قد اصبحت بمقام الأخ الكبير ، big brother) ـ انها رمز للدكتاتور ـ كما ورد في رواية جورج اورويل G. Orwell ، الموسومة بـ (العالم عام ١٩٨٤) .

يعترف محررو مجلة (فوريتون) ، بأن هذه النتائج أضحت (مخيفة بعض الشيء . فالامتثال ، كما يبدو ، انه اصبح رفيع المقام مستحوذاً ، فينظر اليه وكأنه يكاد يبلغ مصاف الأحكام الروحية . . . ولعل الامريكان سيصلون يوماً ما الى مناجزة المجتمع ، لا عن طريق دكتاتور متسلط ، وانما عن طريق رغبة جامحة منفلتة يسير فيها كل منهم مع الآخر على هواه . . .) .

وبيناً كان المرء ، منذ عقد أو عقدين من الزمن خليا ، يضحك مما كان يقع فيه الناس من إملال وضجر لا معنى له ، فإن الخواء الآن قد تحول لدى

الكثيرين منهم من حالة الاملال والسأم الى حالة من الفألـة واليأس الآسر الذي ينطوي على الموعود من المخاطر . فمثلاً ان انتشار ادمان المخـدرات والعقاقير بين طلبة المدارس الثانوية في مدينة نيويورك انما يعزى على نحو وثيق ودقيق الى حقيقة أن أعداداً كبيرة من هؤلاء المراهقين باتوا لا يرون أمامهم من آفاق المستقبل حين يرنون بأبصارهم الآ القليل الضئيـل ، فهم لا يتمثلون أمامهم سوى الجندية ، والظروف الاقتصادية المتقلبة ، فيحسون بأنهم من غير أهداف إيجابية بنّاءة . وليس في طوق الكائن البشري أن يعيش في خواء امداً طويلاً : فما لم يكن بمقدور الكائن الانساني النماء والتوجه بأزاء شيء يبعث على الأمل ، فإنه في الأقل لا يتوقف راكداً جامداً ؛ ذلك لأن الطاقات المتفجرة فيه ، ان هو أحس بالركود ، تنكفىء فتتحول الى حالة مرضية ويأس ، فتغدو بالتالي نشاطات تدميرية .

فما هو الاساس النفسي لهذه الخبرة من الخواء ؟ ان ما لاحظناه ملاحظة اجتماعية أو فردانية من احساس بالخواء او الفراغ ، لا ينبغي ان تؤخذ بمعنى ان الناس اخوياء خاوين جوف ، او أنهم من غير طاقة انفعالية . فالكائن الانساني ليس خاوياً بالمعنى الجامد الاستاتيكي static وكأنه نضيدة (بطارية battery) خازنة للطاقة وانما تتطلب الشحن واعادة تخزين الطاقة فيها كلما تطلب الأمر ذلك . بل ان حالة الخواء بوجه عام تتولد من احساس أناس بأنهم عاجزون عن ان يفعلوا أي شيء له اثره الايجابي في حياتهم الخاصة بهم او في ما يخص العالم من حولهم . إن الفراغ الداخلي انما هو نتيجة لاعتقاد نابع من داخل المرء ، وقد تراكم اعتقاده هذا على امتداد فترة طويلة ، فيظن ظناً ذاتياً بأنه لم يعد قادراً على ان يعمل وينشط بوصفه كياناً وكائناً قادراً على توجيه حياته توجيهاً ذاتياً ، أو تغيير اتجاهات الناس الآخرين نحوه ، او التأثير في العالم المحيط به تأثيراً ذا اثر مرغوب . لذا نراه يسلم نفسه لليأس ويستسلم للفألة وهي حالة نجدها تنتاب كثيراً من الناس في أيامنا هذه . ولما لم يكن بوسعه التمييز بين ما يحب وبين ما يحس به ، فإنه سرعان ما يعزف عما يرغب

فيه ، فلا يعود بمقدوره التمييز بين ذلك كله وبين ما يتحسسه ، فيستسلم لليأس والقنوط . اذ ان تبلّد الشعور وفقدان الاحساس انما هما وسيلتان دفاعيتان ضد القلق المستحوذ . فعندما يواجه المرء باستمرار اخطاراً يعجز عن قهرها او تخطيها ، فإنّ خطه الدفاعي الأخير يكون في تجنب حتى التفكير بالأخطار نفسها .

ان طلاب المعرفة المتحسسين في وقتنا هذا قد تبينوا هذه التطورات وهي قادمة مقبلة . ومن هؤلاء ، مثلاً ان اريك فروم Erick Fromm الذي اوضح ان الناس اليوم لم يعودوا يحيون تحت سلطة الكنيسة ولا هم مسيرون بروح القوانين الأخلاقية ، وانما هم يعيشون في ظل (سلطات مجهولة) anony-mous authorities ، كالرأي العام public opinion مثلاً . فالسلطة تمثل الرأي العام نفسه ، ولكن الرأي العام هذا انما هو مجرد مجموعة من أفراد كثيرين لكل واحد منهم جهاز استحساس (رادار) خاص به مكيف على نحو يشعره بتحسس ما يتوقعه منه الآخرون . فالمقال المنشور في مجلة (حياة) - عن مدير الشركة وزوجته - يأتي في القمة ، ذلك لأنهما قد نجحا في (التكيف) الى الرأي العام . فالعامة او العام ، اذاً ، يتكون من اشخاص هم : توم ، وماري ، ولك ، وهاري ، الذين هم منقادون الى سلطة الرأي العام . ولهذا فإن ريزمن قد وضح معيار الحقيقة اللازبة حين ذكر بأن العامة او العام انما يخافون شبحاً ghost ، يخشون بعبعاً bogeman يخافون من وهم chimera . انها لسلطة مجهولة، بكل ما في الكلمة من معنى ، عندما تكون السلطة هذه مؤلفة من حشد متفاعل قوامه ذواتنا نحن ، بيد أنها من غير مراكز توجيه فردانية ذاتية . فنحن في المآل خائفون مما فينا من فراغ جمعي وخواء .

لدينا ، وشأننا في هذا شأن محرري مجلة (فوريتون) ، أسباب معقولة تحملنا على التخوف من وضع الامتثالية هذه ومن وضع الخواء والفراغ الفرداني . وما علينا الا ان نتذكر بأن الخواء والفراغ الأخلاقي والانفعالي الذي عم المجتمع الأوروبي منذ عقود خلت كان بمثابة دعوة مفتوحة مهدت

الطريق امام دكتاتوريات فاشية ناءت بكلكلها على تلك المجتمعـات لتملأ ذلك الفراغ Vacuum .

واكبر الخطر في هذا الموقف الفراغي والعجز يتمثل في انه يفضي عاجلاً أم آجلاً الى قلق مؤلم ومضن ، ويأس ، فيؤدي ، في خاتمة المطاف ، الى ما لم يتم اصلاحه ، الى الاحساس بالتفاهة ، والى اعاقة أغلى مؤهلات الانسان وارفع خصائصه وكفها عن التطور والنماء . وان ما يترتب على ذلك من نتائج هو تقزيم الاشخـاص وتدمـيرهم سيكولـوجياً ، أو انهم ، كملجـأ اخير ، يستسلمون الى ضرب من ضروب النزعة السلطوية المدمرة .

الوحـــدة

وصفة أخرى من صفات الناس المعاصرين هي الوحدة loneliмess .
وهم يصفون هذا الاحساس بأنه احساس كائن في الجانب الآخر من حياة الانسان (وفي النطاق الخارجي) من علاقاته بالآخرين ، احساس الفرد بأنه منعزل isolated ، أو اذا هم شاؤوا التحذلق ، فإنهم يقولون انهم مغتربون alientated . وما اكثر ما يؤكد الأفراد اهمية دعوة توجه اليهم فيلبونها مغتبطين لا لشيء الاّ لكي يستشعروا بروح الاندماج ولأن في ذلك برهاناً على انهم ليسوا مستوحدين ، ومن أجل ان يدرأوا عن انفسهم الاحساس بالوحدة . ذلك أن الوحدة تهديد قائم وشامل ومؤلم بالنسبة لكثير من الاشخاص الى حد انهم ينسون القيم النادرة الايجابية للخلوة النفسية ، حتى انهم احياناً يفزعون اشد الفزع لمجرد فكرة احساسهم بأنهم في هذا العالم مستوحدون . وان كثيراً من الناس ، كما يعلق اندريه جيد André Gide ، ليعانون من (الخوف من ان يجدوا انفسهم وحيدين مستوحدين ، وبالتالي فإنهم لهذا لا يجدون انفسهم ابداً) .

ان احاسيس الخواء والفراغ والوحدة تتلازم كأشد ما يكون التلازم . فحينما يتحدث الاشخاص ، مثلاً ، عن نهاية حب فاشل ، فإنهم في الغالب

لا يذكرون انهم يحسون بالأسى والإذلال ازاء هزيمة في معركة حب خاسرة ؛ وانما هم يتحدثون بدلاً من ذلك فيقولون انهم يحسون بـ (خواء) وفراغ داخلي . اذ ان خسران الطرف الآخر يجعل الواحد يحس بـ (فراغ متثائب) Yowning Void ، كما عبرّ عن ذلك أحد الأشخاص .

وأسباب العلاقة الوثيقة بين الوحدة والخواء ليست بالصعب اكتشافها . فحينما لا يعرف الشخص ، منطلقاً بذلك من اعتقاد داخلي فيه عميق ، ماذا يريد وبماذا يحس ، ولكنه في فترة من فترات صدمة التغيير ، يصبح على وعي بحقيقة الرغبات والأهداف التقليدية التي يتعين عليه اتباعها ، فيجد انها لا تؤمن له الحماية والامان ولم تعد توفر له اي توجيه يرغب فيه او له معناه ، أعني ، حينما يحس بفراغ داخل ذاته ، وهو وسط خليط من التشويش والتشتيت ، فإنه بعد هذا كله ، يحس بالخطر يحدق به ؛ فتكون ردود الفعل لديه التطلع الى اناس آخرين من حوله ؛ مؤملاً أنهم سيمنحونه شيئاً من الاحساس بالتوجيه والدراية ، أو أنهم ، في الأقل ، سيوفرون له نوعاً من المعرفة تجعله يدرك انه ليس هو الوحيد في موقفه هذا في لجة الحياة . لهذا فإن الخواء والوحدة انما يمثلان نفس الخبرة من القلق .

ولعل بوسع القارىء ان يستذكر موجة القلق الجارفة التي طغت علينا كموجة المد الطاغي عندما انفجرت اول قنبلة ذرية فوق هيروشيما ، عندما أحسسنا بخطر فظيع ـ أحسسنا بأننا ربما سنكون آخر جيل يعيش فوق هذا الكوكب ـ لكننا لم نكن نعرف في اي اتجاه يجب ان نتجه . ولكن ، يا للغرابة ، ان يكون رد الفعل لدى معظم الناس ، هو الاحساس المفاجىء بالوحدة العميقة المطبقة . ولهذا فإن ما كتبه نورمن كوزن Normon Cousin ، في مقالة له بعنوان (الانسان المعاصر مهمل مهجور) Modern Man is Obsolete ، اجتهد فيها أن يوضح أعمق احاسيس الناس الأذكياء وموقفهم من تلك اللحظة التاريخية الصادعة المذهلة . فهو ما كتب ليبيّن كيف كان الفرد حينئذٍ يفكر في حماية نفسه ضد الاشعاع الذري ، ولا كيف يمكنه

مواجهة المشكلات السياسية ، ولا ليوضح مأساة تدمير الانسان لذاته . كلا ، لم يكن شيء من ذلك يهمه . بل ان مقالته الافتتاحية تلك ، بدلاً من ذلك كله ، كانت تتمحور حول الوحدة والغربة القاتلة . فقد اوضح ان [تاريخ الانسان بقضه وقضيضه انما هو جهاد يرمي الى تمزيق سجف(١٧) وحدته ـ العازلة القاتلة ـ] .

تتأتى احاسيس الوحدة عندما يحس المرء من داخله بالخواء وحينما يشعر بأنه خائف ، وليس ذلك لمجرد حاجته الى الحماية من جانب الجمهور ، مثلما تحتمي العجماوات المتوحشة بالقطيع ، ولا هو اشتياق الى الآخرين اجتهاداً في ملء فراغ متسرب الى ثنايا الذات ـ وان كان ذلك احد جوانب الحاجات الحافزة الى الرفقة الانسانية حينما يحس ايضاً ، هو أن الكائن الانساني كونه ذاتاً يجني خبراته ويكتسبها من خلال انتمائه الى اشخاص آخرين ومن مقدار علاقاته معهم . وحينما يكون منفرداً ، بعيداً عن الناس الآخرين ، فإنه عندئذ يخشى فقدان طعم هذه الخبرة المتمثلة في استشعاره كونه ذاتاً . فالانسان ، هذا المخلوق الحيوي ـ الاجتماعي biosocial ، لا يعتمد فقط على أشخاص آخرين ، كالأب والأم مثلاً من اجل الأمن والطمأنينة خلال مرحلة الطفولة وحسب ، وانما هو يتلقى كذلك من خلال علاقاته المبكرة تلك شعوره بذاته التي هي استعداده في توجيه نفسه في الحياة . النقاط المهمة هذه سنتولى مناقشتها باسهاب في فصل لاحق ـ وجل ما نرغب في بيانه الآن هو فقط اجتلاء حقيقة اخرى هي ان جزءاً من الاحساس بالوحدة انما يتأتى من كون الانسان بحاجة الى علاقات مع غيره من الناس الآخرين لكي يتمكن من توجيه ذاته .

لكن سبباً مهماً آخر من اسباب الاحساس بالغربة ينشأ من حقيقة ان مجتمعنا يولي تأكيد التقبل الاجتماعي للفرد أهمية كبرى . انها سبيلنا الرئيسي للتخفيف من ظلال القلق ، وانها علاقتنا الرئيسية للتدليل على المكانة

(١٧) جمع سجاف : ستارة وجمعها ستائر . (المترجم) .

الاجتماعية . لذا يلزمنا دائماً ان نبرهن على اننا (ناجحون اجتماعياً) وذلك من خلال الاهتمام الدائم بنا ومن خلال الشعور بأننا لسنا وحيدين في هذه الحياة . فإذا ما كان الواحد منا محبوباً اجتماعياً تماماً ، أعني انه ناجح اجتماعياً ـ وهكذا ينبغي ان تكون الفكرة ـ فإنه قلما سيكون منعزلاً او معزولاً ، وبالتالي فإنه لا يحس بالغربة ؛ والّا تكون محبوباً فإن هذا يعني انك ضائع في خضم صفوف وطوابير الجنس (البشري) . ففي أيام الانسان الآلي الحركة وما قبله من زمن مضى ، كان المعيار الرئيسي للمكانة هو النجاح المالي : اما الاعتقاد الآن فهو : اذا كان الفرد محبوباً اكثر ، فإن النجاح المالي والمكان سيأتيان . ولهذا فإن ويلي لومن Willie Loman ، في كتابه (موت بيّاع) Death of salesman ، ينصح ابناءه بقوله : [كونوا محبوبين ، ولن تكونوا بعد في حاجة] .

انا ونللي ـ نحن الاثنين ـ وحدنا ،
وما من نفس سوانا تنبيء عن معاناتنا . . .
هنا ، فقط ظلي وأنا ،
مستوحدين ، ونحن كآبتنا(*) .

لا ضير من ان ترغب في ان تنفرد بذاتك وتخلو بعض الوقت الى نفسك بشكل مؤقت [لتهرب من معاناة الوحدة والعزلة ومن كل ما يضير) . وهذا شيء طبيعي ان يكون المرء مع نفسه وحيداً فترة وجيزة من الوقت . ولكنه اذا ما ذكر ، وهو وسط حفل قائم ، انه يجب ان يترك وشأنه وانه يجب ان يكون وحده منتحياً جانباً من الناس الموجودين في ذلك الحفل ، فإن الناس من حوله يشكّون في أمره ، فيعتقدون ان ثمة شيئاً غير طبيعي اعتمل في داخل نفسه ، شيئاً مبهماً مغلوطاً يمس كرامته وكيانه النفسي . فيشرع الذين حوله يتساءلون عما اعتراه فيخمنون ان ما به قد يكون ضرباً من ضروب نوبة الانتباذ او النبذ

* "Me and my shadow» by billy Rose, al Jolson and Dave Dreyer, 1927, by Bournephne. New York.

pariah aura ، ولعلها حالة من حالات اللامساس[١٨] Untouchability ، وربما يحسبون انه قد ألمّ به مرض ما . والناس يساورهم الشك اذا ما انفرد انسان بنفسه معظم الوقت فيعدونه مخفقاً في حياته او فاشلاً في أعماله ، ذلك لأنه من غير المعقول اجتماعياً ان يضرب المرء ستاراً من العزلة على نفسه فيتوارى عن الناس والحياة[١٩] .

هذا الخوف من العزلة يقبع وراء حاجة الناس الكبرى في مجتمعنا فيدفعهم الى المخالطة . يدفعهم الى ان يظفروا بمن يدعوهم ويدعونه . انهم يحبون ان تقبل دعوتهم وان يكونوا موضع عناية غيرهم من الناس . وهذه حاجة طبيعية في تكوين الانسان وبنيانه النفسي والاجتماعي . وان نوازع الرفقة والتلاقي على المستوى الاجتماعي يفضي الى واقع الاحساس بالراحة والشعور بمتعة الاطمئنان ، والاستمتاع بدفء الحنان ، وهذا من شأنه ان يفضي الى اثراء الخبرات . وفي اقل الاحوال ، فإنه ينتهي ، مثلاً ، باستجلاب الالتذاذ بالاسترخاء وينأى بالمرء عن التوتر . ومثل هذه الدوافع تكون قليلة التأثير على النوازع القهرية compulsion التي يعرف عنها رفيعو الثقافة من الناس وهم على وعي بحقائقها . فالنزعة القهرية او الحصرية تدفع بصاحبها الى الرفض والرغبة في ان يقولوا [لا] ؛ لكنهم في قرارة انفسهم اشد ما يكونون رغبة في تلبية الدعوة . إنّ العزوف في الحالات الاعتيادية عن الحياة الاجتماعية معناه ان يجد الفرد ، عاجلاً ام آجلاً ، معزولاً وما من أحد يدعوه بعدئذٍ . والتمنع في مثل هذه الحالات انما يصدر عما يسمى بالخوف البارد[٢٠] الذي يطل برأسه المتجمد من مستويات وأعماق خفية مما يجعل الفرد

---

(١٨) قارن ما ورد في القرآن الكريم على لسان صاحب العجل في قوم موسى عليه السلام . (المترجم) .

(١٩) الانسان الخيّر العامرة نفسه بحب الخير صديق نفسه والناس اصدقاؤه ومن كانت نفسه مريضة وذاته رديئة هرب من ذاته لأن الرداءة مهروب منها ، ولذا تتفاقم الشرور في زوايا شخصيته فيجانب المجتمع ، واصلاح ذاته امر ميسور اذا هو اراد ، والارادة طوع بنان الانسان ذي العقل السليم . (المترجم) .

(٢٠) يراد بالخوف البارد التخوف غير المبرر الناجم عن تأويلات ذاتية لدى الشخص العازف عن =

في نهاية المطاف معزولاً تماماً ومتروكاً على الهامش (خارج اطار النشاط الاجتماعي) .

يقيناً ، ان الناس في جميع العصور كانوا وما زالوا يخشون الغربة فيحاولون التخلص منها . وكان باسكال Pascal ، في القرن السابع عشر ، قد لاحظ ان معظم ما يبذله الناس من جهود انما كانت ترمي الى تغيير مسارات أنفسهم . وقد أوضح ان الغرض من جل هذه التحولات انما كان بقصد تمكين الناس من تفادي التفكير مما هم فيه . ومنذ مئة سنة خلت كان كيركجارد Kirkgaard قد كتب يقول كان (الواحد يعمل كل ما هو ممكن من قبيل التغييرات والتسليات ، من ذلك مثلاً موسيقى الجنزاري ذات الأصوات الصاخبة التي تصم الآذان وغرضها درء الغربة وطرد وحشة الوحدة ، تماماً مثلما كان يجري في مجاهل غابات امريكا يوم كانوا يطردون الضواري المتوحشة بالمشاعل والقناديل وباطلاق الصرخات العالية وبأصوات الصنوج) . لكن المألوف في أيامنا هذه هو ان الخوف من الغربة اوسع انتشاراً ، وان الدفاعات defences ضده ـ مثل التسليات ، واللقاءات الاجتماعية ، ونشدان المحبة ـ انما هي دفاعات اكثر جموداً واكثر تسلطاً .

دعنا الآن نرسم صورة انطباعية لما يبدو بعض الشيء انه نموذج متطرف . فللخوف من الغربة في مجتمعنا منحى نلاحظه في مسرح الفعاليات التي تقام في المنتجعات الصيفية . ولنأخذ مثلاً على ذلك تجمعاً ساحلياً نموذجياً يتمتع الناس فيه بوجه عام بشيء من الرفاهية ، حيث يمضي الناس عادة اجازاتهم وعطلهم بعيدين عن ظروف العمل الرتيب ، فيجدون في منتجعاتهم تلك مهرباً من الحياة وملاذاً يلجأون اليه . وانه لفي غاية الأهمية بالنسبة لهؤلاء الناس ، كما يبدو ، ان يستمروا دائبين على نفس حفلات الشراب واللهو ، رغم حقيقة أنهم دائماً يقابلون نفس الاشخاص ، وكلهم يلهون

= المشاركات الاجتماعية من أي نوع كانت ، ومصدر ذلك كله عاطفة فاترة ازاء الأنشطة الاجتماعية . (المترجم) .

بنفس الأسلوب ، ويتحدثون بعضهم الى بعض حول نفس الموضوعات ، والمهم في الأمر عندهم ليس ما يقال ، بل المهم هو الابقاء على نوع من التواصل بالكلام مستمراً . اذ ان الصمت مأثمة كبرى ، ذلك لأن الصمت انما هو غربة وخوف وتخوف وتخويف . فلا ينبغي للمرء ان يكون حساساً اكثر مما ينبغي ، ولا يجدر ان يحمّل ما يقوله الآخرون اكثر مما يحتمل ، ويبدو ان ما تقوله يكون ذا أثر أكبر حينما لا تحاول فهمه[٢١] . يساور المرء انطباع غريب وهو يرى هؤلاء الناس ـ الذين يعانون من الاغتراب ـ وهم خائفون من شيء مجهول . فما هو هذا الشيء ؟ يبدو الأمر وكأن (الياتاتا) Yatata ، احتفالية قبلية بدائية ، وفيها تتمثل رقصة ساحرة ، يراد بها تهدئة أحد الآلهة . اذ يُزعم ان هناك الهاً ، او عفريتاً demon يتربص ، لهذا فإن القبليين ـ يحاولون اذن تخفيف حدة غضبه : انه صولجان الغربة الذي يحوّم في الجو ، فهو اشبه بالضباب يتحرك قادماً من جهة البحر . وما على المرء ، اذاً ، الاّ ان يتصدى لهذا : الا وهو صولجان الفراغ المتحرك هذا القادم ، وذلك منذ ساعات الصباح الاولى عندما يستيقظ المرء من نومه ، لهذا فليفعل الفرد ما في وسعه ليبعد ذلك الشبح القادم ، وباستخدام لغة المجاز ، فإن ما يحاول الناس العمل على تخفيفه هو سوط الموت ـ والموت هو رمز الفراق الأبدي ، انه الانفصال الدائم ، الغياب عن الكائنات الانسانية .

اقراراً بالحقيقة ، ان التوضيح الآنف انما هو توضيح متطرف . فمن خبراتنا اليومية التي يواجهها معظمنا ، قد لا يبلغ الخوف من الغربة والوحشة في الغالب عند المرء درجة حادة . فنحن بوجه عام لدينا من الوسائل ما نتمكن به من طرد الأفكار الموحشة ، وان قلقنا يظهر فقط في مخاوف أحلامنا العابرة التي سرعان ما ننساها بعدما نستيقظ في الصباح . لكن هذه الاختلافات من حيث حدتها الخاصة بالغربة ، ونجاحنا النسبي في دفاعاتنا ضدها ، لا تغير من المسألة الأساسية شيئاً . ذلك لأن خوفنا قد لا يكشف

(٢١) يقصد ان اكثر الناس يعنون بالرطانة قبل ما يكون للكلام من معنى ومكانة . (المترجم) .

عن نفسه جراء القلق من حيث هو قلق ، وانما هو ـ الخوف ـ قد ينجم عن أفكار محتدمة حادة تنشأ فتذكر بمواقف في الحياة عندما نكتشف بأننا لم توجه الينا الدعوة لحضور حفلة معينة مثلاً ، او عندما نشعر بأن شخصاً معيناً يحبنا حتى لو كان ذلك الشخص المعني لا يميل الينا في قرارة نفسه ، او حينما يذكر لنا انسان اننا ناجحون في عملنا ، أو أننا كنا محبوبين في موقف كذا وكذا في وقت ما في الماضي . وغالباً ما تكون مثل هذه العملية التوكيدية آلية الأداء بحيث اننا لا ننتبه اليها وهي تنتصب فجأة أمام ناظرينا على غير توقع منا . لكننا نحس بما يترتب عليها من ارتياح يتمثل في تحقيق اعتبار الذات لدينا . بيد أننا نحن ابناء القرن العشرين هذا ، حين ننظر الى انفسنا بأمانة ، أعني حينما نتملى ما وراء ذرائعنا والاستار ، الا نجد هذا الخوف من العزلة يكاد يصاحبنا تقريباً بصورة دائمية على الرغم مما يتخفى به من صور تنكرية كثيرة .

ان الخوف من الوحدة يستمد كثيراً من الرعب من قلق يساورنا مبعثه الخشية من أن نفقد وعينا بذواتنا . واذا ما تأمل الناس ملياً ووجدوا أنفسهم وحيدين لفترة من الزمن طويلة ، من دون أن يجدوا هناك أي انسان يتحدثون اليه ، او مذياع تنبعث منه اصوات تبدد وحشة الصمت والوحدة المطبقة ، فإنهم يبدأون يخافون بوجه عام من انهم على وشك ان (يخسروا الغايات) واهدافهم في الحياة ، الى انهم على وشك ان يفقدوا معالم ذواتهم ، وإنه ما من شيء يجدونه أمامهم محفزاً لهم ، وبالتالي فلا شيء محدد يتجهون اليه ويتوجهون صوبه . ومن اللافت للنظر انهم احياناً يذكرون انهم اذا بقوا وحدهم فترة طويلة فإنهم لا يعودون قادرين على العمل او اللعب والتسلية لكي يشعروا بالتعب ، وبالتالي فإنهم يقلقون فيأرقون . وبالتالي فإنهم لا يجدون لذلك تفسيراً ولا يستطيعون ، انهم يفقدون التمييز بين حالتي النوم واليقظة ، تماماً مثلما يفقدون التمييز بين الذات الموضوعية عندهم objective self ، والعالم الموضوعي من حولهم objective self .

كل امرىء يتلقى كثيراً من احساسه بواقعه مما يحدّثه به الآخرون ومما

هم يفكرون به عنه . لكن كثيراً من الناس في العصر الحديث قد تمادوا في اتكاليتهم على غيرهم من اجل احساسهم بالواقع الى حد انهم اصبحوا يخشون فقدان احساسهم بوجودهم ما لم يكن لهم متكأ واعتماد على مشاعر الآخرين نحوهم لكي يعرّفهم بالتالي على واقعهم الذي هم فيه(٢٢) . مما يؤول بهم الى ان يحسوا وكأنهم (يتناثرون) كما الماء يتدفق جارياً بكل اتجاه غائراً في الرمال . ان كثيراً من الناس هم الآن أشبه بالعُمي blind يهتدون الى سبيلهم في الحياة فقط بتلمس حشد من اناس آخرين ومن خلال التحسس وحده .

وهذا الخوف المتأتي من خشية المرء فقدان اتجاهه وتوجهه هو في صيغته المتطرفة ، خوف ذهاني . وعندما يكون الاشخاص حقاً على حافة الذهان ، فإنهم يكونون في الغالب بأمس الحاجة الى البحث عن ضرب من ضروب الاتصال بغيرهم من البشر . وهذا بحد ذاته شيء سليم ، اذ ان مثل هذا التواصل يتيح لهم جسراً لبلوغ الواقع .

لكن الموضوع الذي نحن بصدد بحثه هنا له اصول مختلفة ، فالانسان الغربي الحديث ، وقد تمرّن خلال اربعة قرون في التأكيد على العقلانية ، وحب الانتظام ، واواليات الحياة mechanism والآلات mechanics ، شرع يجدّ باستمرار ، وللأسف من غير جدوى ، لكي يكبح في نفسه هذه الجوانب التي لا تتلاءم مع المستويات الانتظامية والميكانيكية هذه . أوليس كثيراً ، ومما يتجاوز الحد ، القول بأن الانسان المعاصر ، وهو يتحسس الخواء في داخله ، يبقى خائفاً يترقب من حالة عدم وجود رفقائه من حوله ممن اعتاد على رفقتهم باستمرار ، وهو بالتالي يفقد الطلسم الذي يمكنه من اداء منهاج عمله اليومي الرتيب ، وفي حالة من نسيانه حاسة الزمن ، وازاء ذلك كله فهو على وشك ان يشعر ، ولو على نحو غير واضح ، بنوع من الخطر اشبه بما يحسه الفرد

---

(٢٢) هذه هي آفة فاقدي الثقة بالذات . فهم بحاجة دائمة الى من يمدهم بجرعات نفسية تعيد اليهم شيئاً من الثقة بأنفسهم . (المترجم) .

وكأنه على حافة حالة ذهانية ؟ فحينها تكون اساليب الفرد المعتادة ، وهو يوجه ذاته ، معرضة لخطر التهديد فيشعر المرء عندئذ بأنه غريب عن الناس الآخرين من حوله ، ممن يمكن ان يؤنسوا وحدته ، فمن المفروض ان يلجأ المرء في هذه الحالة الى مصادر قوته الداخلية الذاتية . لكن هذا بالذات هو ما اغفله الانسان المعاصر فنحّاه جانباً ، ولم يطوره في ذاته ، من هنا أصبحت الوحدة تكوّن تهديداً حقيقياً لكثير من الناس ، وليست مجرد تصور قائم في الأذهان فحسب .

ان التقبل الاجتماعي ، وهو جانب مرغوب فيه ، لذو سطوة عظمى ذلك لأنه يحاصر مشاعر الوحدة ويشدد عليها الخناق . فحيثما وجد ثمة شخص محاط بدفء مريح وحنان فائض ، فإنه يندمج في صفوف الجماعات الاجتماعية دون شك . اذ انه يكون مستغرقاً في أعماق الرمز النفسي[٢٣] psychological symbol ، فكأنه ينوي العودة الى اعماق الرحم . وهو بهذا يتخلى عن وحدته بصورة مؤقتة ، لكن هذا يتم على حساب تخليه عن وجوده كذات لها هويتها ولها كيانها . وعندها يضرب كشحاً عما يمكن أن يتيح له في المآل التغلب بشكل بنّاء على كوالح الوحدة ، أعني بذلك التخلي عما يمكّنه من تنمية مصادر القوة الذاتية في داخله ، والتخلي عن عناصر احساسه بالاتجاه السليم وابتعاده عن استخدام هذا كله كأساس لتكوين علاقات لها جدواها توطد اواصر الصلة بينه وبين الآخرين . ومن هنا نجد المتنفجين من الناس اميل الى ان يكونوا اكثر استشعاراً بالوحدة مهما اتكأ بعضهم على بعض ومهما كان بعضهم لبعض ظهيراً ، ذلك لأن الخاوين من الناس ليس لديهم ثمة قاعدة يقفون عليها يتعلمون منها حلاوة المحبة .

---

(٢٣) يراد بذلك مجموعة افكار الانسان عن نفسه وتصوره للذاته وقد لا يكون تصوره هذا عن ذاته قوياً فيؤدي الى ما يسمى (بتحريف المجال الحيوي) الذي يعيش فيه . (المترجم) .

القلق وتهديده الذات

القلق ، وهو احد السمات الأخرى الملازمة للانسان الحديث ، انه اكثر تأصلاً في حياة الانسان المعاصر ، مما يكون عليه الخواء والوحدة عادة . ان كون المرء (خاوياً) hollow من داخله ويحس بالوحدة ، نجد ان الوحدة بحد ذاتها لا تضايقنا كثيراً سوى أنها تحيلنا فريسة الى ذلك الألم النفسي الغريب مما يجعلنا نهباً مشتتاً يضاف الى ذلك الجانب الممض المسمى ـ القلق ؛

فما منا من يطالع الصحف الصباحية فيعود بحاجة الى أن نقنعه بأننا نعيش في عصر مليء بالقلق . فقد خبر العالم في غضون خمسة وثلاثين عاماً حربين عالميتين ، وشهد اضطراباً مالياً وكساداً اقتصادياً ، وعنفاً نازياً ودكتاتورية شيوعية ، وهو الآن يشهد ليس فقط حروباً متقطعة هنا وهناك ، لكنه يعيش ايضاً مخاوف قائمة ومرتقبة من الحروب الباردة ابان هذه العقود من السنين وفي عقود قادمة ، ونحن في الحقيقة نكاد ننزلق الى حافة حرب عالمية ثالثة ذرية شاملة قد لا تبقي ولا تذر ـ ان هذه الحقائق البسيطة الواضحة للعيان التي تنشرها الصحافة اليومية كفيلة بأن تكشف لنا عن مقدار ما هي عليه مرتكزات عالمنا هذا من هشاشة . فلا عجب من أن يكتب بيرتراند رسل Bertrand Russell فيقول ان الشيء المؤلم : (في زماننا هذا هو انهم حمقى اولئك الذين يشعرون بالثقة والاستقرار ، واننا لنجد ذوي الخيال والاستيعاب والادراك يملأ جوانحهم الشك والحيرة والتردد) .

كنت قد بينت قبلاً في كتاب سابق ـ معنى القلق TheMeaningof Anxiety ـ ان منتصف القرن العشرين هذا كان اكثر القرون اصابة بالقلق منذ انقضاء العصور الوسطى . وان تلك السنين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر حين كانت اوروبا غارقة بالقلق المتمثل بالخوف من الموت ، يوم كانت تعاني من كروب الشك بشأن معاني قيم الحياة ، وتغمرها الخرافات والمخاوف من الشياطين والعفاريت والسحرة، تلك كلها تجعل الفترة تلك

اقرب ما تكون مقارنة بعصرنا الحاضر . وكل ما يحتاج ان يفعله المرء هو ان يقرأ اليوم عن المخاوف ـ التي تساور الناس ـ من الدمار النووي ويقارنها (بالمخاوف من الموت) التي كانت سائدة في تلك الفترة الموغلة في القدم من العصور الوسطى ، وأن يتأمل فقدان الايمان وضياع القيم الأخلاقية ، عليه ان يفعل كل ذلك ليتذكر ما كان سارياً في تلك العصور الخوالي من (عذابات الارتياب) agonies of doubt ، وعندئذ يكون بمقدور الفرد ان يستبين بدايات وصف تقريبي لوقتنا الحاضر هذا . فنحن ايضاً لدينا اليوم خرافاتنا المتمثلة بما ينتابنا على شكل قلق من الصحون الطائرة ومن اناس صغار الحجوم قادمين من المريخ ، وبما نخافه من (عفاريت وسحرة) ، ومن مسرح الناس الخارقين ، هذه وسواها من الأساطير المتأتية من اساطير النازية والدكتاتورية . ومن يرغب في الاطلاع على مزيد من القلق في عصرنا الحديث ـ متمثلاً في الاعراض الانفعالية والاضطرابات العقلية ، وفي حالات الطلاق والانتحار ، وفي التفجرات السياسية والتعثرات الاقتصادية ـ فما عليه الّا ان يرجع الى كتابنا المذكور آنفاً .

والحق ، ان عبارة (عصر القلق) age of anxiety ، هي بحد ذاتها تقريباً عبارة مبتذلة . ذلك اننا صرنا متأكدين من العيش في حالة من شبه القلق quasi-anxiety ، الى حد ان ما نواجهه من خطر حقيقي انما يكمن في اننا نعلل انفسنا بإغماض اعيننا تماماً مثلما تفعل النعامة حين تدس رأسها في الرمال . اننا سنحيا ابان العقود القادمة وسط جيشانات ، وصدامات ، وحروب ، واشاعات عن حروب ، وما سيواجه الانسان ذا (الخيال والاستيعاب) من تحدٍ هو أنه سيتصدى لهذه الاضطرابات مباشرة ، وسيتبين ، فيما اذا كان ذلك في طوقه ، وبما أوتي من شجاعة وتبصر ، ان يستخدم قلقه الملازم له هذا على نحو بنّاء .

انه لمن الخطأ بمكان ان نحن اعتقدنا بأن الحروب المعاصرة ، وصنوف الركود الاقتصادي ، والتهديدات المتباينة ، هي السبب الكلي الكامن وراء

جلّ ما نعانيه من قلق . ذلك ان قلقنا هـو نفسه يتسبب في إحـداث هذه الدواهي[٢٤] . ان القلق المتفشي في ايامنا هذه وما يمرّ به عالمنا الآن من جوائح اقتصادية وسياسية متداركة إنما هي أعراض لنفس السبب الأساسي ، أعني بذلك التغيرات الصادمة[٢٥] traumatic changes المؤذية السائدة في المجتمع الغربي الراهن . فالدكتاتورية الفاشية والدكتاتورية النازية ، مثلاً ، لا تحدث لمجرد أن شخصاً كهتلر او واحـداً مثل مـوسوليني قـرر ذلك فقـرر بالتـالي الاستحواذ على السلطة . بل ، عندما يكون ثمة شعب يقع فريسة لحاجات اقتصادية لا سند لها يدعمها ، وحينما يكون ـ هذا الشعب ـ في الوقت نفسه خاوياً منخوباً من داخله نفسياً وروحياً ، فإن الدكتاتورية ، في هذه الحالة ، تبرز لتملأ الفراغ الناجم ؛ ومن هنا يبيع النـاس حريتهم بحكم الضرورة ليتخلصوا مما يرزحون تحت وطأته من قلق لم يعودوا قادرين على احتماله .

ان ما هو منتشر بين ظهراني امتنا من فوضى وارتباك ليكشف عن هذا الضرب من القلق على اوسع مقياس . وفي هذه الفترة من الحروب والتهديد بالحروب ، نحن نعرف ما هو الشيء الذي نعارضه ، أعني بذلك الانتهاك الدكتاتوري لحريات الناس وكرامتهم . إننا ولا شك على يقين تام من مقدار قوتنا العسكرية ، بيد اننا في الواقع نقاتل قتالاً دفاعيـاً ؛ اننا بـذلك اشبـه بحيوان قوي في موقف حرج يضطر فيه الى الدفاع عن نفسه بضراوة ، ليس متأكداً ما اذا كان عليه ان يقاتل في هذا الجانب أو ذاك ، وما اذا كان عليه ان ينتظر او ان يهجم . إننا كأمة واجهتنا صعوبة كبرى بصدد التصميم بشأن الحرب الكورية ، والى أي مدى كان ينبغي علينا ان نذهب فيها ، وما اذا كان يتوجب علينا ان نجعل الحرب تدور رحاها هنا أو هناك ، او ما اذا كان يتعين

---

(٢٤) جمع داهية وهي هواجم الزمن والحياة ومآسيها . (المترجم) .

(٢٥) الصدمة في الطب النفسي هي التجربة غير المتوقعة التي لا يستطيع المرء تقبلها للوهلة الأولى وقد تصيبه بالقلق الذي يولد العصاب او التغير الذي يعرف بـ (بتغير) او عصاب الصدمة . (المترجم) .

علينا في أن نرسم الخط الفاصل ضد الدكتاتورية في هذه النقطة أو تلك . واذا ما أقدم اي طرف على مهاجمتنا فإن علينا ان نتوحد تماماً . لكننا مرتبكون بشأن الاهداف البنّاءة ـ فإلى اي شيء غير الدفاع ، اذاً ، نحن نسعى ؟ فحتى الايماءات الى الأهداف الجديدة التي تبشر بنجاح واعد جليل لعالم جديد مرتقب ، ومنها مثلاً مشروع مارشال ـ للمساعدات الخارجية ـ هي اهداف موضع تساءل من بعض الفئات .

عندما يعاني امرؤ ما قلقاً مستمراً في فترة معينة من حياته ، فإنه بذلك يعرّض جسده الى مرض نفسي ـ جسمي . وعندما تعاني جماعة معينة قلقاً متواصلاً ، من غير ان تكون لديها خطوات بناءة متفق على اتخاذها ، فإن افراد تلك الجماعة ، عاجلاً او اجلاً ، يأخذ بعضهم بخناق بعض ، وعلى هذه الشاكلة تماماً تكون الحال بالنسبة الينا كشعب ، فحينها يكون شعبنا في حالة من التشويش والارتباك والحيرة ، نكون قد عرّضنا انفسنا لسموم من امثال الاقتتال الأخلاقي حسب النزعة المكارثية ، ونبدد وقتنا في مطاردة السحرة ، والضغوط المطبقة الشاملة من كل مكان ، الأمر الذي يجعل كل فرد يشك في جاره .

وبتحويل نظرتنا من المجتمع الى الفرد ، نرى أوضح الظواهر تعبيراً عن القلق متمثلاً في تفشي العصاب وضروب الاضطرابات الانفعالية الأخر ـ والتي يتفق عملياً كل واحد بشأنها ، من فرويد فصاعداً ، على ان أسبابها متأصلة في القلق . وأن القلق هو الآخر يعد من الناحية النفسية القاسم المشترك للاضطرابات النفسية ـ الجسمية ، كالقرحة مثلاً ، وكثير غيرها من اشكال اضطرابات القلب ، وما شابه ذلك . وقصارى القول ، فإن القلق بالنسبة لنا يمثل الشكل الحديث للطاعون الأبيض[٢٦] white plague ، انه (القلق) اكبر مدمر لصحة الانسان ورفاهته[٢٧] .

---

(٢٦) كناية عن داء السل والعياذ بالله . (المترجم) .

(٢٧) الرفاهة والرفاهية بمعنى واحد وهي تقابل well-being . (المترجم) .

عندما نتحرى ما تحت السطح من قلقنا الفردي الذاتي نتبين ايضاً انه انما يتأتى من شيء هو اعمق من التهديد بالحرب ومن عدم الاستقرار الاقتصادي . اذ نكون قلقين لأننا لا نعرف اي الأدوار علينا ان نتبع ، ولا بأي المبادىء في العمل علينا ان نعتقد وبأيها يمكن ان ننتفع . فقلقنا الفردي الذاتي ، وهو الى حد ما يماثل قلق الأمة ، انما هو قلق ناجم عن ارتباك أساسي وحيرة وعدم دراية بما نحن اليه متجهون . فهل يتوجب على الفرد ان يكافح تنافسياً ليصبح ناجحاً اقتصادياً وثرياً ، كما كنا قد تعلمنا ، أو يتعين على المرء ان يكون انساناً طيباً محبوباً من الجميع ؟ فالمرء لا يمكنه ان يكون كلا النموذجين في آن واحد .

وفي ما يلي فقط هذان المثلان عن حالة سيتم بحثها في فترة لاحقة من هذا الكتاب ، وأعني بهما : الحيرة الأساسية بشأن الأهداف المرتجاة ومسألة القيم التي يتحسسها الانسان المعاصر . يذكر الدكتور ليند والسيدة ليند ، في دراسة اجرياها في الثلاثينات عن مدينة امريكية تقع في الوسط الغربي من امريكا ، بعنوان : **مدينة في حالة انتقالية** in Transition ، قالا في دراستهما تلك ان المواطنين في هذا الوسط المجتمعي النموذجي كانوا من قبل (في حالة من انماط الفوضى والصراع ، وما من أحد منهم شجب انماط الصراع شجباً كاملاً ، ولكن ما من أحد منهم استحسن تلك الحالة بوضوح . انهم جميعهم متحررون من بوائق التشتت والارتباك) . والفرق بين حالة المدينة المبحوثة في الثلاثينات تلك ، وبين موقفنا الحاضر ، كما اعتقد ، هو ان الفوضى والارتباك قد تغلغلا الآن على نحو أبعد فبلغا اعمق مستويات المشاعر والرغاب فينا . وفي موقف كهذا الموقف من الاندهاش والانذهال فإن كثيراً من الناس يستشعرون تجربة مزعجة مردها الى خوف متوقع وهو هاجس يماثل هاجس الفتى المذكور في قصيدة أودين Auden بعنوان : **عصر القلق** The Age of Anxiety ، يقول فيها :

قد أزف الزمان

ألسنا فيه معنيين بالتسآل ؟
اذا ما آن الأوان
ألسنا بكل بساطة أحرياء
بالوجود في المآل ؟

اذا كان هناك من يعتقد بأن ثمة اجابات بسيطة تتوفر لهذه الأسئلة ، فلا يكون قد فهم الأسئلة نفسها وما هو بمدرك لطبيعة هذا الزمن الذي نعيش فيه . هذا زمان ، كما عبّر عنه هيرمن هيس Herman Hesse ، فيه (حوصر جيل كامل . . . بين عصرين ، وبين نمطين من الحياة ، وبالتالي فقد ـ الجيل ـ كل ما لديه من طاقة تعينه على فهم نفسه ، وهو يفتقر الى المعايير ، ومن غير احساس بالأمن ، وهو ، بعد ، ليس لديه أدنى استعداد للاستجابة والامتثال) .

ولكن يستحسن أن نذكّر أنفسنا بأن القلق يدل على الصراع ، وطالما أن الصراع يبقى قائماً ، فإن حلاً بنّاءً يمكن التوصل اليه . والحق ، ان احباطاتنا الحاضرة بقدر ما هي مآسي قائمة ، فإنها في الوقت نفسه ، برهان واضح على امكانات جديدة متجهة صوب المستقبل ، كما سنرى في ما بعد . إن ما هو ضروري لاستخدام القلق على نحو بنّاء ، هو ، قبل كل شيء ، أن نقرّ بكل صراحة بما نحن فيه ، وان نواجه على المستويين الفردي والاجتماعي ، حالتنا الحاضرة المحفوفة بالمخاطر. وتيسيراً لكي نتمكن من ذلك ، فإننا سنجتهد الآن للحصول على فكرة أوضح عن معنى القلق .

ما هو القلق ؟

كيف ينبغي أن نعرّف القلق ؟ وكيف هو مرتبط بالخوف ؟ اذا كنت تسير عبر طريق خارجي ورأيت سيارة مسرعة نحوك ، فإن قلبك يبدأ بالخفقان السريع ، وانك تركز عينيك على المسافة الفاصلة بينك وبين السيارة

المسرعة تلك ، وكم من الطريق عليك أن تقطع لتصل الى الجانب الأمين منه ، وعندئذ فإنك تسرع عبر الشارع . إنك خلال كل ذلك تكون قد شعرت بالخوف ، وان الخوف هذا يكون قد نشّطك فاستحثك للاندفاع نحو النجاة بنفسك . لكنك ، وأنت تشرع بالاسراع لعبور الطريق ، اذا الفيت نفسك مأخوذاً بغتة بسيل من السيارات قادمة مسرعة من مسارات بعيدة وبالاتجاه المعاكس ، فإنك والحالة هذه تكون فجأة محاصراً في منتصف المسافة بين جانبي الطريق ، فلا تدري الى أين تتجه . فقلبك في هذا الموقف يطفق يخفق بشدة وبشكل أسرع ، لكنك الآن في هذه الحالة ، بعكس ما كنت قد أحسست به من خبرة خوف كان قد وصف آنفاً ، إنك الآن في هذا الموقف بالذات تشعر بالذعر ، وتحس ان بصرك قد علته غشاوة ، فلا تكاد ترى بوضوح . فقد أثير في داخلك دافع ـ ولنفترض آملين انك تطيق السيطرة عليه ـ فإنك بفعل هذا الدافع تعدو مسرعاً على نحو عشوائي في كل اتجاه . وبعد أن تتجاوزك السيارات مسرعة ، فقد تشعر بشيء من حالة اغماء خفيف وباحساس من الخواء في منطقة السرة من البطن . فهذا هو القلق .

ففي حالة الخوف نحن نعرف ماذا يتهددنا ، ونكون قد تنشطنا بمعطيات الموقف الذي نحن فيه ، وتكون ادراكاتنا الحسية اكثر حدة ، فنأخذ أهبتنا للقرار أو نحزم أمرنا لانتهاج أفضل السبل للتغلب على الخطر الماثل . اما في حالة القلق فنشعر بأننا مهددون من غير دراية منا ولا معرفة بما ينبغي أن نتخذ من خطوات لمواجهة الخطر . ان القلق هو احساس المرء بأنه محاط به ، بأنه (محاصر) ، وانه مغلوب على أمره . وبدلاً من أن تكون الادراكات أيقظ وأحذر ، فإنها بصورة عامة تصبح مغبشة ومشوشة او مبهمة .

وقد يحصل القلق على نحو من القوة خفيفة او شديدة . ولعله يتخذ شكل توتر معتدل قبيل البدء بمقابلة شخص مرموق ؛ ولعله يتخذ صورة خشية وتوجس قبل الشروع بخوض امتحان ، وانه يزداد حدة خاصة عندما يكون مستقبل المرء على وشك الضياع والفقدان ، وعندما يشعر المرء أنه ليس

متيقناً مما اذا كان بمقدوره اجتياز الامتحان أم لا ، ولعل القلق يمثل رعباً فظيعاً ، وذلك حينما ترى حبات من العرق يتفصد عنها جبين المرء وهو بانتظار ان يسمع عما اذا كان محبوباً له سيوجد حياً بين حطام طائرة كانت قد هوت الى الارض ، او ماذا كان ولده سيعود اليه سالماً أو انه غرق بعد ان غشيته عاصفة هناك على شواطىء البحيرة . الناس يجربون القلق ويحسونه بضروب شتى وبطرائق مختلفة : فهو يحدث على صورة (قرصة) gnawing داخل المرء ، ويتخذ شكل ضيق او انقباض في الصدر ، او يكون على صورة شدهان عام ، وقد يصف الناس القلق بالقول واللفظ وكأن العالم من حولهم يبدو كالحاً او اسود غربيب، أو لعلهم يقولون مثلاً أنهم يشعرون كأن حملاً ثقيلاً يحملونه وبه ينوؤن ، وربما يذكرون أنهم يحسون بما يشبه الفزع والهلع الذي يحسه طفل صغير عندما يدرك أنه ضائع .

والحق ، يمكن ان يتخذ القلق جميع الأشكال المذكورة ومختلف ضروب القوة والشدة ، ذلك لأنه يمثل رد فعل اساسي لدى الانسان في مواجهة خطر يهدد وجوده ، أو يهدد قيمة معينة من القيم التي يقرنها بوجوده في الحياة . نحن نعرف ان الخوف انما هو تهديد لجانب معين من جوانب الذات . فقد ينخرط طفل ، مثلاً ، في عراك مع اقرانه ، ولعله يتعرض من جراء ذلك الى أذى ، لكن ذلك الأذى لن يكون تهديداً لوجوده ؛ ولعل طالباً جامعياً يكون وجلاً من امتحان منتصف الفصل الدراسي ، لكنه يدرك أن السماء لن تطبق على الارض اذا هو أخفق في الامتحان ولم يفز بالنجاح . ولكن ما ان يصبح التهديد جدُّ كبير بحيث يشمل بجوانب الذات كلها ، حتى يستشعر عندئذٍ خبرة القلق . ان القلق يضربنا في **جوهر ذواتنا** : انه ما نشعر به ونحسه عندما يكون وجودنا مهدداً تماماً مثلما هي ذواتنا مهددة بخطر داهم .

انها نوعية الخبرة وليست كميتها تلك التي تجعل القلق قلقاً . ولعل الواحد منا يحس بقرصة بسيطة في وسط معدته عندما يصادف صديقاً في الشارع فيتجاوزه هذا الصديق دون أن يكلمه ، لكن التهديد هنا وان لم يكن

شديداً ، فإن الحقيقة هي ان القرصة المؤلمة تبقى مستمرة ، وان المرء يلبث مشوشاً فيروح باحثاً عن (تفسير) يعلل به سبب إعراض ذلك الصديق عنه . وكل هذا يكشف عن أن التهديد انما هو شيء أساسي في داخل ذواتنا .

وعندما يكون القلق في أوج شدته ، فإنه يكون ، ومما ورثه الكائن الانساني ، انفعالاً مؤلماً غاية الإيلام . هذا وان (المخاطر الحاضرة) لهي اقل من (التصورات المستقبلية) كما يذكر شكسبير ؛ وقد عرف عن الناس أنهم على استعداد بأن يلقوا بأنفسهم من قوارب النجاة ويفضلون الغرق على مواجهة غصص العذاب الأكبر والكرب الممض من الشك المستديم وعدم الاستقرار المستمر ، الذي لا يعلمون له نهاية ، فلا يعرفون ما اذا كانوا سينقذون منه أم انهم سيلبثون في ذلك البحران النفسي .

التهديد بالموت هو أجسم رمز شائع يثير القلق ، لكن اغلبنا في عهدنا (الحضاري) هذا نجد أنفسنا وكأننا ننظر من خلال ماسورة بندقية أو بطرائق أخرى وهي بوجه خاص كلها في الغالب تهدد بالموت . ان اكبر قسط من قلقنا يتأتى حينما يتضح لنا ان ثمة قيمة من قيمنا الرئيسة كتلك المتصلة بوجود ذواتنا مثلاً ، معرضة للتهديد . وهنا مثل توضيحي : ان توم Tom ، الرجل الذي سيدخل اسمه تاريخ العلم وذلك لوجود ثقب في معدته ، ومن خلال ذلك جعل الاطباء في مستشفى نيويورك يلاحظون استجاباته النفسية - الجسمية ويراقبون ردود فعله وهو في حالات من القلق ، والخوف ، وسوى ذلك من ضروب الانعصاب Stress والاجهاد الأخرى ، قد ضرب أجمل مثل توضيحي على هذا . ففي الوقت الذي كان فيه توم قلقاً بشأن ما اذا كان بمقدوره المحافظة على عمله في المستشفى أو أنه سيعفى من أعبائه ، صرح بقوله ، (انني اذا لم استطع رفد أسرتي واسنادها ، فإني سرعان ما سأكون خارج الحلبة) . وبتعبير آخر ، اذا ما أصبحت القيمة الذاتية القائمة على الاحترام المتأتي من كسب الأجور مهددة ، فإن توم ، يكون مثله مثل وولي لومان Wilie Loman وسواه من رجال آخرين لا حصر لهم في مجتمعنا ، فإنه

سرعان ما يأخذ بالشعور بأنه ذات لم تعد قائمة ولا وجود لها ، وانها كذلك تكون وكأنها في عداد الأموات .

وهذا يوضح بشكل عملي ما هو صحيح على نحو او آخر بالنسبة للكائنات الانسانية كافة . وان قيماً محددة ، ولتكن تمثل الظفر بالنجاح او ازجاء المحبة لشخص ما ، او حرية قول الحقيقة كما في حالة سقراط ، او كما في موقف جوانا النبّالة حين ذكرت بأنها كانت مخلصة الى (اصواتها الداخلية) المنبعثة من أعماقها ، هذه كافة اذا ما تم الاعتقاد بها بأنها لباب السبب في حياة الانسان ، واذا ما تعرضت قيمة كهذه القيم الى التدمير ، فإن الشخص يشعر بأن وجوده كذات يمكن أيضاً ان تتعرض الى التدمير . فالقول (أعطني حريتي والا فاعطني الموت) ليس ضرباً من البلاغة ولا هو بالقول الباثولوجي pathalogical . وطالما أن القيم السائدة لدى معظم الناس في مجتمعنا ترتبط في أن يكونوا محبوبين ، وشعورهم بأن يكونوا مقبولين من لدن الآخرين ، فإن كثيراً من ضروب القلق في أيامنا هذه انما تتأتى من تهديد مبعثه الخشية من فقدان المحبة ، والخوف من العزلة ، والغربة ، والجفوة .

معظم الأمثلة المذكورة آنفاً عن القلق هي بشأن (القلق الطبيعي الاعتيادي) normal anxiety ، أعني بذلك القلق الذي يتناسب والتهديد الحقيقي الذي يكتنف الموقف الخطير . ففي حالة نشوب حريق ، مثلاً ، أو أثناء حدوث معركة ، او لدى امتحان حاسم في الجامعة ، فإن أي واحد من الناس يشعر في مثل هذه المواقف بشيء كثير او قليل من القلق . وأنه لا يكون من الواقع في شيء الاّ يحس المرء بذلك . وكل كائن بشري يمرّ بخبرة من القلق الطبيعي بأساليب متباينة كثيراً ، طالما انه ينمو ويواجه مختلف ضروب الازمات في الحياة . وكلما كان الفرد أقدر على المواجهة وكلما تقدم مقتحماً هذه (الأزمات الطبيعية) ـ والتي في أساسها تمثل الفطام عن الأم ، والذهاب الى المدرسة ، ومن ثم عاجلاً أم آجلاً ، تحمل مسؤولية اتخاذ قرار يتعلق بالمهنة والزواج ـ كان أقل تعرضاً لتطور القلق العصابي لديه neurotic anxiety .

فالقلق الطبيعي ما من بدٌ تفاديه ؛ وينبغي للفرد أن يعترف صراحة بأنه موجود فيه وانه كائن لديه . وسيكرّس هذا الكتاب بصورة أساسية للقلق الطبيعي لدى الشخص الذي يعيش الآن في عصرنا الانتقالي هذا ، كما سنتعرض فيه أيضاً ـ في الكتاب ـ الى الأساليب البنّاءة التي تمكننا من مواجهة هذا القلق .

لكن كثيراً من القلق هو ، بطبيعة الحال ، قلق عصابي ، وينبغي علينا في الأقـل تعريفـه . ولنضرب مثلاً عـلى ذلك عن حـالة شـاب ولنقل انـه موسيقار ، لديه موعد مضروب مع فتاة ، لكنه ، ولأسباب يجهلها ، يتوجس ريبة من تلك الفتاة ، فيتراءى له الوقت كئيباً. وهب انه لكي يتحاشى هذه المشكلة الحقيقية يقطع على نفسه عهداً بأنه سيخرج هذه الفتاة من حياته تماماً وأن ينقطع كلياً الى موسيقاه فقط . وبعد مضي سنوات قلائل ، وقد اصبح موسيقياً ناجحاً ولكنه عازب ، غير انه يجد نفسه بشكل غريب منكمشاً ازاء النساء بوجه عام ، وأنه يحمرّ خجلاً حين يتحدث اليهن ، وانه خائف من سكرتيرته ، وانه يصاب بالذعر الى حدّ الموت حين يريد التحدث الى النساء اللائي يرئسن لجان الاعداد لمواعيد حفلاته الموسيقية . وهـو ازاء ذلك كله عاجز عن ايجاد سبب موضوعي لتخوفه هذا ، ذلـك لأنه يعـرف جيداً أن النساء لسن بصدد اطلاق الرصاص عليه ، وان هيمنتهن عليه وسيطرتهن في واقع الحال جد ضئيلة . السبب الحقيقي وراء حالته هذه هو انه يعاني من تجربة قلق عصابي ـ أي ، ان القلق لديه غير متناسب مع الخطر الحقيقي ، ذلـك لأنه قلق نـاشيء عن صراع لا شعوري في داخله . ولعـل القـارىء سيخامره شك في أن هذا الشاب الموسيقي لا بد ان لديه شيئاً من صراع خطير انساب الى ثنايا نفسه من جهة علاقته بأمه ، وانه صراع بقي مستمراً بشكل لا شعوري مما يجعله خائفاً من النساء كافة .

ان معظم القلق العصابي يتأتى من صراعات نفسية لا شعورية كهذه الموصوفة قبلاً . فالشخص يشعر أنه مهدد بخطر ، لكنه تهديد وكأنه شبح شرير ، فلا يعرف أين يختبىء العدو المتربص به ، فلا يعرف كيف يقاتله او

كيف يهرب منه . وهذه الصراعات اللاشعورية تنشأ عادة من بعض المواقف السابقة التي حصل فيها تهديد من نوع ما ، وكان الفرد عند حدوثها غضاً فلم يقو على مواجهتها ، من ذلك مثلاً موقف يجد فيه الطفل نفسه أمام أبوين متسلطين متزمتين او ربما انه كان عليه ان يواجه حقيقة ان أبويه لا يحبانه . وان المشكلة الحقيقية كانت قد تم كبتها[٢٨] repressed ومن ثم عادت في ما بعد على شكل صراع داخلي جالبة معها قلقاً عصابياً . وان الطريق التي يمكن بها مواجهة القلق العصابي والتعامل معه هي الكشف عن الخبرة الحقيقية الاصلية التي كان الفرد يخشاها ، ومن ثم يتم التصدي الى التوجس القائم ومعاملته على أساس انه قلق طبيعي او خوف طبيعي . وللتعامل مع اي قلق عصابي حاد ، فإن الخطوة الناجعة الحكيمة هي ان يتلقى المرء علاجاً نفسياً حاذقاً .

لكن اهتمامنا الأساسي في هذه الفصول ينصب على فهمنا لكيفية استخدامنا قلقنا الطبيعي استخداماً بنّاء . وان نعمل على أن نجعل نقطة واحدة مهمة أكثر وضوحاً ، تلك هي العلاقة بين قلق الشخص وبين وعيه بذاته وادراكه اياها . فبعد خبرات فظيعة يمر بها بعض الناس ، كمعركة يخوضونها مثلاً أو حادث حريق يتعرضون له ، فإنهم غالباً ما يعلقون قائلين ، (أحسست وكأني في حالة ذهول)[٢٩] . ذلك لأن القلق ، يمكننا القول ، قد مهّد بضربة عنيفة قوّض بها دعائم وعينا بذواتنا وادراكنا ايّاها . القلق ، مثله في ذلك مثل الطوربيد ، يضرب من الأسفل ومن تحت الأسطح الأشياء فيصيب أعمق مستوى ، أو انه يضرب لب ذواتنا ، واننا في هذا المستوى لنختبر انفسنا كأشخاص ، كذوات يمكننا أن نعمل في عالم حافل بالأشياء .

---

(٢٨) الكبت حيلة دفاعية لا شعورية تتم بها تنحية الدافع غير المقبول وابعاده الى اللاشعور ، وقد يكون الكبت الدافع غريزي او رغبة غير معقولة ولا مقبولة اجتماعياً او اخلاقياً ، وهناك فرق بين الكبت والقمع Suppression ، فهذا الأخير يعني السيطرة الشعورية على الدوافع والمشاعر غير المقبولة . (المترجم)

(٢٩) ما يشبه الصدمة جراء حادث عنيف . (المترجم) .

ولهذا فإن القلق بدرجة كبرى او صغرى يرمي الى تحطيم شعورنا بأنفسنا . ففي المعركة ، مثلاً ، طالما ان العدو مستمر في هجومه على الخطوط الأمامية ، فإن الجنود في الجيش المدافع ، رغم ما هم فيه من خوف ، يستمرون في القتال . ولكن اذا ما نجح العدو في نسف مركز المواصلات في الخطوط الخلفية ، فإن الجيش المدافع عندئذ يفقد اتجاهه ، فتتفرق قواته شذر مذر ، فلا يعود ذلك الجيش يعي ذاته بأنه وحدة مقاتلة واحدة ؛ فيغدو الجند جميعهم في حالة قلق ، او في حالة من الذعر والهلع . وهذا هو ما يفعله القلق بالكائن البشري : إنه يربك الانسان فيحرفه عن الاتجاه السوي[٣٠] وعن المسار السليم ، فيمسح مؤقتاً معرفة المرء الواضحة . بماهيته وبما هو عليه حقاً ، فيعشي في رؤاه عن الواقع من حوله .

فهذا الانذهال ـ هذا الارتباك المرتبط بمسألة مَنْ نحن ، وماذا ينبغي ان نفعل ـ هو أشد الاشياء ايلاماً بقدر ما يتعلق الامر بالقلق وما يترتب عليه . بيد ان الجانب الايجابي والباعث على الأمل هو أن القلق ، وان كان يدمر وعينا بذواتنا ، فإن هذا الوعي بذواتنا وادراكنا لها ، يمكنه بدوره تدمير القلق أيضاً. وأعني بذلك، كلما كان شعورنا بأنفسنا أقوى، كنا على مواجهة القلق والتغلب عليه أقدر . فالقلق، شأنه شأن الحمى، انه علامة تدل على أن هناك صراعاً مستعراً يجري داخل أعماق الفرد . ولما كانت الحمى عرضاً يشير الى ان الجسم انما يعبىء قواه الطبيعية ويوجه المعركة ضد العدوى ، ولنفرض انها ـ العدوى ـ هي الاصابة بعصيات التدرن الرئوي ، فكذلك هو القلق : انه لدليل على ان ثمة معركة نفسية او روحية محتدمة قائمة في اعماق الذات . وكنا قد لاحظنا من قبل ان القلق العصابي انما هو علامة تشير الى ان هناك صراعاً قائماً في اعماقنا لم نجد له حلاً بعد ، وطالما ان هذا الصراع قائم ، يبقى هناك احتمال مفتوح مؤداه اننا نستطيع ان نعي اسباب الصراع ، ومن ثم نجد

---

(٣٠) أي : يفقده حس المكان والزمان مما يجعله عاجزاً عن معرفة هويته الذاتية كما ينبغي . (المترجم) .

لها حلاً في اعلى مستوى من مستويات الصحة . فكأن القلق العصابي طريق تسلكه الطبيعة لترشدنا بذلك الى اننا بحاجة الى حل مشكلة معينة فينا . وان الشيء نفسه يصدق بالنسبة الى القلق الطبيعي ـ ليمثل اشارة لنا كي نستجمع احتياط قوانا وان نبدأ جولة من المعركة ضد تهديد معين يتهددنا .

وكما اشرنا في مثالنا المضروب انفاً عن الحمى اذ قلنا انها عرض يدل على المعركة الحاصلة بين القوى الجسمية والجراثيم المعدية . فكذلك هو القلق ؛ انه امارة تدل على ان هناك معركة قائمة بين قوتنا المتمثلة بالذات من جهة ، وبين خطر يهدد باكتساح وجودنا كذوات من جهة اخرى . وكلما انتصر علينا التهديد اكثر ، كان وعينا بأنفسنا اكثر استسلاماً ، واكثر قطعاً لنا عن مجريات الحياة ، واشد تطويقاً لحياتنا وتضييقاً عليها . ولكن كلما كانت قوتنا الذاتية أعظم ـ أي : كلما كانت قابليتنا للمحافظة على وعينا الذاتي وعلى العالم من حولنا اكبر ـ كان تغلب التهديد علينا أقل وأصغر . لا يزال ثمة لدى المريض بالتدرن أمل في الحياة طالما ان الحمى عنده قائمة ؛ ولكن في المراحل النهائية للمرض ، عندما يستسلم الجسم او يكاد ، فإن الحمى تزايله وسرعان ما يموت الفرد بعدها . ومثل هذا يحدث تماماً بالنسبة لنا في حالة القلق فهو الشيء الوحيد الذي يشير الى فقدان الأمل عندأنغمارنا في الصعائب الحاضرة ، كأفراد وكشعب ، وهذا يعني الاذعان الى اللامبالاة والفتور ويترتب على ذلك الاخفاق في تحسس مواطن القلق ومواجهته على نحو بنّاء .

فمهمتنا الاولى ، اذاً ، هي ان نقوي شعورنا بذواتنا وان نبحث في اعماق انفسنا عن مراكز القوة الذاتية التي تمكننا من الثبات[٣١] رغم ما هناك من انذهال وارتباك . وهذا هو الغرض الأساسي من البحث في هذا الكتاب . وسنسعى ، قبل كل شيء ، جاهدين الى ان نتبين بجلاء أوضح كيف أحاط بنا المأزق وأحدق .

---

(٣١) ترجمة للتعبير الانجليزي to stand up وهي ترجمة افضل من كلمة (الصمود) التي كان المرحوم الدكتور مصطفى جواد قد انتقدها في كتابه المعروف : قل ولا تقل ، وآثر بديلاً لها كلمة (الثبات) المذكورة في مثل الترجمة . (المترجم) .

الفصل الثاني
جذور علتنا

ان الخطوة الاولى للتغلب على المشاكل هي أن نفهم أسبابها . فما الذي يجري في عالمنا الغربي مثلاً بحيث ان الافراد والشعوب ينبغي ان يواجهوا صدمة عنيفة جراء تعرضهم الى كثير من الارتباك والانذهال ؟ دعنا بادىء ذي بدء نسأل ـ مع القاء نظرة خاطفة على خلفياتنا التاريخية ـ نسأل قائلين : ما هي التغيرات الأساسية الحاصلة التي تجعل من هذا كله عصر قلق وفراغ ؟

فقدان جوهر القيم في المجتمع

ان جوهر الحقيقة هو أننا الآن نعيش في مرحلة من مراحل منعطفات التاريخ حيث تتمثل في أحد طرائق الحياة آلام الموت المبرحة ، وما أن تنتهي هذه الغصة او تلك حتى تولد مكانها واحدة أخرى . وبعبارة أخرى ، فإن قيم المجتمع الغربي واهدافه انما هي في حالة تحول وانتقال . فما هي يا ترى ، على وجه التخصيص ، تلك القيم التي أضعناها ؟

إنَّ أحد الاعتقادين الأساسيين في الفترة الحديثة منذ عصر النهضة[1]

(١) عصر النهضة الاوروبية وفيه تجلت في اوروبا حركة انتقالية بين القرون الوسطى والعصر الحديث ، وقد نشأت النهضة في ايطاليا في القرن الرابع عشر واستمرت الى القرن السابع عشر ، تميزت بانبلاج فجر العلم الحديث وتأثرت بالمفاهيم الكلاسيكية وبازدهار الفن والأدب في ارجاء اوروبا كافة . (المترجم) .

Renaissance يتمثل في المنافسة الفردية . وكان الاعتقاد السائد يومذاك ، أنه كلما عمل المرء اكثر لزيادة منافعه الاقتصادية الخاصة به ليكون اكثر ثراء ، كان اكثر اسهاماً في التقدم المادي لوسطه الاجتماعي . ان نظرية عدم التدخل[٢] Laissez-faire theory الشهيرة هذه ، والخاصة بالسياسة الاقتصادية قد أثمرت جيداً خلال قرون عدة . وكان هذا صحيحاً خلال المراحل المبكرة والمتراكمة من عصر النهضة الصناعية والرأسمالية حيث كان في المستطاع بالنسبة لك ولي مثلاً ان نحفل في الأمر[٣] لنصبح مثريين وذلك عن طريق زيادة تجارتنا او من خلال بناء مصنع اكبر ، مما يعني في المآل انتاج بضائع مادية اكثر يفيد منها المجتمع . ان متابعة انماء مشروع انتاجي تنافسي كان يعد فكرة فائقة ومشجعة وفي الذروة من موقعها . ولكن طرأت ابان القرنين التاسع عشر والعشرين هذا تغيرات هائلة . ففي وقتنا الراهن هذا مثلاً : وقت الأعمال العملاقة والرأسمالية الاحتكارية فكم من الناس يستطيعون ان يصبحوا ناجحين كأفراد متنافسين ؟ وكيف يتسنى لهم النجاح في ميدان التنافس الفردي وكأفراد منافسين لتلك الاطواد المالية والاقتصادية ؟ ثمة جماعات قلائل ، كالأطباء والمعالجين النفسانيين وبعض المزارعين ، وامثال هؤلاء ممن لا يزالون يتمتعون برفاهة كونهم اسياد اوضاعهم الاقتصادية ـ لكنهم رغم ذلك فإنهم كأي فرد آخر يخضعون الى ارتفاع الاسعار وانخفاضها وتقلبات السوق . إن أغلب الناس ، سواء في ذلك العمال او الرأسماليون ، والمهنيون منهم او رجال الأعمال ، هؤلاء جميعاً لا معدى لهم عن الانتظام في ائتلاف جماعات اوسع كاتحادات العمال او في منظمات صناعية كبرى وفي نظم جامعة شاملة ، يجب عليهم ان يفعلوا ذلك ، وبخلاف ذلك فلن يكتب لهم البقاء اقتصادياً البتة . قيل لنا ان علينا ان نجتهد لكي نبزّ الشخص الآخر ونتقدم عليه ، بيد ان نجاح الواحد منا اليوم يعتمد في واقع الأمر على الكيفية

(٢) سياسة اقتصادية ترفض التدخل الحكومي الا بمقدار ما يكون ضرورياً لصيانة الأمن وحماية الحقوق المتعلقة بالملكية الشخصية . (المترجم) .

(٣) احتفل في الأمر : أجتهد مع عزم وتصميم . (المترجم) .

التي يتعلم بها المرء العمل متضافراً في ذلك مع زملائه الآخرين . وها اني قد قرأت للتو انه حتى الفرد المخادع لا يستطيع في الأيام هذه ان يعمل بمفرده فيفلح : بل عليه ان يشارك في المسؤولية العامة وينتظم في المجتمع .

اننا لا نعني ان هناك شيئاً ينطوي على خطأ موجود في مسعى الفرد وفي مبادراته . الحق ان المناقشة الرئيسة التي نسوقها في هذا الكتاب هي ان ما يقدمه كل فرد من طاقات فريدة ومبادرات ، يجب ان يتم استكشافها من جديد ، وان تستثمر كأساس للعمل الذي يجدر ان يسهم في خير المجتمع ، بدلاً من تذويبها سدى في قدر الخضوع الجماعي .

ولكننا نعني ان القرن العشرين هذا ، حيث جعلتنا الوسائل العلمية ووسائل التقدم الأخرى فيه ، اكثر اقتراباً وأشد اعتماداً على بعضنا ، سواء كان ذلك في أمتنا او في بقية ارجاء العالم من حولنا ، نعني ان الفردانية يجب ان تكون شيئاً مختلفاً تماماً عما ترمي اليه الفكرة القائلة بأن (كل انسان هو لنفسه فقط ، والشيطان يتكفل بغيرنا) . فلو كانت لديك او لدي منذ قرنين مضيا مزرعة ، مثلاً ، نقوم بعزقها على حافة غابة مجاورة ، أو لو كان لدينا في القرن الماضي رأسمال صغير لنبدأ به عملاً جديداً ، لأثمرت فلسفة (كل انسان من أجل نفسه فقط) ولكشفت عن خير ما فينا من قدرات ، ولترتب على ذلك خير للجماعة كبير . ولكن أنّى يكون لمثل هذه الفردانية المتنافسة ان تعمل في وقت اصبحت فيه حتى زوجات اصحاب الشركات والعاملين فيها يتم اختبارهن وتصنيفهن لكي يوائمن (النسق) المطلوب ؟

وقصارى القول ، ان كفاح الفرد لنيل مبتغاه ، من غير تأكيد متوازن من لدنه على خير الصالح الاجتماعي ، لن يجلب اي خير للجماعة في المجتمع . أضف الى هذا ، فإن هذا النمط من المنافسة الفردية - والتي نرى فيها انك تخفق أنت لكي افوز أنا وأنجح ، طالما ان ذلك يرفعني على عجل الى اعلى درجات السلم - يثير كثيراً من المشاكل النفسية . فهي - المنافسة المذكورة - تجعل من كل انسان عدواً محتملاً لجاره ، وانها تولد كثيراً من

البغضاء وعنها ينجم الاستياء بين الاشخاص ، ونزيد ، الى حد جدّ كبير ، من قلقنا وعزلتنا وابتعادنا عن بعضنا . وباقتراب هذه البغضاء من السطح وملامستها ايّاه ابان العقود الحديثة ، فقد دأبنا على محاولة التغطية عليها بأساليب متباينة ـ وذلك عن طريق ارتباطاتنا بجميع ضروب المنظمات الخدمية ، ابتداء من الانضمام الى نوادي (الروتاري)(٤) Rotary ، وانتهاء بنوادي المتفائلين Optimists (٥) في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ، وعن طريق اظهار حسن التصرف لنكون في نظر الآخرين طيبين خيرين ، ومن الجميع محبوبين ، وهلم جرا . بيد أن الصراعات سرعان ما تنفجر عاجلاً أم اجلاً فتظهر آثارها في العلن .

هذه الكيفية كان قد تم توضيحها بجلاء وبشكل فاجع في حالة ولي لومان Willie Loman ، الشخصية الاساسية في قصة آرثر ملر(٦) Arther Miller : موت بيّاع Death of Salesman ، كان ولي هذا قد تعلم ، وهو بدوره علمها ابناءه : لكي تكون ثرياً عليك ان تبزّ غيرك وان تخلفه وراءك ، تلك هي الأهداف ، وأن هذا يتطلب منك مبادرات . فحينما كان اولاده يسرقون الكرات balls مثلاً او يقطعون الخشب المنشور ، فإن ولي ، وان كان يماري في الأمر مراءً ظاهراً ويتظاهر بعدم الرضا ويرائي بأنه يوبخهم ، غير انه في قرارة نفسه كان مسروراً بما فعلوه ، فهم بالنسبة الى مفاهيمه الخاصة به (اشخاص شجعان) ، بل ويضيف معلقاً (لعل الذي دربهم يهنئهم على مبادرتهم تلك) . فيذكره صديقه بأن السجون ملأى (بالاشخاص الجسورين) ، لكن ولي يردف قوله السالف بقول آخر : (وتلك هي سوق المضاربات في البورصة كذلك) .

---

(٤) انشيء في امريكا في عام ١٩٠٥ . (المترجم) .

(٥) نوادي انشئت في امريكا في مستهل القرن العشرين لمواجهة ضغوط ومتطلبات الحياة الصناعية . (المترجم) .

(٦) قصة نشرت في نيويورك عام (١٩٤٩) .

يحاول ولي ، في دوره هذا ، ان يغطي على نزعته التنافسية ، شأنه في ذلك شأن كثير من الرجال منذ عقدين أو ثلاثة خلت ، وذلك عن طريق اظهار كونه (محبوباً) ، ولكنه ما ان يبلغ من العمر عتياً حتى يلقى به في حاوية الرماد ، وذلك بحكم القيم المتغيرة التي تنتهجها شركته ، لكنه قد يبقى يردد مع نفسه (لكنني كنت محبوباً كثيراً) . وهذا التعليل الذاتي انما ينشأ في خضم الصراع بين القيم وهو الصراع الناجم عن اختلاط الأمر وتداخل المفاهيم . وعندئذ فإنه يدرك ان ما كان قد تعلمه ـ وعلمه ابناءه ـ لا يفعل فعله ولا يؤدي مفعوله . وفي ظل ادراكاته هذه ـ ضمن سياق القصة ـ تتراكم على ذهنه غيوم الهموم حتى ينتهي به الأمر الى الانتحار . وعلى رمسه هناك يقف احد اولاده مردداً بإصرار [كان يراوده حلم جميل ، الا وهو ان يكون دوماً في الطليعة] . لكن الابن الآخر يرى ، وعلى نحو أدق ، ما يؤدي اليه مثل هذا التناقض في مواقف الأب ، وما ينجم عنه من اضطراب في القيم فيفضي الى (انه لم يكن يعرف من هو)[٧] .

والاعتقاد الأساسي الثاني في عصرنا الحديث هذا ، هو الايمان بالعقل الفردي individual reason . هذا الاعتقاد والذي كان قد دخل في الحلبة ابان عصر النهضة الاوروبية ، شأنه شأن الاعتقاد بالتنافسية الفردية التي ناقشناها قبل قليل ، كان قد اتى كله على نحو مثمر في ميدان البحوث الفلسفية أيام عصر الاستنارة endightenment في القرن السابع عشر ، وقد أدى الغرض منه بوصفه دستوراً محترماً نبيلاً أفضى الى التقدم في العلوم وأدى الى تطور الحركات باتجاه تربية كلية شاملة . وفي القرون الاولى من الفترة المذكورة هذه ، نجد ان العقل الفردي كان يعني كذلك (العقل الكلي العام الشمولي) Universal reason ؛ فكان ثمة تحدٍ يذكر كل فرد ذكي كي

---

(٧) من الأساسيات المقررة في علم النفس ان المغالاة في تقدير المرء لذاته غرور مهلك والمبالغة في تحقير ملكتها الحقيقية يميتها وقبل هذا جاء التوازن في الحديث الشريف [رحم الله امرء عرف قدر نفسه] . (المترجم) .

يكتشف الأصول العامة الشاملة التي يمكن ان تنتظم حياة الناس جميعاً ليعيشوا في اجوائها بسعادة ووئام .

ولكن التغير ، تارة أخرى ، أصبح واضحاً في القرن التاسع عشر . فالعقل ، من الناحية النفسية ، أضحى منفصلاً عن (الانفعال والعاطفة والارادة) . ان تقسيم الشخصية هذا كان قد مهد له ديكارت Descartes في تقسيمه المشهور حين فصل بين العقل والجسم ـ وهو التقسيم الذي سيستطرد في ثنايا هذا الكتاب ـ لكن النتائج الكاملة لهذا التقسيم لم تتضح معالمها الاّ في نهاية القرن المنصرم . فبالنسبة لانسان اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين هذا ، كان المظنون ان العقل يمكن ان يقدم جواباً لأية مشكلة تعترض الفرد ، وكان يظن بأن قوة الارادة تمنح العقل قوة التأثير ، وكان يعتقد بأن الانفعالات ما ان تعترض السبيل بوجه عام ، حتى يمكن كبتها . انظر وتأمل . ها هو العقل (وقد تحول الآن الى عقلانية فكرية) مستخدماً قواه في خدمة تقسيم الشخصية ، وما ينجم عن ذلك من كبت وصراع ينشب بين الغريزة والذات والذات العليا ، وكلها وصفها فرويد على نحو واضح . وعندما استخدم سبينوزا(*) Spinoza لفظة (العقل) في القرن السابع عشر ، كان يعني بذلك اتجاهاً نحو الحياة التي يوحّد فيها العقل بين الانفعالات والأهداف الأخلاقية ethical goals من جهة وبين الجوانب الأخرى للانسان ككل من جهة أخرى . وعندما يستخدم الناس اليوم المصطلح نفسه فإنهم دائماً تقريباً يعنون به انشطار الشخصية . فهم يسألون بصيغة او بأخرى مثلاً : (هل يتعين عليّ ان اتبع العقل او عليّ ان أخلي السبيل للأهواء والعواطف والحاجات الحسية الأخرى ، أم يقتضيني الواجب ان اكون أميناً لواجبي الأخلاقي ؟) .

ان ما كنا بصدد بحثه من اعتقادات تؤمن بالمنافسة وبالعقل الفردي ،

(*) فيلسوف هولندي عاش في القرن السابع عشر ، من اكبر القائلين بوحدة الوجود . (المترجم) .

انما هي في حقيقة الأمر موضوعات كانت قد وجهت العقل والتطور الغربي الحديث ؛ ان الاعتقادات تلك لم تكن بالضرورة هي المثل العليا او القيم المثلى ideal values . يقيناً ، ان القيم التي تقبلها جمهور الناس على انها مثلى ، كانت تلك القيم المرتبطة بالقيم السماوية والقيم المتعلقة بالأخلاقيات الانسانية ، المؤلفة من وصايا وحكم ومقولات مثل : أحبّ جارك ، اخدم مجتمعك ، وهلم جرا . فالقيم المثلى هذه كانت بوجه عام قد تم تعليمها في المدارس وفي المعابد جنباً الى جنب مع التأكيد على المنافسة والعقل الفردي . وبوسعنا ان نتبين الأثر المندثر للقيم القائلة بالمحبة وباسداء الخدمة المطلوبة الصادرة والمغلفة بأساليب ملتوية والتي كانت تنبعث من زوايا ـ اندية الخدمات ـ وما هناك من تأكيد كثير على ان يكون الفرد (محبوباً) . ان مجموعتي القيم هذه ، منها ما يرقى الى قرون كثيرة خلت وترتبط بالتقاليد الأخلاقية والسماوية المتعلقة بفلسطين القديمة وبلاد الاغريق ، ومنها ما يرجع في اصوله الى عصر النهضة ـ وهذه القيم كافة قد تزاوجت فيما بينها . فالبروتستانتية ، مثلاً ، والتي كانت منذ بداية عصر النهضة ، تمثل الجانب الديني للثورة الثقافية قد عبرت عن النزعة الفردانية بواسطة تأكيدها على ان من حق كل شخص ان يعتنق ، وحسب قدرته ، الحقيقة الدينية التي يريد .

ومسألة الزواج هي الأخرى ثمة الشيء الكثير الذي يمكن قوله بشأنها . فالخلافات الزوجية مثلاً كانت عبر القرون تسوّى بالحسنى . وان المثل الأعلى القائل بالأخوة والاخاء والمؤاخاة بين الانسان واخيه الانسان قد اردفه الى حد بعيد نوع من المنافسة الاقتصادية . ومن ذلك مثلاً المكاسب العلمية الهائلة ، والمصانع الضخمة ودوران عجلات الانتاج الصناعي السريع ، كل تلك زادت من الرخاء المادي للانسان وادت الى تحسن صحته على نحو كبير ، وللمرة الأولى في تاريخ مصانعنا أصبح ممكناً ان يمحى من على وجه الارض الجوع والحاجة المادية . ولعله في وسع المرء أن يجادل بالقول بأن العلم والمنافسة الصناعية قد قرّبا الجنس البشري على نحو اكثر من مثله العليا الخاصة بالتآخي الكلي الشامل .

ولكن اتضح في العقود القليلة الماضية أن الزواج هذا قد اصبح محفوفاً بالصراع ، وانه سائر صوب تباطوء مفجع ، او ينتهي دوماً بالطلاق . ذلك لأن التأكيد الكبير الآن ينصب على ان هـذا الشخص او ذاك يسابق غـيره ليبزه ، ويبدأ ذلك بالتعليم الذي يجرى في المدارس وينتهي بالتنافس العام على طريق تحقيق النجاح اقتصادياً بصرف النظر عن الوسيلة . وكل هذا من شأنه ان يكون عائقاً امام احتمالات محبة المرء جاره . بل ، وكما سنرى في ما بعد ، فإن هذا التدافع بالمناكب ، لما يحجب المحبة حتى بين الأخ واخته وبين الزوج وزوجته في اطار الأسرة الواحدة نفسها . وطالما أن عالمنا الحاضر قد صار عن طريق التقدم العلمي والصناعي (عالماً واحداً) تماماً ، فإن تأكيدنا الموروث على التنافسية الفردية قد اصبح تأكيداً مهجوراً لا معنى له . اذ لو اخذنا بالنزعة الفردية مثلاً لكان لزاماً على كل انسان ان يقوم بتوزيع رسائله بنفسه مستخدماً جواده السريع لهذاالغرض . ان ما ينطوي عليه الانفجار النهائي من متناقضات في مجتمعنا ، كان يتمثل في نفعية فاشية دكتاتورية ، قد انتهكت فيها القيم ، لاسيما القيم الشخصية منها ، فغاصت تلك القيم في خضم تصاعد مفاجىء من بربرية هائلة .

قد يظن بعض القراء ان كثيراً من الاسئلة المذكورة والمسائل المطروقة انفاً ، انما هي اسئلة ومسائل صيغت بشكل مغلوط ـ ورب سائل يسأل ـ لِمَ يكون مايقوم به فرد ما من كفاح اقتصادي موجهاً ضد رفقائه ، ولماذا يكون العقل نقيض الانفعال ؟ ان هذا تساؤل مشروع حقاً ؛ ولكن خصائص اية فترة من فترات التغيير كالفترة الراهنة مثلاً ، هي فترة تدعو لأن يسأل كـل امرىء فيها اسئلة مخطوءة . ذلك لأن الأهداف القديمة ، والمعايير الماضية ، والمبادىء السابقة ، هذه كلها ما برحت في اذهاننا مستقرة ، وهي ما فتئت في عاداتنا متضمنة. بيد ان هاتيك الأهداف والمعايير والمبادىء ، لا تلائم روح المرحلة ، ومن هنا نرى معظم الناس ابداً محبطين جراء اثارة اسئلة لا تفضي الى الجـواب الصحيح . او اننـا نراهم يصبحـون تائهـين وسط خليط من الاجابات المتناقضة ـ فنجد (العقل) يعمل حينما يدخل الفرد صفه ، ونجد

(الانفعال) يؤدي دوره عندما يزور المرء محباً له ، ونرى (الارادة) تفعل فعلها حين يدرس الواحد منا لأداء امتحان ينتظره . فهذه التجزئة للقيم والأهداف سرعان ما تؤول الى تقويض وحدة الشخصية وضعضعة كيان الشخص وتفتيته الى شظايا من داخله ومن خارجه ، وبالتالي فلا يعود يدري اي سبيل يسلك .

كان هناك عدة رجال عظام ممن عاشوا في أخريات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين هذا ، قد شهدوا ما حدث من انفصام في الشخصية انذاك . فكان هنريك ابسن(*) Henrik Ibsen أدرك ذلك فبرّزه في الأدب ، وكذلك ادرك كنه هذه الحقيقة كل من بول سيزان(**) Paul Cézanne في الفن وسيجموند فرويد S. Freud في طبيعة الانسان ، فكل من هؤلاء الرجال قد اعلن انه يتعين علينا ان نلتمس وحدة متماسكة جديدة لحياتنا ، فأبسن مثلاً قد أوضح في مسرحيته (بيت الدمية) A Doll's House ، ان الرجل اذا ما مارس عمله المعتاد وسلخ نفسه من اسرته ، وعامل زوجته وكأنها دمية ، فسرعان ما سينهار البيت . اما سيزاني فقد هاجم من جهته الفن المصطنع والفن العاطفي الذي كان سائداً في القرن التاسع عشر ، وأوضح ان الفن يجب ان يعالج الحقائق الشريفة في الحياة ، اذ ان لذلك الجمال علاقة بالكمال الجسمي هي اوثق من علاقته ببراعة اظهار الوسامة وابراز ملامح محددة من الجمال . وكان فرويد قد بين من ناحيته ان الناس اذا ما كبتوا انفعالاتهم وانهم اذا ما حاولوا ان يعملوا وكأن الجنس والغضب غير موجودين ، فإنهم ينتهون الى المرض بالعصاب . وانه قد أوجد تقنية جديدة من أجل الكشف عن أعمق مستويات اللاشعور ، وعن الجانب (اللاعقلاني) irrational من الشخصية ، وهي مستويات وجوانب كانت قد تم كبحها من قبل ، وبهذا يكون قد شد من أزر الشخص ليصبح وحدة فكرية ـ وجدانية ـ ارادية .

(*) شاعر وكاتب مسرحي نرويجي توفي في اوائل هذا القرن . (المترجم) .

(**) رسام فرنسي تأثر بالحركة الانطباعية في الرسم ، توفي في مستهل هذا القرن . (المترجم) .

كان عمل كل من أبسن وسيزان وفرويد ، من الأهمية بمكان ، ذلك ان كثيرين منا كانوا يعتقدون من قبل بأنهم كانوا انبياء عصرنا هذا . والحق ، ان اسهام كل منهم يحتمل ان يكون بالغ الأهمية في مجال كل منهم الخاص به . ولكن الا يعني ذلك في احد جوانبه انهم ليسوا آخر رعيل من الرجال العظام في الفترة المتقدمة بدلاً من كونهم الأوائل في الفترة الجديدة للمسألة ذلك انهم ملتزمون بالقيم والأهداف التي تخللت القرون الثلاثة الماضية ؛ ولما لتقنياتهم الجديدة من أهمية وماحققته من استمرارية ، فإنهم يكونون بذلك قد أرسوا اراءهم على الأهداف التي كانت سارية في زمانهم الذي وجدوا فيه .

يبدو ، للأسف ، ان المتنبئين الحقيقيين ، ونحن في اواسط القرن العشرين هذا ، كانوا كل من سورين كيركجارد(*) Soren Kierkegaard ، وفردريك نيتشه(**) Friedrich Nietzche ، وفرانز كافكا Franz Kafka . واني اقول ، (للأسف) ، لأن ذلك يعني ان مهمتنا هي غاية في الصعوبة . فكل واحد من هؤلاء الرجال كان قد تنبأ بتدمير القيم التي يمكن ان تتجسم في وقتنا هذا ، فتتمثل في ظواهر العزلة والغربة والخواء والفراغ والقلق ، وكل من هؤلاء الرجال يرى اننا لا نستطيع ان نمتطي صهوة اهداف الماضي . وسنقتبس في ثنايا هذا الكتاب من اراء كل من هؤلاء الثلاثة باستمرار ، لا لأنهم اكثر الرجال في التاريخ حكمة ، بل اننا نتمثل بآرائهم لأن كلاً منهم كان قد تنبأ بتبصر واضح وبقوة كبرى ، بحجم المعضلة وبطبيعتها الخاصة ، المعضلة التي يواجهها الآن كل شخص ذكي .

فهذا فريدريك نيتشه ، مثلاً ، يعلن عن أن العلم في اواخر القرن التاسع عشر ، كان قد تحول الى مجرد مصنع ، واعرب عن خشيته من ان تقدم الانسان الهائل في التقنيات ، ما لم يصاحبه تقدم موازٍ له في الأخلاقيات

(*) فيلسوف ولاهوتي دانمركي ويعتبر مؤسس الفلسفة الوجودية ، عاش في القرن التاسع عشر . (المترجم) .

(**) فيلسوف الماني توفي في بداية القرن العشرين هذا ، تنبأ بالانسان الخارق . (المترجم) .

وفي فهم الذات ، قد يفضي الى العدمية nihilism . وتعبيراً عن تحذيراته النبوئية عما قد يحدث في القرن العشرين ، كان نيتشه قد كتب حكاية رمزية ذات مغزى اسماها (موت اله) The Death of god ، أصبحت فيما بعد وفي أيامه بالذات حكاية مكرورة يتناقلها الناس باستمرار ، تحكي قصة رجل مجنون يجري في ساحة القرية وفي طرقاتها وهو يصرخ بأعلى صوته (أين الآله ؟) ، ينادي بهذا والناس من حوله يتضاحكون وهم يرددون لعل (الهه) ذهب في رحلة أو أنه هاجر وتركه . فما كان من ذلك المجنون الاّ ان صاح : (الى أين ارتحل الاله ؟) ثم يجيب سامعيه : (سأنبئكم بمن قتله ! اننا قتلناه ، انا وأنتم ، قتلناه ! فكيف اقترفنا ذلك . . . من ذا الذي اعطانا الاسفنج لنمحو به كل ملامح الأفق ؟ فما الذي ، يا ترى ، حققناه منذ أن حررنا الأرض من أسار شمسها ؟ . . الى أين نحن الآن سائرون ؟ أنحن عن جميع الشموس ناؤون مبتعدون ؟ ألسنا نتهاوى تباعاً بلا انقطاع ؟ نتهاوى متأرجحين الى الوراء ، والى الجانبين ، والى الأمام ، وفي كل منحى واتجاه ؟ ألا يوجد هناك ما يسرّ وما يضر ؟ ألسنا ضالين في متاهة من العدمية اللامتناهية ؟ ألسنا نتحسس نسمات آتية من فضاء خواء ؟ أليس هذا الفضاء أقسى برودة ؟ أليس هو بليل بهيم وان مزيداً من الليل آتٍ ؟ وانه على الجميع مخيم جاثم بلا استثناء ؟ هل الآله ميت ؟ أميت يبقى الاله ! . . . ونحن الذين قتلناه ! . .) وهنايصمت الرجل المجنون برهة ثم يواصل نجواه بعد ان يرمق سامعيه بنظرة ، وهم بدورهم ايضاً اطبقوا الشفاه وبنظرات منهم رمقوه ، قال : (لقد أتيت اليكم مبكراً قبل الأوان . . . وما فتيء هذا الحديث المروّع على الدرب يسير . .)[٨] .

ان نيتشه في حكايته هذه[٩] وفي النجوى التي ضمتها حكايته المذكورة انما يحذر من مجافاة الموروث الاجتماعي الاصيل وانه ليومىء الى ما يحدث حينما

(٨) الكلام المذكور اقتبسه من نيتشه الكاتب كوفمان عام ١٩٥٠/ ص ٧١ .

(٩) المصدر السابق نفسه / ص ٨٩ .

يفقد مجتمع ما لباب قيمه . وها هي نبوءته قد أضحت حقيقة واقعة تعكسها ما وقعت في القرن العشرين هذا من مجازر ومذابح وطغيان . فالحدث الهائل المفزع ، كما تنبأ نيتشه ، كان في طريقه الى البشرية ، وان الليل المخيف المرعب المقترن بالبربرية قد اناخ علينا بكلكله عندما شرعنا نستخف بقيمنا الانسانية .

ان سبيل الخلاص ، كما يقول نيتشه ، هو العثور على جوهر القيم من جديد ـ ويطلق على ذلك (اعادة التقييم) re-evaluation أو (نقل القيم) transvaluation : أي تمحيص القيم والتمعن بجوهرها على أسس مختلفة لتكون اكثر نجاعة . فهو يكشف عن موقعه هذا بقوله : (ان اعادة التقييم انما يمثل معادلتي من اجل العمل لامتحان الذات وتمحيصها بلوغاً للغاية من جانب بني البشر) .

والخلاصة هي أن القيم والأهداف التي وفرت للقرون الماضية جوهراً موحداً ، والتي نراها منعكسة في الفترة الحديثة ، لم تعد اهدافاً لها تلك القوة التي تحمل على الاقناع .

فقدان الاحساس بالذات

ثمة أرومة أخرى لدائنا وأساس آخر لعلتنا يتمثلان في فقدان الاحساس بالاعتبار وغياب الشعور بالوقار والكرامة dignity ، وهذه خصائص بل هي سمات بالكائن البشري أحرى . وان نيتشه كان قد تنبأ بذلك حينما بيّن ان الفرد قد ابتلعه القطيع[١٠] herd ، واننا انما نحيا في ضرب من ضروب (اخلاقية الرقيق) slave-morality . وثمة مفكرون آخرون غير نيتشه قد أوضحوا ان الانسان المعاصر بدأ (يجرد من انسانيته) ،

(١٠) المقصود ان الفرد قد فقد معالم شخصيته وملامح هويته في لجة التأكيد على الجماعة دون الفرد ، مما ينطوي على تجاهل لكرامة الانسان ممثلاً بالفرد . (المترجم) .

من اولئك مثلاً كافكا الذي ضمن قصصه الممتعة ظواهر ما يفقده الناس من كيانهم كأشخاص .

بيد ان فقدان الاحساس بالذات لم يطرأ بين عشية وضحاها . فبوسع اولئك الذين عاشوا في العشرينات من هذا القرن ان يستذكروا شواهد تدل على الميل المتنامي لديهم في التفكير عن الذات الى حد السطحية والتبسيط[١١] المخل . ففي تلك الأيام كان يظن بأن (التعبير عن الذات) يعني ببساطة ان يفعل المرء ما يشاء بمجرد أن تقفز الى ذهنه أية فكرة ، فكأن (الذات) مرادفة بهذا المعنى لأي دافع عشوائي وكأن قرارات المرء تتخذ على اساس من نزوة تتأتى نتيجة لما يعانيه الفرد من اضطراب في معدته او الامساك الناجم عن التعجل في تناول طعامه ، وهو ما يحصل تماماً في الغالب في فلسفة حياة المرء اليومية في أيامنا هذه . ثم تحول تعبير (تحقيق ذاتك) ، الى التماس العذر للاسترسال في الاسترخاء الى حد القاسم المشترك الأدنى في النزهة . والحق ان (معرفة المرء بنفسه) لم تكن في يوم من الأيام بالغة الصعوبة بوجه خاص، وان مشاكله الشخصية يمكن حلها بسهولة نسبياً وذلك عن طريق فهم (التوافق)[١٢] adjustmen على نحو افضل . وان وجهات النظر هذه كانت قد تقدمت اكثر بوساطة تبسيط علم النفس على النحو الذي جاءت به سلوكانية behaviourism جون ب . واطسن Jhon B. Watson . فشرعنا عند ذاك نهنيء انفسنا بتخليص الطفل من خوفه تخليصاً اشتراطياً ، وتخليصه كذلك من الخرافات ومن خرافات ومشكلات أخرى وذلك باستعمال تقنيات لا تختلف اختلافاً اساسياً عن الطريقة التي تتكون بها الاقترانات الشرطية عند الكلب في تجارب يافلوف ،

---

(١١) يقصد التبسيط الذي يفضي الى تشويه الفهم واساءته . (المترجم) .

(١٢) التوافق وظيفياً يقصد به توافق السلوك مع البيئة توافقاً ينم عن نضج ، اما التكيف adaptation فيعني تلاؤم الحاجات الغريزية مع ظروف ومتطلبات العالم الخارجي والأنا الأعلى . (المترجم) .

اذ يسيل لعابه لمجرد سماعه طرقات الجرس عندما يحين موعد تقديم الطعام اليه . هذه الآراء كانت قد تنامت بفعل الاعتقاد بأن التقدم الاقتصادي انما يستطرد استطراداً آلياً ـ وهو اعتقاد انتهى الى التفكير بأننا جميعاً نثري أكثر فأكثر من غير كفاح مرير او عناء كثير . ولقد وجدت هذه الآراء وازعها النهائي في الأخلاقيات الروحية التي ازدهرت في العشرينات من القرن الحالي هذا ، بيد انها لم تتعد في تأثيرها مرحلة ما يلقن في المدرسة ، وكانت نكهتها تنطوي على الايحائية الذاتية[13] Coveism وعلى الافراط في التفاؤل اكثر من اشتمالها على الاستبصارات المتعمقة الباحثة في سلوكيات القادة التاريخيين والاخلاقيين والروحانيين . كل من حمل القلم في تلك الايام ، كان ، من الناحية العملية ، قد شارك في وجهة النظر التبسيطية هذه بشأن نظرتها الى الكائن الانساني : فبرتراند رسل Bertrand Russell ، مثلاً ، (واحسبه يتخذ موقفاً مغايراً في ايامنا هذه) كان قد كتب في العشرينات يقول : ان العلم يتقدم سريعاً ويضطرد بحيث سيكون بوسعنا ان نمنح الناس ما يشاؤون من الأمزجة كل حسب رغبته ، اندفاعياً شاء ان يكون الفرد أم هياباً رعديداً ، جامح الشهوة رغب في أن يكون أم ضعيفها ، وكل هذا يتم بمجرد حقن زرقات كيمائية في الجسم . ولعل هذا الضرب من التفكير هو الذي حدا بألدوس هكسلي Aldouss Huxley الى ان يضمن كتابه : عالم جديد شجاع Brave New World لاذعته التهكمية بشأن روح العصر .

ان زمن العشرينات هذا وان كانت تبدو فيه ثقة الناس بقدرة الشخص وطاقاته ثقة جلّى ، لكن واقع الحال كان في الحقيقة عكس ذلك . كانت ثقة الناس اذ ذاك بالتقنيات وبالآلات والادوات ، وليست ثقة بالكائن البشري . ذلك ان النظرة الميكانيكية التبسيطية عن الذات كانت في الواقع تدل على ما

(13) كلمة Coveism دخلت الانجليزية عام ١٩٢٢ وهي مأخوذة من اسم نفساني فرنسي اسمه ايميل كووي ، وكان قد اقترح تعبير الايحاء الذاتي الرتيب المنطوي على الضحالات العاطفية لا غير . (المترجم) .

ينطوي عليه اعتقاد الناس من نقص في ما هناك من تناقض يتعلق بكرامة الشخص وبمكانته وتكوينه وحريته .

وفي غضون العقدين الأولين من هذا القرن كانت قد تفاقمت فكرة عدم التقييم المرتجى لقوى الشخص وقابلياته ولكرامته بحيث اصبح الموقف مقبولاً لدى الناس على نطاق أوسع . ومما رافق ذلك من حركات دكتاتورية وهزات اقتصادية ، كالكساد والركود الاقتصادي ، طفقنا نشعر بأننا كأشخاص رحنا نتضاءل شيئاً فشيئاً . فالذات الفردانية كانت قد تم تقزيمها وعزلها في موقف عقيم ، فأصبحت تماماً كما هي الحال بالنسبة الى ذرة الرمل حين تتقاذفها أمواج المحيط ، فأصبح ذلك مضرب مثل ، وقد عبر أودين عن ذلك بقوله :

اننا نتحرك
نتحرك كدولاب العجلة ، وكل دوران منه
يعلّم كل شيء هناك ، بارتفاع وانخفاض
وحتى في البيع والشراء[١٤] .

لذلك فمعظم الناس في الوقت الحاضر قادرون على أن يجدوا (أسباباً) خارجية كافية تعزز من اعتقادهم بأنهم كذوات لا قيمة لهم ولا قوة . فهم يتساءلون : أنّى يكون بمقدور المرء أن يعمل امام تيار حركات العصر الاقتصادية منها والسياسية والاجتماعية العملاقة ؟ لعل هذا الضرب من التساؤل النابع من هواجس نفسية ، هو الذي جعل كثيراً من الناس يحسون احساساً خاصاً بأنهم قلقون . وربما يكون هذا القلق قلّص من مقدار الثقة بأنفسهم مما حملهم على التفكير بأنهم لا حول لهم ولا قوة . وان مثل هذا التفكير حين يستحوذ على عقول الناس وحينما يستطرد بهذا الاتجاه ، يحيل الأفراد نهباً للاتكالية التي تنشأ في الغالب عن الخور والاحساس بالضعف .

(١٤) W. H. Auden, The Age of Anxiety, p. 45, New York, Random House.
وأودين هو شاعر وناقد اميركي ، انكليزي المولد ، توفي في السبعينات من القرن الحالي . (المترجم) .

لهذا فإننا ، اذاً ، بحاجة الى ان نكافح على جبهتين : ان نقف ضد الدكتاتورية وضد كل التوجهات التي تفضي الى تجريد الشخص من انسانيته من جهة ، وان نسترد من جهة أخرى خبرتنا وايماننا بقيمة الفرد وبكرامته كإنسان .

ان الصورة الصادعة(١٥) لفقدان الاحساس بالذات في مجتمعنا تضمنتها قصة قصيرة بعنوان : الغريب The stranger ، للكاتب الفرنسي المعاصر البرت كامو Albert Camus . انها قصة رجل فرنسي لا شيء استثنائي يميزه . ويمكن وصفه بأنه رجل معاصر عادي كان قد شهد تجربة موت والدته ؛ فهو يواصل عمله ويمارس سائر نشاطاته الاعتيادية في الحياة . وكان يقوم بكل اعماله من غير قرار واضح او وعي تام من جانبه . ثم انه فيما بعد يطلق النار على رجل فيرديه قتيلاً ، وكان الأمر في ذهنه غامضاً ، فهو لا يعرف ما اذا كان قد اطلق النار مصادفة او انه فعل ذلك وهو بكامل وعيه دفاعاً عن النفس . وقد واجه نتيجة لذلك محاكمة انتهت بإصدار حكم الاعدام عليه فأعدم ، كل ذلك قد تم مع غياب احساس رهيب من اللاواقع ، وكأنّ كل شيء قد حدث له بمعزل عن وعيه وارادته . فهو كشخص لا دور له فيما وقع . والكتاب المذكور يتخلله الغموض والغباشة مما يحمل على الاحباط والصدمة . وكل ذلك يتوالى وفيه تتعاقب الاحداث وكأنّ كل شيء في حالة حلم ؛ فالرجل لا يبدو في الواقع منتمياً الى هذا العالم ولا الى واقعه ، فهو يبدو متلدداً(١٦) كما هي الحال عادة مع الشخصيات التي يرد ذكرها في قصص كافكا . فالرجل في القصة المذكورة يتصرف وكأنه بمعزل عن نفسه وعن واقعه . وفي النهاية ، وقبيل لحظات التنفيذ فيه ، يؤوب اليه شيء من رشد ، فيلمح بعد فوات الأوان ، بصيصاً من الادراك لما وقع منه ، ادراك يمكن التعبير عنه بكلمات جورج هيربرت George Herbert :

(١٥) الأمر الصادع : الأمر المجفل ، المروع ، الداعي الى الذهول وهي ترجمة لكلمة Startling (المترجم) .

(١٦) التلدد : التردد المشوب بالحيرة (المترجم) .

اشبه بسفين راكد في كل اتجاه يتأرجح
يرتمي على كل شيء فيتطوح
يا الهي ، وتلك هي حال ذاتي وعنها أفصح

تلك الصورة تامة تقريباً او تكاد ؛ اذ لم يبق من شعاع نفسه ما يكفي لتجاوز ذلك حتى. والقصة كلها مشحونة بصور دقيقة مروّعة عن الانسان الحديث (الغريب) على نفسه وعن نفسه حقاً .

وأقل الايضاحات دراماتيكية ودلالة على فقدان الاحساس بقوة الذات نجدها محدقة بنا في المجتمع المعاصر، واننا، حقاً ، نتخذها بعامة على انها من المسلمات . فثمة مثلا التعليق الغريب الذي نسمعه بانتظام في ايامنا هذه في نهاية البرامج الاذاعية : (نشكركم على اصغائكم) نجده تعليقاً مثيراً للدهشة عندما نتملاه . فلماذا يشكر الشخص المقدم للبرنامج الشخص المتلقي ، اذا كان ـ مقدم البرنامج ـ يعتقد انه انما يقدم شيئاً يبدو ذا قيمة ؟ انك إذ تعرب عن امتنانك لاطراء يوجه اليك او تشكر الذين يصفقون اليك استحساناً منهم لما بدر منك ، فذلك شيء مقبول ، اما انك تشكر متلقياً لتلطفه بالاصغاء اليك والاستمتاع بما قدمت اليه فذلك شيء مختلف تماماً . إن ذلك يعني ان العمل قد اثمر في قيمته او انه عمل يفتقر الى القيمة ، حسب هوى المستمع، او المتلقي . ففي حالة ايضاحنا هذا فإن المستمعين هم الأسياد ، انهم الرأي العام . تصور مثلاً لو ان كرايسلر Kreisler شكر جمهور الحاضرين على اصغائهم اليه بعد تقديمه معزوفة موسيقية ! وجه المشابهة كما هي مقترحة من المذيع اقرب الى ما قد يقوم به المهرج حين لا يقدم على التمثيل واداء الادوار لمجرد التقديم بل هو يرجو مشاهديه ، في الوقت نفسه ، ان يتلطفوا عليه بالاستمتاع !

ليكن واضحاً اننا هنا في هذا الموقف لا ننتقد مذيعي الراديو من اجل النقد لذاته . وانما تعليقنا هنا هو لمجرد توضيح اتجاه يسري في مجتمعنا : ذلك أن كثيراً من الناس يحكمون على قيمة اعمالهم على اساس العمل نفسه ، بل

على اساس كيف يتم تقبل العمل من جانب الآخرين وكيف يتلقونه . يبدو الأمر وكأن على المرء دائماً ان يرجىء حكمه حتى يتملى وجوه الحاضرين من الجمهور . فالشخص السلبي هو الذي يريد العمل ان ينجز له وان ينجز من اجله . وهذا من شأنه الا يفضي الى ما هو بناء . ولهذا نجدنا اننا نجنح الى ان نكون ممثلين في الحياة بدلاً من ان نحيا فيها ونعمل كذوات . فبالعمل تتحقق الذات وتكشف عن صدق نواياها الايجابية ازاء الآخرين .

ومثال توضيحي يمكن استقاؤه من مجال علاقة الرجل بالمرأة في المجتمع بعامة وفي الأسرة بخاصة . المعروف ان الرجل يسعى الى استرضاء المرأة والعمل من اجل اسعادها . وهي بالمقابل تسعى الى الهدف ذاته . ولكن السؤال : هل ثمة ضمان بتوطيد هذه العلاقة بينهما ؟ فثمة من المتغيرات ومن الأمزجة ما يحيل الروابط الاسرية والعلاقات الزوجية الى ان تكون على غير الواقع المؤمل لها . قد يتأتى الخطأ من الرجل نفسه وربما يصدر عن المرأة احياناً ، ولعله يكون قاسماً مشتركاً بينهما ، على اساس ان كلاً منهما ينشد ذاته الخاصة به ، والنتيجة هي الخصام بدلاً من ان يكون الهدف المنشود هو الوئام .

ومثال آخر على كيفية تفكك الاحساس بالذات في أيامنا يمكن ملاحظته عندما نتأمل طبيعة الدعابة والضحك . وانه ليس بمدرك بعد كيفية احساس المرء بالذات بوجه عام وارتباط هذا الاحساس ارتباطاً وثيقاً بالفكاهة والدعابة . والفكاهة ينبغي ان تكون مهمتها عادة المحافظة على الاحساس بالذات ، انها تعبير عن قدرتنا الانسانية الفريدة لنبلو ذواتنا ونختبرها بوصفنا أفراداً لم يلتهمهم الموقف الموضوعي الذي يكتنفنا . فالفكاهة والدعابة طريقة صحية تمنحنا الشعور بمقدار المسافة الفاصلة بيننا وبين المشكلة . انها تمكن المرء من ان يطل من علٍ على مشكلته من منظوره الذي يختاره لنفسه . فالمرء ، وهو غارق في الهموم مثلاً ، لا يسعه ان يضحك ، لأن القلق متمكن منه وبخاصة في مواقف الهلع ، ذلك لأن المرء يكون حينئذ فاقداً التمييز بين نفسه كذات وبين العالم الموضوعي من حوله . وفضلاً عن هذا ، فإن المرء لن

يكون تحت سيطرة القلق او الخوف اذا كان قادراً على الضحك في الوقت المناسب ، ومن هنا جاء الاعتقاد في المأثور الشعبي الفولكلوري القائل بأنها الشجاعة بادية عليك حينما تقدر أن تضحك في مواقف الخطر . وحتى في الحالات الذهانية الهامشية يكون المرء قد برهن على مدى صحته العقلية ومعافاته حينما ينتقد ذاته فيقول : (كم كنت مجنوناً !) ، او ان ينظر الى ذاته فيصفها بقوله : (يا لي من مجنون) . ففي كل ذلك علامة صحية ، فهو بلاذعته هذه يكون قد حافظ على ذاته . فبصيرة الانسان هي التي تمنحه التصرف التلقائي ، وان رضى المرء عن نفسه كذات انما تنشط في عالم موضوعي .

الآن وقد رأينا ان وظيفة الفكاهة تملأ عادة حياة الانسان ، دعنا الآن نسأل : ما هي ، يا ترى ، الاتجاهات السائدة في مجتمعنا تجاه الدعابة والفكاهة والضحك ؟ ان الحقيقة الملفتة للنظر هي معاملة الضحك وكأنه بضاعة . فنحن نتحدث عن (ضحك) وحسب . وما اكثر ما نسمع احدنا يعرب عن ملاحظة بقوله : ان لافتات السينما أو برامج المذياع تنطوي على (عدد كذا وكذا من المضحكات) ، فكأن الأمر لا يعدو كونه كميات نحصيها بالآلة الحاسبة وبأدوات التسجيل الكمي . كل هذا يقال وكأن الضحك كمية شأنه في هذا شأن دوزينة من البرتقال او كيلو من التفاح .

من المؤكد ، أن ثمة بعض الاستثناءات لما قدمنا عن الضحك . ومن أندر الأمثلة على ذلك نجدها في كتابات أي . ب . وايت E.B. White ، فهي كتابات توضح كيف يمكن ان تعمق الدعابة والفكاهة والضحك من احساس القارىء بأهمية الفرد وكرامته كشخص ، وانها ترفع الغشاوة عن عينيه وهو يتصدى لما يواجهه من مشاكل . لكن الدعابة والفكاهة والضحك في ايامنا هذه تعني بوجه عام (ضحكات) laughs بالصيغة الكمية ، وكأنها ضحكات يتم تصديرها عن طريق الطلب البريدي ، أو بواسطة ضغط العتلة ، كما هي الحال في تقليعات المزحات التي يقدمها بعض الكتّاب للمذياع . والحق ان لفظة (المزحة) ملائمة هنا في هذا المجال ، ذلك لأن

(الضحكات) كأنما تقوم مقام (غاز الضحك) او الاضحاك laughing gas ، حسب العبارة الواضحة التي استخدمها ثورستاين ڤيلبين Thorstein Velben . فالضحكات هنا تؤدي دور تبليد الاحاسيس تماماً كما يفعل الغاز في الواقع . فالضحك اذن وسيلة للهرب من القلق والفراغ على النحو الذي تدس فيه النعامة رأسها في الرمال ، بدلاً من ان يكون طريقة لكسب افق جديد ومنظور جديد يجدد به المرء شجاعته ليواجه بذلك المعضلات[١٧] . ما من شك في ان للضحك وظيفة ادخال السرور على النفس وهو في الوقت نفسه يجدد خلايا الدماغ ، كل ذلك من فوائده اذا هو تم في الوقت المناسب على النحو الملائم . وثمة فرق كبير بين الضحك كسمة من سمات الانسان وبين القهقهات الجشة الخشنة التي يراد بها الاستخفاف من الآخرين وللتنفيس عن الحقد الحبيس . فهذا النوع الأخير من الضحك يجعل الفرد يشعر بالغربة وبمعزل عن ذاته . ولا ينبغي ان يكون الضحك من نوع ضحك التشفي . فهذا الضرب من الضحك هو الذي يطلق عليه ضحك (التكشيرة) الخالية من الاحساس الانساني ، وهي (تكشيرة) حاصلة في حالتي الغضب والغيظ ولا جدوى منها الا ما تعبر عنه في ما هو في نفس صاحبها . فضحك التشفي وضحك التكشيرة يجعلان صاحبهما يحس بأنه حقق انتصاراً على غيره ، بدلاً من ان يشعر وكأنه حقق شيئاً من ذاته التي يجب ان تكون ذات جدوى في مجال التماسك الاجتماعي . فالضحك المناسب الذي هو سمة من سمات البشر يجعل المرء يحس بأنه قد خطا خطوة جديدة صوب تحقيق الذات . وبعكس هذا، الضحك الكمي وضحك التشفي وضحك التكشيرة الخاوية ، انما يعكس تفكك الذات وفقدان الاحساس بالكرامة والأهمية .

لا ريب في أنّ اعادة اكتشاف الذات تعد حاسمة في حياة المرء . ان تعبير (اكتشاف الذات) لهو عميق الدلالة في وقت اصبح فيه القلق والشكوى

---

(١٧) تجدر الاشارة هنا الى كتاب : **الضحك : وظيفته وطبيعته القيم** تأليف الصديق العزيز الطبيب النطاسي الدكتور راجي عباس صالح / نقيب الاطباء . (المترجم) .

من الفراغ داخل النفس وافراغ النفس من محتواها والغربة النفسية ، اصبح كل ذلك متفشياً في وجه تعقيدات الحياة . فلا جرم ان يبحث الانسان عن جوهر كينونته الذاتية وسط هذا الموج المتلاطم من متطلبات الحياة وضغوطها التي لا تكاد تنتهي . ولهذا فإن كثيراً من الناس في أيامنا هذه قد وجدوا انه من المتعذر عليهم تقريباً ان يدركوا ما كان يرمي اليه سقراط في مقولته الاخلاقية (اعرف نفسك)(١٨) Know thyself . فسقراط كان قد القى بمقولته هذه ، على كاهل الانسان أشق تحدٍ عرفه في حياته . ويقرب من قول سقراط رأي كيركجارد : (الأقدام على المقاحم انما يعزز احساس المرء بمقدار وعيه بذاته) .

عندما نفتقد الاحساس بالذات نكون قد افتقدنا معه لغتنا التي بها نتفاهم وبها نتخاطب . نكون قد اضعنا لغة للتفاهم ، تفاهماً يذهب بنا عميقاً الى ما وراء المعاني الشخصية التي تقربنا بعضنا من بعض . هذا الافتقار الى حسن التواصل يمثل جانباً واحداً مهماً من جوانب الغربة التي ابتلي بها الناس الآن في العالم الغربي . خذ مثالاً على ذلك كلمة (حب) Love ، فهي كلمة ينبغي ان تكون في ظاهرها وفي جوهرها بالغة الأهمية في نقل الأحاسيس الشخصية . ولكنك عندما تستعملها ، فإن الشخص الذي تتحدث بها اليه يظنك ، للأسف الشديد ، انك تعني بها الحب المتداول في أروقة هوليوود ؛ يحسبك تريد به الحب الانفعالي المتضمن في الأغنيات الدارجة والتي تقول : (انا احب طفلي وطفلي يحبني) ، او الحب المنطوي على البر والشفقة ، أو ما قد يراد به في تبادل عبارات الصداقات الحميمة . الحق ، ان الحب من السمو بحيث يحتوي في رحابته وجود الانسان كله . ويصدق الشيء نفسه على أية لفظة مهمة خارج نطاق الاستعمالات اللاتقنية ـ من الأمثلة على ذلك : (حقيقة) ، (تماسك) ، (شجاعة) ، (روح) ، (حرية) ، وحتى كلمة (ذات) . ولا شك في ان لدى الناس وفي اذهانهم معان تضاف الى الالفاظ

---

(١٨) ابلغ من هذا ما جاء في الحديث الشريف : (رحم الله امرأً عرف قدر نفسه) . (المترجم .

المذكورة هذه او تختلف بعض الشيء . لكنها الفاظ دللت على رسوخ معانيها في افكار الناس .

لدينا مفردات من الطراز الأول تخص الموضوعات التقنية ، كما أوضح ذلك أريك فروم E. Fromm ؛ وكل انسـان يمكنه ان يسمي جميـع اجزاء السيارة مثلاً بوضوح ودقة . لكننا حين نأتي الى ما يختص بعلاقاتنا الشخصية الهادفة ، نجد لغتنا تتعثر او تكاد تكون مفقودة ، فنروح نتلعثم ، وعندهـا نلفي أنفسنا مستوحـدين منعزلـين وحالنـا أشبه بحـال اناس صم وبكم ، يتفاهمون بلغة الاشارة فقط ، وهنا يكون الأمر كما انـطق به اليـوت Eliot (رجاله الخاوين) ، اذ يقول :

اصواتنا كلها غائرة ، حينما
نهمس كلنا معاً .
إنها هامدة وخاوية
أشبه بريح في يبس الحشيش
او كوقع اقدام الجراذين فوق حطام الزجاج
هكذا نحن في جوف قبونا المقفر(١٩) .

قد يبدو مستغرباً ان نشير الى ان فقدان اللغة فعاليتها على هذا النحو ، هو عرض من اعراض فترة تـاريخية مضـطربة . فعنـدما تستـطلع النهوض والسقوط في الحقب التاريخية المتعاقبة فإنك ستلاحظ كم هي اللغـة فعالـة وجبارة في اوقات معينة ، مثال على ذلك اللغة الاغريقية في القرن الخامس قبل الميلاد ، وهي اللغة التي كتب فيها أيسخيلوس Aeschylus وسوفوكليس Sophocles مأثوراتها الكلاسيكية ، او خذ مثلاً آخر اللغـة الانجليزيـة في عصر اليصـابات ، اللغـة كتب فيها شكسبـير روائعه وكـذلك تـرجم فيها الانجيـل في عهد الملك جيمس . وفي فـترات اخرى تصبح اللغة واهنـة وغامضة وعاجزة كما كانت عليه الحال عندما اضـطربت الثقافـة الاغريقيـة

(١٩) (The Hollow Men) in: Collected Poems. New York, Harcourt and co. 1934.

وتبعثرت في الحقبة الهيلينية . واعتقد ان ذلك يمكن الكشف عنه بالبحث الذي يوضح انه عندما تكون الثقافة في مرحلتها التاريخية آخذة في النماء فيما يتعلق بوحدتها وتوحدها ، فإن لغة تلك الثقافة عندئذٍ تعكس حقيقة الوحدة والقوة ، بينما عندما تكون الثقافة في حالة تغير ، وفي حالة تبعثر وتفكك في اوصالها ، فإن اللغة تفقد قوتها كذلك .

كتب غوته[٢٠] يقول : (عندما كنت في الثامنة عشرة من عمري ، كانت المانيا في الثامنة عشرة ايضاً) . فهو يشير بذلك الى انّه ليس فقط المثل العليا ideal في قومه كانت تسير باتجاه الوحدة والقوة ، ولكن كانت اللغة ايضاً سليمة واثبتت جدارتها مما مكّنه من الكتابة بها . ومن الأمور المؤكدة في ايامنا هذه هو أن دراسة علم دلالات الالفاظ وتطورها لذو قيمة كبرى ، وانه بالتدبر والاعتبار لجدير . ولكن لماذا نتكلم بهذا الاسهاب ، مستنزفين جلّ وقتنا ومعظم طاقاتنا ، عن الالفاظ وعما تعنيه ، بدلاً من استخدامها من اجل التفاهم والتواصل .

ثمة اشكالات أخرى غير الكلمات للتفاهم الشخصي : من ذلك مثلاً الفن والموسيقى . فالرسم والموسيقى هما الاصوات الحساسة للناطقين باسم المجتمع ، فهما ينقلان الى الآخرين في المجتمع المعاني الشخصية العميقة ، كما ينقلان نفس المعاني العميقة هذه الى المجتمعات الأخرى والى حقب تاريخية قادمة . وقد لا نجد البتة في الفن والموسيقى الحديثين لغة تتيح التفاهم . اذا ما تأمل معظم الناس عامة ، وحتى الأذكياء منهم ، ونظروا الى الفن الحديث من غير معرفة منهم بالمفتاح الخاص به المعد لفئة قليلة من الناس وللمختصين بخاصة ، فإنهم من الناحية العملية لا يستطيعون ان يفهموا منه شيئاً . فهم دائماً يواجهون بأساليب من كل ضرب ويجدون انفسهم امام مفاهيم ومصطلحات مثل الانطباعية ، والتعبيرية ، والتكعيبية ، والتجريدية ،

---

(٢٠) شاعر الماني (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) يعتبر اعظم الشعراء الالمان في جميع العصور . (المترجم) .

والتصويرية ، والرسم التجريدي اللاموضوعي ، وهكذا تتواصل السلسلة حتى اننا لنجد موندريان Mondrian يقدم رسالته في صورة مربعات ومستطيلات مبهمة ، ويليه جاكسون بولوك Jackson Pollock ، بنوع آخر وهو ما يسمى بـ (قياس الخلف)[٢١] reductio ad absurdum ، وذلك بأن يطرطش[٢٢] الأصباغ بلا انتظام وكيفما اتفق على لوحات كبيرة ، ومن ثم يمنح عمله هذا عنواناً مجرداً من التاريخ الذي انجزه فيه . اني بهذا لا انتقد ، بطبيعة الحال ، هذين الفنانين ، وقد اتفق لي ان استمتعت بما قدماه كلاهما من اعمال . وهنا يجد سؤال لا معدى عن اثارته : ألا يمكن لهؤلاء الفنانين الموهومين ان يتفاهموا بما هو أبلغ من هذه اللغة المحدودة ؟

لو أنك زرت الآن رابطة الطلبة الفنانين الاميركان بنيويورك ، ولعلها اكبر رابطة للفنانين البارزين ، لدهشت وأنت ترى صفوفاً من الرسامين وكل يرسم بطريقة مختلفة عما يرسم بها غيره ، وانك ستجد نفسك ان عليك ان تغير انفعالاتك في كل عشرين خطوة تخطوها في ذلك الاستوديو . ففي عصر النهضة مثلاً كان بوسع الانسان الاعتيادي ان ينظر الى اللوحات التي رسمها رافييل مثلاً أو ليونارد دافنشي او مايكل انجيلو ، عندها يحس المرء أن يفهم من خلال تلك الصور عما كان يجري في الحياة عامة وعما يخالج الفنان الذي قام برسمها . لكن الانسان العادي غير الملم بالثقافة الفنية اذا ما قام بجولة في ابهاء (غاليرز) Gallaries الشارع (٥٧) في مدينة نيويورك ولاحظ لوحات لبيكاسو مثلاً أو دالي ، أو مارين ، فقد يوافق على القول انه شاهد شيئاً مهماً ، ينم عن تعبير ، ولكن في الوقت نفسه الله وحده والفنان يعرفان ماذا تعني للمشاهد هذه الصورة أو تلك . فعلى المرء ان يسيطر على ضبط اعصابه وألا ينفعل أو يهتاج .

---

(٢١) الخلف بضم الخاء وسكون اللام في المنطق قياس أساسه البرهنة على صحة المطلوب بإبطال نقيضه او على فساد المطلوب باثبات نقيضه . (المترجم) .

(٢٢) يرشش الاصباغ بلا انتظام وكيفما اتفق . (المترجم) .

يقول نيتشه انما يعرف المرء (بأسلوبه) ، اي عن طريق (النسق) الفريد الذي يضفي وحدة مستكنّه وتمايزاً واضحاً على فعالياته . والشيء نفسه يصدق على الثقافة . لكننا اذا ما سألنا : ما هو الاسلوب المتميز في أيامنا هذه ؟ فلا نجد اسلوباً يمكن ان نسمه بأنه اسلوب حديث . والشيء الوحيد الذي تشترك فيه الحركات الكبرى في الفن بدءً بالأعمال الكبرى لسيزاني وفان كوخ Van Gogh ، هو انها تحاول يائسة ان تتحرر من عوائق النفاق والنزعة العاطفية التي كان القرن التاسع عشر مقيداً بأصفادها . فأنت في الوقت الراهن لا تجد الاّ تخليطاً في الاساليب . ورب قائل يقول ان الوقت لم يحن بعد لتمحيص ما تنطوي عليه هذه الفترة بكل ما فيها مثلما تسنى ، مثلاً ، ايام عصر النهضة حيث استكملت كل عناصر الحقائق . لكن هذا لا ينفي كون الحقيقة ما فتئت قائمة ألا وهي أن هذا التخليط انما يعكس مقدار التشتت الفكري في ايامنا هذه . وان ما يقدم هناك من صور باهتة ورسومات مهرتكة ومضامين خاوية ، انما تعبر عن الحال المستبطنة في افكار اصحابها .

يبدو الامر وكأن كل فنان اصيل يحاول محاولة محمومة ان يجرب لغات متباينة ليرى ايها أنجح في تقريب مفاهيم العصر الى مواطنيه . ولكن ، لحد الآن ، ليس ثمة لغة مشتركة تذكر . اننا لنجد ، مثلاً عملاقاً مثل بيكاسو ينتقل خلال رحلة حياته من اسلوب الى آخر ، شأنه في هذا ، شأن أي شخص آخر في هذا التنقل والتحول خلال العقود الأربعة الماضية في المجتمع الغربي ، فهو- بيكاسو- بهذا أشبه بمن يحاول تحويل راديو الباخرة وسط المحيط ، وتوجيهه محاولاً عبثاً ان يعثر على طول الموجة التي تمكنه من الاتصال مع زملاء له في عرض البحار . وهذا ما يبقينا منعزلين عن بعضنا مستوحدين فلا ندري كيف نتواصل . ولكي نغطي على وحدتنا هذه وعلى عزلتنا ، رحنا نتحدث فقط عن مسلسلات العالم من حولنا وعن شؤون العمل ، وعن تقارير آخر الأخبار ، وهي جوانب عامة ، اما اعمق عواطفنا فإنها معطلة ومنحّاة جانباً ؛ ولذلك فإننا نجنح اكثر فأكثر الى أن نكون اكثر خواء واشد وحدة وابعد اغتراباً .

ما أقل استمتاعنا بالطبيعة[٢٣]

حين يفقد الناس احساسهم بهويتهم كذوات ينزعون في الغالب الى أن يفقدوا احساسهم بالانتماء الى الطبيعة وارتباطهم بها ايضاً . فهم لا يفقدون ارتباطهم العضوي بها فحسب ، وانما هم يفقدون كذلك احساسهم بالتعاطف مع الطبيعة الحية . ان انجذاب الناس نحو مشاهد الطبيعة وعناصر اسرارها يمنحهم متعة نفسية وصحة نفسية وعقلية . فالطبيعة سفر مفتوح نتعلم منه سر الكون وعجائب الحياة اذا نحن أحسنا قراءة ما فيها من جمال وعظات وعبر . وان ابتعاد الفرد عن دروس الطبيعة البليغة يعني الانكفاء على النفس والانطواء على الخواء والفراغ الداخلي ـ داخل النفس ـ والقلق .

ان علاقتنا بالطبيعة تميل الى أن تتحطم لا عن طريق خوائنا فحسب ، ولكن جراء قلقنا ايضاً . خذ مثالاً على ذلك طفلة صغيرة تعود الى بيتها بعد يومها المدرسي وقد استمعت خلاله الى محاضرة عن كيفية حماية المرء نفسه ضد القنبلة الذرية ، فتسأل والدتها : (يا والدتي ، هلا نستطيع ان نغادر الى مكان آخر خال من اي سماء ؟) . انه سؤال له دلالاته الرمزية . انه يرمز الى الكيفية التي يجعلنا القلق فيها ننسحب من الطبيعة . فالانسان هو الذي صنع القنبلة الذرية وأصبح منها يعيش في رعب وهلع . وهو يحس في قرارة نفسه انه لا تحميه من كابوس خوفها سوى الكهوف . إنه يحدث نفسه بأن الكهوف اكثر امناً له . فهو يريد أن يتوارى من تحت السماء التي تعد من الناحية الكلاسيكية رمزاً للرحابة والخيال والانطلاق .

وكلما أحس المرء بأنه خاوٍ في داخله ، كما هي الحال بالنسبة لكثير من الناس المعاصرين ، فإنه يحس بأن الطبيعة من حوله خاوية جافة ايضاً . وهذا من شأنه ان يجعل علاقة الفرد بالطبيعة علاقة مقفرة للحياة وفي الحياة بعامة .

---

(٢٣) هذا العنوان الفرعي مأخوذ من سوناتة للشاعر الرومانتيكي الانكليزي وليم وردزورث (١٧٧٠ ـ ١٨٥٠) وبيت الشعر هو Little we see in nature that is ours . (المترجم) .

بوسعنا ان نتبين بوضوح اكثر ماذا يعني ان يفقد المرء احساسه بالطبيعة اذا ما نظرنا الى الوراء لنتبين كيف ان الاحساس بالطبيعة والعلاقة بها قد ازدهرت في الفترة الحديثة ، ومن ثم اندثرت . ان احدى خصائص النهضة ومن ابرز سمات عصرها في أوروبا تتمثل في الحماس الزائد للاهتمام بالطبيعة وبكل ما تحفل به من حياة وجماد ، وانك لتتبين تدفق الحياة الذي يعكس الالتصاق بجمال الطبيعة في رسومات جيوتو[٢٤] Giotto ، رسومات تتدفق بالحياة بعيدة عن الأساليب المؤسلبة[٢٥] والجامدة التي كانت سائدة في العصر الوسيط . فعلى النقيض من فناني العصور الوسطى ، كان جيوتو يرسم مضامين الطبيعة بحيوانها وشجرها ونباتاتها وهي تنضح حيوية وامتاعاً للنفس . فكان جيوتو في رسوماته يكاد ينطق الطبيعة بأن ما فيها انما هو رمز سماوي موجه الى البشر يعلمهم بأن ما يحيط بهم انما هو لهم ومن أجلهم . لم يقتصر جيوتو على رسم النبات والحيوان فقط ، بل كان من القدرة على رسم البشر وابراز ادق ملامح البهجة والحزن وعلائم الرضى كانفعالات ذاتية تميز فرداً عن فرد . كانت رسومه تنقل الينا الأحاسيس بصورة ابلغ مما تنقله الكلمات . والانسان حين يبلو ذاته ككيان يحس احساساً قوياً بعلاقته بالحياة كفرد له كيانه ، فإنه كذلك يعبر عن مدى علاقته بالطبيعة وما تحتويه من مخلوقات .

اعجاب الانسان بالطبيعة وحنينه الى العودة الى احضانها ترويحاً عن النفس ، لم يكن مرتهناً بما ابدعه الرسامون والنحاتون وحدهم ، بل تجلى ذلك أيضاً فيما ابدعه الأدباء والمفكرون . بمقدور المرء ان يرى ذلك مجسماً في قصص بوكاشيو[٢٦] كما يراه مجسدا في مسرحيات شكسبير[٢٧] . فبوكاشيو مثلاً كان

---

(٢٤) رسام ونحات ايطالي (١٢٦٦ - ١٣٣٧) يعد أحد مبدعي فن الرسم الحديث . (المترجم) .

(٢٥) وفق اسلوب واحد رتيب وممل . . . (المترجم) .

(٢٦) جيوفاني بوكاشيو شاعر وروائي ايطالي ، عاش ومات في القرن الرابع عشر . نظم ملحمة طويلة على غرار الألياذة اسماها (تسييد) . (المترجم) .

(٢٧) (١٥٦٤ - ١٦١٦) شاعر انكليزي يعتبر اعظم الشعراء الانكليز ، وضع عدداً من المسرحيات الشعرية الخالدة . (المترجم) .

ينزع الى ان يظهر في قصصه الجوانب الحسية والتحسسية لمفاتن الجسم ، وابراز معالم القوة الجسدية .

ولكن ما ان حلّ القرن التاسع عشر حتى تحول الاهتمام من الاستمتاع بالطبيعة وبمفاتنها الى الهيمنة عليها واستغلال معطياتها لمصالحه النفعية . ففي القرن التاسع عشر كان الانسان قد تحرر (من ربقة الخرافات) ، كما ذكر بول تيلش Paul Tillich ، في عبارته النابضة بالمعنى . بيد ان التحرر من الخرافة كان قد بدأ في القرن السابع عشر ، عندما اكد ديكارت[٢٨] Descartes ان الجسد والعقل يجب التمييز بينهما كقسمين منفصلين . فالجسم الذي يمكن وزنه وقياسه وله صفته الفيزيقية ، يختلف عن العقل بخصائصه المعنوية المعبر عن الخبرة الذاتية .

في مستهل القرن التاسع عشر كان وليم وردزورث قد رأى ، كما رأى آخرون غيره ، فقدان الاحساس بمباهج الطبيعة ، وكان قد رأى الانصراف الى التوكيد على نحو مبالغ فيه على النزعة التجارية التي كانت في جزء منها سبباً ونتيجة لما كان يشكو منه الانسان من خواء ومن فراغ داخلي . وقد وصف وردزورث ما كان يحدث في سونات‌ته المألوفة :

لنا الدنيا جلها ، بملء ما فيها ؛ عجلى في حاضرها وفي مآثيها ،
نكدح فيها تكداساً واسرافاً ، وطاقاتنا نبعزقها في مجاليها ؛
الطبيعة ما اقل ما نرى لنا فيها ، وما اقل استمتاعنا فيها ،
فنحن سادرون ، وأفئدتنا بدءاً فرطنا بها : هبة وضيعة أضعناها ؛

فها هو البحر يكشف عن مفاتنه للقمر في عليائه ،
والرياح العاصفات في كل الساعات ،

(٢٨) رينيه ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) فيلسوف وفيزيائي وعالم رياضيات فرنسي ، يعد مؤسس الفلسفة الحديثة . (المترجم) .

كل ما هناك يتكور كالزهرات النائمات ،
عن هذا كله ، وكل شيء سواه ، (نحن) في غفلة ساهون ؛
ما بالنا لا تهزنا الطبيعة ـ يا الهي ما أعظمك ! يا ليتني
وثنياً غارقاً في اعتقاد ابلته القرون
ومن مثابتي هنا أطل من رحاب المرجة الفيحاء هذه
المح ببوارق البصر ما يحيلني اقل سرحاناً
فيكتحل طرفي ببزوغ بروتيوس من أعماق البحور
أو أستمع الى ترايتون وهو ينفخ في الصور

انطلق وردزورث في سوناتته هذه من حدث شعري ، فهو يتوق الى مخلوقات اسطورية مثل : بروتيوس وترايتون . فهذه الشخصيات تمثل نزعة شخصانية لجوانب الطبيعة ـ فبروتيوس ، مثلاً ، هو اله يفتأ يغير شكله باستمرار وهيئته. انه رمز للبحر الذي يبقى خالداً في تنقل حركاته والوانه واضطراب امواجه . وترايتون هذا ، هو اله يتخذ له بوقاً من الاصداف البحرية وموسيقاه صدى الهمهمة التي يسمع المرء صداها ترددها الأصداف الكبيرة القابعة على الشواطىء . فبروتيوس وترايتون يمثلان تماماً ما نحن افتقدناه وأعني القدرة على ان نرى ذواتنا وحالاتنا وامزجتنا منعكسة على صفحات الطبيعة ، اي القدرة على ان ننتسب الى الطبيعة بوصفها متسعاً وامتداداً لخبرتنا الخاصة بنا .

إننا ككائنات بشرية فإن جذورنا متأصلة بالطبيعة ، لأن كيمياء اجسامنا هي اساساً من عناصر الطبيعة . وان تتابع الفصول وتداخل الليل والنهار كلها مما يدخل في تناغم اجسامنا وفي تغير امزجتنا وما نكون عليه من غضب وانشراح ومن انجازات نؤديها ، ومن نوم الى يقظة . . . الخ . لذلك فإن بروتيوس ، في سوناتة وردزورث ، يمكن ان يكون شخصنة لتلك التغيرات في البحر لأنه يرمز الى ما نشترك فيه نحن والبحر من تغير في المزاج ومن تنوع في كيفية الهدوء والاضطراب .

بيد أن الإنسان يختلف عن الطبيعة وعن سائر متضمناتها الأخرى . فهو يمتلك شعوراً لنفسه خاصاً به . ان احساسه بكينونته الشخصية يميزه عن بقية الاشياء الحية وعن الجمادات . والطبيعة لا تهتم بالانسان بمقدار قشة . لكن الانسان هو الذي يتخذ لنفسه موقفاً يؤكد فيه كينونته الذاتية رغم حيادية الطبيعة ، فهو القادر على أن يملأ صمت الطبيعة بدفق حيويته الخاصة به ، فيكون غاية في الابداع .

فقدان الاحساس بالتراجيديا

من دلائل قلة الاهتمام بقيمة الانسان وكرامته هي فقدان الاحساس بمدى معاناة الانسان في الحياة . ذلك لأن الاحساس بالألم يعني في طرفه الآخر الاحساس بمكانة الفرد . اذ ان الألم يعمق من الاحترام العميق للكائن الانساني ، فهو ينطوي على ولاء لحقوق الانسان ومصيره . وبخلاف ذلك فإن الأمر لا يعني شيئاً البتة سواء سقط اوريستس[٢٩] أو لير[٣٠] أو أنت أو أنا ، أم ثبتنا في كفاحنا في وجه الصعاب .

كان آرثر ملر قد أورد ، في توطئته لمسرحيته : موت بياع ، تعليقات معبرة تناول فيها نقص الاحساس بالتراجيديا الحياتية . كتب يقول : (ان الشخص المتحسس للألم هو الذي يكون مستعداً للتضحية بحياته ، اذا اقتضت الحاجة ، ليضمن المحافظة على شيء واحد ـ ذلك هو إحساسه بكرامته الذاتية . . ان الاحساس بالألم انما هو من شروط الحياة ، شريطة ان تكون فيه الشخصية الانسانية قادرة على ان تزدهر وتدرك ذاتها) . هذه

---

(٢٩) ابن قائد اليونان الذي قاد الحملة اليونانية في حرب طروادة. تعاون هو واخته الكترا فقتلا امهما وعشيقها لأنها كانت قد قتلت زوجها بعد عودته منتصراً من حملته تلك . (المترجم) .

(٣٠) احد ابطال مسرحية لشكسبير بهذا العنوان . . . (المترجم) .

الشروط كانت قد ضمتها صفحات من التاريخ الغربي عندما تم تدوين المآسي الكبرى . وحسب المرء ان يتمعن فقط في يونان القرن الخامس قبل الميلاد ليقف على ما كان قد كتبه كل من أيسخيلوس وسوفوكليس من التراجيديات الجبارة مثل : أوديب(٣١) ، وأغاممنون(٣٢) ، وأوريستس(٣٣) ، ولنا ايضاً ان ننظر فيما كتبه شكسبير في انكلترا في عصر اليصابات ، حيث ترك لنا مسرحيات رائعة منها : لير ، وهملت ، ومكبث ، وكلها معروفة .

لكن عصرنا هذا ، عصر الخواء ، نجد التراجيديات الهادفة فيه نادرة الوجود نسبياً . وان هي كتبت ، فإن الجانب التراجيدي فيها يتمثل في ان حياة الانسان انما هي حياة خاوية جوفاء كما هي في (الدراما) التي كتبها يوجين اونيل(٣٤) Eugene o'Neill بعنوان : الانسان الجليدي آتٍ . هذه المسرحية كتبت في صالون ، واشخاصها الدراميون - هم فئة من الرجال المخمورين والنساء المبتذلات ، والشخصية الرئيسية فيها ، رجل ينتهي به الأمر في المسرحية الى الاصابة بالذهان(٣٥) . واشخاص الدراما اولئك كانوا قلما يستذكرون شيئاً من فترات حياتهم ، هذا اذا كانوا يعتقدون بشيء قط . فحوى التراجيديا هذه ومضمونها صدى الكرامة الانسانية ، الصدى الساري في فراغ بالغ الخواء ، وهذا الخواء العميق هو الذي اتاح لهذه الدراما قوتها في

---

(٣١) بطل طيبة ، قتل اباه لايوس وتزوج امه يوكاستا دون علم منه بأنه فعل الفعلتين ، فلما عرف الحقيقة فقأ عينيه وانتحر . كتب الاسطورة سوفوكليس ، ترجمها الى العربية الدكتور طه حسين بعنوان : (أوديب ملكاً) . (المترجم) .

(٣٢ و٣٣) سبقت الاشارة اليها . (المترجم) .

(٣٤) (١٨٨٨ - ١٩٥٣) كاتب مسرحي اميركي يعتبر من اهم اركان المنحى التعبيري في المسرح . (المترجم) .

(٣٥) الذهان مرض عقلي يجعل المصاب به مختلط العقل . ومنه الذهان العضوي الذي يعزى الى سبب عضوي ، في المخ عادة ، ومنه الذهان الوظيفي الذي لا يظهر فيه اثر لاصابة عضوية . وهناك ثلاثة انواع من الذهان الوظيفي : الفصام ، والذهان الهوسي الاكتئابي ، والذهان الهذائي . (المترجم) .

انتزاع انفعالات الشفقة والرأفة والرعب ، فيجعل منها مأساة كلاسيكية[٣٦] .

ان مسرحية أرثر ملر، موت بيّاع ، التي المعنا اليها من قبل ، هي نفسها احدى التراجيديات التي تحكي مأساة الناس الاعتياديين ـ فلا الكحوليون ولا الذهانيون ، هم الذين يكونون الموقف الاجتماعي في هذا البلد الذي ترعرع معظمنا في ربوعه . (وفي النسخة المعدة للسينما من هذه المسرحية ، كان ولي ، البياع ، قد تم اظهاره ، للأسف بمظهر ادعى للشجى ـ وان اولئك الذين شاهدوا العرض السينمائي فقط لهم ان يتصوروا ولي في اوسع سياق ليتذوقوا حقيقة مأساته كما هي في الواقع) . انه رجل كان قد حمل تعاليم مجتمعه على محمل الجد ، اذ رأى ان النجاح يجب أن يعكف عليه المرء بمثابرة وبعمل جدي وعلى المرء ان يبذل في خدمة مجتمعه قصارى جهده ومنتهى طاقته ، وان التقدم الاقتصادي انما هو ثمرة لتضافر انشطة جميع افراد المجتمع . والحقيقة المأساوية في حالة ولي هي انه لم تكن له ابهة (لير) وفخامته ، ولم يكن لديه الارتواء النفسي او التشبع النفسي الذي كان لهملت . فهو (مجرد زورق صغير يبحث عن مرفأ) ، كما تذكر عنه زوجته .

مما يذكره ملر عن الشخصية المأساوية هو انها يمكن ان تحتل لها مكاناً عندما تتخذ لها توجهاً نيتها فيه تصحيح موقف او اصلاح خطأ . ولكن الخشية كل الخشية هي أن تكون سلبية في موقفها او في اتجاهها ، مما يسيء الى صورة مكانتها القويمة . والسلبيون في التراجيديات ، هم الذين يستسلمون عادة لقدرهم ويتقبلونه دونما ادنى مجابهة فعالة من جانبهم للتصدي لما يصيبهم . ويمضي ملر الى القول ، وهو يوضح النوعية المأساوية ، بأن التي تهزنا منها (انما تنبعث من الخوف المستكن فينا من أن ننحى ونزاح عن مواقعنا ، ونتصور الكارثة متأصلة في الخوف من ان ننتزع من صورتنا المختارة

---

(٣٦) قارن ذلك بما كتبه سوفوكليس (٤٩٦ ـ ٤٠٦ ق.م) وتراجيدياته اليونانية العظيمة وما كتبه اسخيلوس (٥٢٥ ـ ٤٥٦ ق.م) الذي يعد ابا التراجيديا في اليونان . (المترجم) .

التي تمثلنا كما نريد نحن ان نكون عليه في هذا العالم . فبيننا سائد اليوم هذا النوع من الخوف على نحو من القوة ، بل لعله أقوى مما كان قط) .

لا يظنن أحد أننا ندافع هنا عن وجهة نظر تشاؤمية ، حينما نأسف على فقدان الحس المأساوي . بل على النقيض من ذلك . فالأمر كما يشير ملر ايضاً : (ان المأساة تنطوي على تفاؤل في نفس كاتبها اكثر مما تتضمنه الملهاة Comedy . ان النتيجة النهائية في المأساة ينبغي أن تكون تعزيز أنصع آراء المشاهد عن الكائن الانساني . ذلك لأن وجهة النظر المأساوية انما تشير الى اننا نحمل على محمل الجد حرية الانسان ومقدار حاجته ، من أجل ادراك ذاته ؛ انها ـ المأساة ـ تقيم الدليل على عمق ايماننا بالارادة الصلدة للانسان لتحقيق انسانيته) .

ان المعرفة بالطبيعة البشرية والتبصر بصراعات الانسان اللاشعورية التي يكشف عنها العلاج النفسي ، تضيف اساساً جديداً الى الاعتقاد بالجوانب المأساوية في الحياة الانسانية . ان المعالج النفساني ، الى جانب كونه يتمتع بميزة شاهد عيان على ما يعانيه مرضاه وهو على تماس بما يقاسونه في حياتهم الداخلية من صراعات غالباً ما تكون مهلكة ومريرة في انفسهم وما يلاقونه من المؤثرات البيئية التي تتحدى كرامتهم ، فإنه ـ المعالج ـ فضلاً عن ذلك ، يزداد احتراماً لهؤلاء الاشخاص ، ويكتسب في الوقت نفسه ادراكاً جديداً يتعلق بالكرامة الانسانية القوية للكائن الانساني . اضف الى هذا ، فإن هذه الفئة من الناس بعد أن تتوفر لهم اسباب العلاج الناجع ، وبعد ان يتيسر لهم الشفاء الناجز ، وبعد ان يأخذوا انفسهم بالحزم والجد ، يكتشفون في دواخلهم انهم كانوا من قبل يمتلكون طاقات رائعة وانها كانت لديهم قبل الآن مجهولة في الغالب .

ان جذور العلة في أيامنا هذه ، كما هي مدونة في هذا الفصل ، تنضاف الى تشخيص كالح . لكنه ليس بالضرورة تشخيص ينطوي على تكهن كالح . ذلك لأن الجانب الايجابي فيه هو اننا لا خيار لنا الاّ ان نعقد العزم

ونتقدم الى الأمام . شأننا في هذا شأن غيرنا من الناس ممن يكشف التحليل النفسي عن امكنياتهم الدفاعية وعن أوهامهم التي كانت كامنة فيهم ، فينفذ منها اليهم ، ثم يبيّن لهم أن خيارهم الوحيد هو أن يضغطوا باتجاه شيء هو أفضل ما ينتظرهم وهم به جديرون .

فنحن ـ وأعني بـ (نحن) اي فرد مهما كانت سنه ومهما كان موقعه ـ لسنا بالجيل (الضائع) كما كان الأمر أيام العشرينات . ينبغي أن نعي الموقف التاريخي الذي نحن فيه . نحن الآن الجيل الذي لا يستطيع الالتفات الى الوراء . اننا الآن في هذا القرن ، ونحن في النصف الثاني منه ، مثلنا مثل الطيارين الذين هم في منتصف المحيط الأطلسي وقد تجاوزوا نقطة اللاعودة ، وليس لديهم من الوقود ما يكفي ليعودوا الى مكان تحليقهم وانطلاقهم ، فيتعين عليهم الاندفاع الى الأمام رغم هبوب العواصف المضادة أو رغم بروز الأخطار الأخرى .

فما هي ، اذن ، المهمة التي أمامنا تنتظرنا ؟ ان ما اسلفنا ذكره عما هو متضمن في التحليل الآنف واضح وجلي . اذ يتعين علينا ان نعيد استكشاف مصادر القوة والتكامل الثاوية في أعماق نفوسنا . وهذا ، بطبيعة الحال ، ينبغي ان يسير جنباً الى جنب مع استكشاف وتأكيد القيم في نفوسنا وفي مجتمعنا ، القيم التي ستكوّن لب وحدتنا . ولكن ما من قيم تكون فعّالة ، إنْ في ذات الشخص وإنْ في المجتمع ، ما لم يكن لدى الشخص مسبقاً الاستعداد للعمل على تعميق القيم تلك ، أي ان يكون لديه الاستعداد ليسهم بنشاط فعّال في اختيار وتوكيد القيم التي بها يعيش . هذا ما يجب أن يفعله الفرد ، ومن هذا السبيل فإنه يسهم في ارساء الأساس الجديد للمجتمع ، أساس البناء المنتظر الذي سيبزغ في النهاية فيرتفع فوق وهدة الاضطراب الكائن في هذا الزمان ، يبزغ مثلما بزغ عصر النهضة من خلال تفكك العصور الوسطى .

كان وليم جيمس[٣٧] W. James قد علّق مرة يقول : ان على اولئك الذين يهتمون بجعل العالم اكثر سلامة ، يحسن بهم البدء بـأنفسهم اولاً . ويمكننا الآن أن نذهب ابعد من ذلك فنشير الى ان ايجاد مركز القوة في ذواتنا هو في المآل أفضل اسهام منا نستطيع تقديمه الى مواطنينا . يقال ان صياد السمك عندما يكون في البحر قرب شواطىء النرويج ، وحين يرى قاربه على وشك الاقتراب من اضطراب هائل ، فإنه لا ينكص ، بل انه يسارع ويمضي قدماً ، ويعمل مجذافه في الدوامة الهائجة ، وحينما تخف وطأة الاضطراب المائج ويهدأ يكون قد مرّ بقاربه بسلام . وتماماً هكذا هو الأمر بالنسبة لنا . فعلى الشخص الذي يتمتع بطاقة ذاتية كان قد فطر عليها ، عليه ان يمارس تأثيراً مهدئاً كبيراً على عوامل الذعر المتفشي بين الناس من حوله . هذا هو ما يحتاجه مجتمعنا ويتطلبه . وليس افكاراً ومخترعات جديدة فقط ، على ما لهذه من اهمية بالغة . وهو لا يحتاج فقط الى عباقرة ورجال خارقين Supermen ، وانما يحتاج ايضاً الى اشخاص يمكنهم ان يثبتوا قدرتهم على البقاء : يمكنهم ان يؤكدوا كينونة وجودهم : اشخاص يملكون مركز القوة في أعماق ذواتهم . وان مهمتنا في هذه الفصول هي ان نحاول استكشاف مصادر القوة الداخلية الذاتية هذه .

---

(٣٧) فيلسوف وعالم نفسي امريكي (١٨٤٢ ـ ١٩١٠) ، طور الفلسفة الذرائعية او البراغماتية ، له عدة مؤلفات في علم النفس ، اهمها أصول علم النفس / بجزئين . (المترجم) .

القسم الثاني

استكشاف الذات

الفصل الثالث
خبرة ادراك الذات

لكي نضطلع بـ (مهمة اقتحام كيفية ادراكنا لذواتنا) ، ولكي نستكشف مصادر القوة الداخلية فينا ومواطن الأمان ، وفيهما تكمن المكافأة على مثل هذا الاقتحام ، دعنا ، بادىء ذي بدء ، نسأل : ما هو جوهر هذا الشخص ، أي ما هو هذا الاحساس الخاص بالذات التي نتحراها وننشدها ؟ .

منذ سنوات قليلة خلت قام أحد المختصين بعلم النفس بتربية صغير شمبانزي مولود حديثاً مع طفله الرضيع وكانا كليهما من عمر واحد . وكان غرضه ، كما هو ميل هؤلاء الرجال ، هو لكي يقوم بتجربة للكشف عن خصائص الكائن البشري مقارنة لها بخصائص المخلوقات الأخرى . نشأ الشمبانزي الصغير والطفل الرضيع في منزل واحد وهما يلعبان معاً ويتلقيان نفس العناية . ففي الشهور القلائل الأولى تطورا بسرعة متساوية واحدة ، فكانا يلعبان سوية وما ظهرت عليهما الا اختلافات قليلة . ولكن بعد مضي اثني عشر شهراً تقريباً ، طرأ نوع من التغير على تطور الكائن البشري الصغير ، ومنذ ذلك الوقت وما تلاه بدأ فرق كبير يظهر بينه وبين الشمبانزي الصغير .

وهذا هو ما نتوقعه . اذ يوجد ثمة فرق بين الكائن الانساني وبين اي صغير من صغار الثدييات ، ابتداء من الالتحام الأصلي للجنين برحم امه ،

مروراً ببدء ضربات قلبه ونبضاته ، وانتهاء بقدومه الى هذا العالم وليداً ، وبداية ولادته هي لحظة بداية تنفسه تنفساً جديداً خاصاً به ، وبداية حمايته والحدب عليه في الشهور الأولى من حياته . ولكن حوالى العام الثاني من العمر او ما يقرب من ذلك قليلاً أو كثيراً ، تبدأ تظهر عند الكائن البشري علائم انبثاق مهمة في النشوء ، وأعني بها شعوره بذاته Consciousness of himself . انه يبدأ يعي ذاته بصفتها (أنا) . فالطفل قبل ولادته يكون جزءاً من (النحن الأصلية) ، انه كان جزءاً من أمه ، وأنه هكذا يستمر جزءاً من (النحن النفسية) Psychological we ، ابان رضاعته المبكرة . لكن الطفل الصغير الآن ـ وللمرة الأولى ـ يصبح واعياً حريته . فهو يبدأ يجرب احساسه بذاته كهوية خاصة منفصلة عن الأبوين ، ويستطيع أن يقف بوجهيهما اذا ما دعت الحاجة الى ذلك . وهذا الانبثاق العجيب هو ولادة الكائن البشري ولادة نفسية وتحوله الى شخص .

الشعور بالذات ـ العلامة الفريدة للانسان

هذا الشعور بالذات ، هذا الاستعداد لأن يرى المرء ذاته وكأنه يلحظها من الخارج ، هو الصفة المميزة للانسان . لي صديق لديه كلب عوّده على الانتظار في باب مرسمه Studio طيلة فترة الصباح ، وعندما يأتي اي شخص الى باب المرسم فإن الكلب يقفز من مكانه نابحاً ، وذلك بقصد المداعبة . وصديقي يرى ان الكلب في نباحه هذا كأنه يقول : (ها هنا كلب ينتظر طيلة الصباح اي فرد قادم ليلعب معه . فهل هو انت هذا الفرد ـ يا هذا القادم ؟) . هذه عاطفة ظريفة لا شك ، وكل الذين يحبون الكلاب يستمتعون باسقاط افكار مريحة كهذه في زوايا ادمغتهم . لكن هذا ما لا يستطيع الكلب في الحقيقة قوله بهذه الدقة . انه يقدر ان يظهر لك انه يحب ان يلعب وبإمكانه ان يغريك بأن تلقي اليه الكرة باتجاهه ، لكنه ليس باستطاعته ككلب ان يقف خارج اطار ذاته ليرى ذاته كلباً وهو يفعل هذه الاشياء . انه لا ينعم بنعمة الشعور بالذات التي ينعم بها الانسان .

وبقدر ما يعني هذا بأنه كلب ، فإنه يعني ايضاً انه خال من العصاب neurosis والقلق والشعور بالذنب ، بحيث ان بعض اناس يفضلون القول ان الكلب ليس منحوساً بلعنة الشعور بالذات . وإننا لنجد والت هويتمان[1] Walt Whitman مردداً صدى هذه الفكرة يغبط العجماوات على ما تنعم به من راحة البال ، اذ يقول :

أحسبني أطيق العودة والعيش مع العجماوات
انها لا تكدح ولا على احوالها تأسى ،
انها في الدجى لا تضطجع يقظى .
على آثامها لا تنتحب بالشكوى .

لكن واقع الحال هو ان شعور الانسان بذاته يعد مصدر مؤهلاته . انه يتضمن قدرته على التمييز بين (انا) وبين العالم . انه شعور يمنحه الاستعداد والقابلية لمراقبة الوقت ، والذي يعني ببساطة القدرة عى الوقوف خارج نطاق الحاضر فيتصور المرء نفسه في ماضي اليوم المنصرم ـ وانه به يتمكن من ان يتصور مسبقاً بعد غدٍ . لهذا فإن الكائن البشري يستطيع ان يتعلم من الماضي وان يخطط للمستقبل . ولهذا فإن الانسان هو الكائن التاريخي الذي يقدر ان يقف خارج اطار ذاته وان ينظر الى تاريخه سابقاً ولاحقاً ؛ وبذلك يتمكن من التأثير في تطوره الخاص به كشخص ، وهو ، بعد ، يستطيع الى حد قليل ان يؤثر على سيرورة التاريخ لأمته ومجتمعه ككل . وان الاستعداد للشعور بالذات ينطوي كذلك على قدرة الانسان على استعمال الرموز واستخدامها في تيسير مجرى حياته ، وان استخدام الرمز انما يعني اجتزاء شيء مما هو قائم وكائن ، ومثل على ذلك الصوتان اللذان يكونان الكلمة (منضدة) table . ومن ثم الاتفاق على ان هذين الصوتين يمثلان صنفاً كاملاً من الاشياء . لهذا فبإمكان الانسان أن يفكر بالمجردات تفكيراً تجريدياً . فهو

---

(١) شاعر اميركي عاش في القرن التاسع عشر ، كان يعرف بـ (نصير الرجل العادي) (المترجم)

يستطيع ان يتصور (الجمال) beauty ، و(العقل) reason ، و(الخير) goodness . . . الخ .

هذا الاستعداد للشعور بالذات واحساسنا بذواتنا يمنحنا القدرة على ان نرى ذواتنا كما يرانا الآخرون ، ونستطيع بذلك على ان نتعاطف مع الآخرين . انه يشكل الأساس لاستعدادنا الرائع في أن نضع انفسنا في اهاب غيرنا وان نفكر اين سنحل في الاسبوع التالي مثلاً ، وانْ نتصور وأن نفكر وان نخطط كيف سنعمل وماذا نعمل . انه يمكننا من أن نتصور أنفسنا لو اننا كنا مكان الشخص الآخر فكيف نشعر وكيف نعمل . انه يمكننا من الحس الأخلاقي ، ورؤية الحقيقة ، وابداع الجمال ، واخذ انفسنا بالمثل العليا ، والتضحية من اجلها اذا ما دعت الحاجة واقتضت الضرورة .

ان تحقيق هذه الامكانات الكائنة بالفعل انما تقيم البرهان على كينونتك كشخص ، وهذا هو ما يراد به في الاقوال التي جاءت بها الأديان السماوية بأن الانسان قد خلق على صورة الله .

لكن هذه المواهب تتأتى وثمنها باهظ قط ، ثمنها هو القلق والتأزمات النفسية الداخلية للفرد . فولادة الذات ليست بسيطة ولا هي بالأمر الهين اليسير . ذلك لأن الطفل يشعر الآن بأنه يواجه المرتقب المخيف من أنه سيكون وحيداً ، فرداً ، ومن غير حماية كافية تقيه من قرارات أبويه . فلا عجب من أنه يشرع يحس بذاته انه كيان وله هويته القائمة بذاتها ، يمكن أن يشعر بأنه بفظاعة ضعفه وأنه لا قوة له بالمقارنة مع الكبار العظام الأقوياء المحيطين به . وفي خضم كفاح التخلص من اعتمادها على أمها ، رأت انسانة هذا الحلم الواضح : (كنت راكبة في قارب صغير مربوط الى زورق كبير . كنا في عرض المحيط وقد أقبلت امواج ضخام ، فأحدقت بقاربي من كل جانب . وتساءلت مندهشة ما اذا كان قاربي لا يزال مربوطاً الى الزورق الكبير) .

إن الطفل المحبوب والمسند من أبويه ولكنه لم يعامل منهما برفق ، يستمر في نموه وفي تطوره رغم ما يساوره من قلق ورغم التأزمات التي تـواجهه . ولعله لا تكون هناك علامات بادية عليه تدل على الصدمـة او على التمـرد الخاص من جانبه . ولكن عندما يستغل الأبوان شعورياً او لا شعورياً ـ عن دراية او عدم دراية ـ طفلهما لغاياتهـما الخاصـة دونما التفـات الى احاسيسـه وطفولته ، او حينما يكرهانه او يرفضانه ، بحيث لا يسعه أن يجد لديهما أدنى قدر ممكن من الدعم عندما يحاول ان يجرب استقلاليته الجديدة ، فإن الطفل في هذه الحالة سيعبر عن استعداده للاستقلال بأشكال شتى منها مثلاً السلبية والعناد . واذا هو بدأ يقول (لا) مثلاً فقد يعمد الأبوان الى ضربه ، وهو عند ذاك سيكرر (لا) ، ليس من قبيل اظهار القوة الاستقلالية الحقيقية ، ولكن لمجرد التمرد .

ولا ينبغي لنا أن نغفل لحظة واحدة حقيقة أن الذات انما هي دائماً تولد في سياق اجتماعي . فمن الناحية التكوينية نجد أودين[٢] على صواب تام حين يقول :

انما الذات تبقى حلماً
حتى تقيض الحاجة لها جواراً
بالاسم يدعوها لتكون .

وكـما قلنا من قبـل ، ان النفس دائماً تـولد وتنمـو وتتطور في نـطاق العلاقات الشخصية المتفاعلة . بيد أن (الأنا) ego لا تتحرك باتجاه الذاتية المتفردة المسؤولية إن هي بقيت أساساً مجرد انعكاس للسياق الاجتماعي المحيط بها . فالأنا يجب ان تجرب ذاتها في سياق التفاعل وفي إطار كينونتها لتكشف عن مقدار ابداعها . ان القول بالزام الذات بوجوب الامتثال لتساير مقولة

---

(٢) سبقت الاشارة اليه في الفصل الثاني ، وقوله هذا جاء في الصفحة (٨) من كتابه المذكور هناك (عصر القلق) The Age of Anxiety وكثيرون يعدون أودين خليفـة للشاعـر ت. س. اليوت . (المترجم) .

(ليكون المرء محبوباً) ، كل هذا يفضي الى الحاق الأذى بتطورها ، ما لم يكن المعيار الحقيقي لنموها التفاعل على وفق ضوابط تتيح لها كيفية النمو والنماء حسب السياقات الاجتماعية ولكن من غير الحيلولة دون الكشف عن ابداعاتها .

ففي ذات اليوم الذي كنت أدوّن فيه هذه الملاحظات ، ذكر لي طبيب مقيم شاب في الجلسة التحليلية النفسية له ، حلماً مساوياً تقريباً من حيث الجوهر لأحلام كل امرىء يواجه معضلة ابّان نموه . فهذا الشاب كان قد أتى اليّ من اجل مساعدته نفسياً وهو طالب طب ، وكان يومها يعاني من قلق حاد مزمن وكان على وشك ان يفصل من مدرسة الطب . وكانت مشكلاته تعزى بصورة أساسية الى علاقته الحميمة بأمه ، وهي بدورها امرأة جد قلقة وغير متزنة ، لكنها امرأة قوية ومسيطرة . فهو ، وقد أنهى دراساته الطبية الآن وأصبح مطبقاً ناجحاً ، قد تقدم بطلب لإقامة ذات مسؤولية كبرى في المستشفى للعام التالي . وفي اليوم السابق لليلة التي رأى فيها ذلك الحلم ، كان قد تلقى رسالة من مدير المستشفى تتضمن الموافقة على منحه الاقامة مع اشادة بعمله المتميز خلال فترة تطبيقه التي كان قد أمضاها في المستشفى من قبل . وبدلاً من أن يكون مسروراً بمضمون الرسالة ـ فإنه تعرض فجأة الى نوبة من القلق هاجمته . والحلم هو الآتي كما دونه بكلماته :

كنت منطلقاً على دراجتي الهوائية ميمماً
بيت طفولتي حيث كان يسكن أبي وأمي .
كان المكان يبدو جميلاً . وعندما دخلت ،
شعرت بأني طليق وأني ذو قوة ،
كما انا في حياتي الحقيقية الآن ، وليس
كما كنت صبياً أيام زمان . غير أن
أمي وأبي لم يعرفاني . وكنت وجلاً
من الإعراب لهما عن استقلاليتي

خشية أن يطرداني . فأحسست أني
وحيد فريد ، وكأني في القطب الشمالي ،
ولم يكن ثمة بشر حولي سوى ثلج وجليد
يمتد آلاف الأميال . تجولت في ارجاء البيت ،
وكانت هناك معلقة ، في الغرف المختلفة ،
لافتات مكتوب عليها : (امسح قدميك) ،
(نظف يديك) .

بعد ان منح الطبيب المطبق المنصب المطلوب ، يشير القلق لديه الى أن هناك شيئاً معيناً يكمن فيه ، أو يكمن في المسؤولية التي ينطوي عليها ذلك المنصب ، شيء قد اخافه اشد الخوف ؛ ثم ان الحلم يكشف لنا ، اذا كان حقاً هو شخصاً مستقلاً في الرأي ـ مقابل كونه صبياً مشدوداً الى اذيال أمه ـ فلماذا يخشى النبذ من اسرته ، فيحس بالعزلة والوحدة ! وان الصور الأخاذة المحددة عى لافتات (امسح قدميك) ، (نظف يديك) ، لهي صور تضيف هامشاً مفسراً آخر يقول : ان المسكن هو اشبه بمخيم عسكري وليس بيتاً ينعم فيه بالمحبة قط .

والسؤال الحقيقي الذي يواجه هذا الشاب هو ، بطبيعة الحال ، لماذا حلم بالذهاب الى البيت ـ فما هي الحاجة في قرارة نفسه والتي دفعته الى العودة الى أمه وأبيه ـ والى البيت الذي صوره في الحلم بأنه ظاهرياً جميل ، وكل ذلك حدث بعدما تمت مواجهته بالمسؤولية ؟ هذا سؤال سنتناوله فيما بعد . دعنا هنا فقط نؤكد كيف ان الشخص لكي يصبح شخصاً ، ولكي يكون كينونة قائمة بذاتها ، انما يكوّن مجمل التطور الأصلي الذي يبتدىء معه منذ الرضاعة ويستطرد حتى سن الرشد ، بغض النظر عن العمر الذي يمكن ان يبلغه المرء ؛ وان التأزمات التي ينطوي عليها عمره تسبب له قلقاً جسيماً . فلا عجب من أن كثيراً من الناس والأشخاص يكبتون ما لديهم من الصراع ويحاولون طيلة أيام حياتهم الهرب من القلق !

فماذا يعني ان يجرب المرء ذاته كذات ؟ ان تجربة هويتنا الخاصة بنا هي الإيمان الأساسي الذي منه نشرع بالاحساس بأننا كائنات حقيقية نفسية . اذ لا يمكن ابداً ان تتم البرهنة على ذلك بالمعنى المنطقي[٣] وحده . ذلك لأن الشعور انما هو (مسلمة) Presupposition في أية مناقشة تجري بشأنه . ويمكن دائماً أن يكون هناك عنصر من الغموض في ادراك أي امرىء لحقيقة وجوده ـ وكلمة (غموض) تعني هنا مشكلة حقائقها تتخطى حدود المشكلة نفسها وتطغى عليها . ذلك لأن ادراكاً كهذا هو بمثابة (مسلمة)[٤] للبحث في ذات المرء . ان ما أرمي اليه هنا هو : فحتى تأمل المرء هويته والتمعن فيها كذات انما يعني ان المرء هو مسبقاً منشغل بوعي ذاته والشعور بها .

وبعض النفسانيين والفلاسفة يشككون بشأن مفهوم الذات . وهم لذلك يجادلون به لأنهم لا يحبذون فصل الانسان عن السلسلة المتصلة Continuum بالحيوان ، وانهم يعتقدون ان مفهوم (الذات) يعترض سبيل التجريب العلمي . غير ان رفض مفهوم (الذات) على انه (غير علمي) لمجرد انه لا يمكن اخضاعه الى المعادلات الرياضية هو بوجه عام رأي يضارع المماحكة التي كانت قائمة منذ عقدين أو ثلاثة عقود خلت والتي كانت تذهب الى أن نظريات فرويد ومفهوم الدوافع (اللاشعورية) ، كانت كلها (غير علمية) . فذلك رفض غير مسوغ علمياً . وانه لعلم دفاعي وتعسفي ـ وانه لذلك ليس بالعلم الصحيح ـ ذلك الذي يستخدم طريقة علمية معينة وفق نهج قسري[٥] يرفض كل اشكال الخبرة الانسانية التي لا تتواءم وما يريد الناقد نفسه .

---

(٣) المقصود هنا هو ان الاحساس النفسي بالذات يعد هو البرهان على كينونتها . (المترجم) .

(٤) المسلمة بمعناها الفلسفي نالت قسطاً من البحث والتصنيف من لدن فلاسفتنا ومفكرينا امثال الجرجاني وابن سينا . (المترجم) .

(٥) آثرناها ترجمة للتعبير Procrustean bed الذي بمعناه الحرفي يعني فراش بروكر ستيز ، وبروكر ستيز هذا كان لصاً اغريقياً اسطورياً يمد ارجل ضحاياه ويقطعها لتتناسب وحجم الفراش ، لذلك ذهب عمله هذا مثلاً يضرب ويراد به احداث التناسب بصورة تعسفية واعتباطية ومن غير منطق يدعمها. (المترجم) .

لا حاجة بنا تدعونا الى البرهنة على أن الذات انما هي (موضـوع) objet . انها كائنة . انها موجودة . انه فقط لمن الضروري ان نوضح كيف ان لـدى النـاس الاستعـداد للتـواشـج الـذاتي Self-relatedness وللتـواصـل والانتماء . الذات هي الوظيفة التنظيمية داخل الفرد ، وانـه بواسـطة هذه الوظيفة يصبح بمقدور الكائن البشري ان يتواشج مع غيره من بني الانسان . ان الذات قبلية prior to ، وليست شيئاً من مواضيـع علمنا المـادي ؛ انها متضمنة في الحقيقة القائلة ان باستطاعة المرء أن يكون عالماً .

ان الخبرة الانسانية تتعدى دائماً طرائقنا الخاصة لفهمها في أيـة لحظة محددة . وأفضل طريقة للمرء لكي يفهم هويته كذات هي ان يمحص خبرته وتجربته الخاصة به . دعنا مثلاً نتخيل الخبرة الداخلية لمختص بعلم النفس او الفلسفة وهو يزمع كتابة بحث ينكـر فيه مفهـوم الشعور بـالذات . واثنـاء الاسابيع التي كان يفكر فيها بكتابة البحث ، فإنه لا ريب كان يتصور نفسه في يوم لاحق جالساً الى مكتبه وهو يكتب . ومن حين لآخـر ، ولنقل ، قبـل الشروع الحقيقي في الكتـابة ، وبعيـد جلوسه الى مكتبـه للبدء بـالعمل في البحث ، انه كان في خياله يفكر ملياً فيما يمكن ان يقوله زملاؤه عن البحث ، فيما اذا كان الاستاذ سيثني عليه ، أو فيما اذا كان زملاء آخرون سيقـولون (ما اروع هذا !) ، وربما يحسبه آخرون مملاً ، وهلم جرا . ففي كل فكرة من افكاره هذه يرى هويته بوضوح محدداً كما لو كان يرى زميلاً يسير عـبر الشارع . فهو في كل فكرة أثناء عملية النقاش الذاتي لدحض الشعور بالذات انما هو في الواقع يبرهن على هذا الشعور في ذاته .

يقيناً ان شعور المرء بهويته كذات ليس بفكرة عقلية . وكان الفيلسوف الفرنسي ديكارت منذ ثلاثة قرون مضت ، قد دلف الى قرب موقده ، حسبما تذكر الاسطورة ، ليتأمل في عزلته طيلة نهار كامل محاولاً إيجاد مبدأ أساسي وجوهري لوجود الانسان . وفي المساء خرج من عند موقده باستنتاجه المعروف (أنا أفكر ، اذن ، فأنا موجود) . وبعبارة كان يريد ان يقـول انا مـوجود

كذات لأنني مخلوق مفكر . بل بالأحرى اننا نتصور ذواتنا فأنت وانا لا نفكر بذواتنا فنعتبرها فكرة . بل بالأحرى اننا نتصور ذواتنا بأننا نقوم بعمل شيء ما ، مثلنا في هذا مثل النفساني الذي كان يزمع اعداد بحثه المذكور من قبل . اننا نقوم بالعمل ومن ثم نجرب بالخيال الأحاسيس التي ستساورنا عندما نكون فعلاً منهمكين في اعداد ذلك الشيء والقيام بعمله . اريد القول ، اننا نجرب كوحدة مفكرة ـ حادسة ـ شاعرة ـ عاملة : a tshinking- intuiting- Feeling and acting unity . فالذات لذلك ليست مجموع ما يلعبه المرء من (ادوار) متعددة ـ بل هي الاستعداد الذي به يعرف المرء أنه يضطلع بهذه الأدوار ؛ انها المركز الذي منه يكون بوسع المرء أن يرى ويعي الجوانب المختلفة من ذاته .

بعد هذه العبارات التي ربما تكون طنانة ، دعنا نذكّر أنفسنا انه بعد كل خبرة للمرء بهويته الخاصة او تجربته في أن يكون شخصاً ذا كيان ، هي أبسط خبرة في الحياة حتى وان كانت في الوقت ذاته أعمق خبرة . وكما يعرف كل واحد منا ، فإن الطفل يرد عادة بسخط وبعنف ، اذا انت ، من باب الاغاظة ، ناديته بالاسم الخطأ . فكأنك قد جردته من هويته ـ وهي أغلى ما تكون عليه . وفي العهد القديم Old Testament هناك عبارة تقول : (سأمحو أسماءهم) I Will blot out their rames ـ أي اطمس هويتهم وستكون النتيجة كأنهم لم يكونوا قد وجدوا من قبل ـ انها لعبارة تعني تهديداً أقوى بكثير من الموت الطبيعي .

ضربت بنتان صغيرتان توأمان ، مثالاً حياً على أهمية الكيفية التي تصبح فيها الطفلة شخصية على وفق سجيتها وحسب طبيعتها . وكانت البنتان الصغيرتان صديقتين حميمتين ، وهي حقيقة أصبحت ممكنة بشكل خاص لأنهما كانتا تتبادلان الاطراء . كانت احداهما انبساطية المزاج فكانت دائماً تتوسط الجمع من الناس الذين يزورون بيتهما . وكانت الأخرى مرحة وتسعد كثيراً عندما تخلو الى نفسها ، ترسم بأقلامها الملونة او حينما تحاول كتابة

الشعر . وكان ابواهما ، كوالدين يعنيان بوجه عام بتوأمين ، يلبسانهما ذات الملابس عندما يخرجون للتنزه . عندما بلغتا حوالى الثالثة من العمر ، كانت البنت الانبساطية تحب دائماً ان ترتدي بدلة تختلف عن النوع واللون الذي ترتديه أختها . وكانت تعمد ، اذا اقتضت الضرورة ، الى ان ترتدي بدلة أقدم من تلك التي ترتديها اختها ، واقل جاذبية لكي لا تبدو انها نفس البدلة التي ترتديها أختها التوأم . وكانت الانبساطية منهما تعمل كل ما في وسعها بأن لا تلبس أختها نفس الملابس عندما تخرجان من البيت ، الأمر الذي حيّر الأبوين . وبحنان الوالدين سألا ابنتهما الصغيرة هذه : (الا تحبان ان يقول الناس عنكما : انظروا الى هاتين البنتين الظريفتين ؟) ومباشرة وعلى الفور ردت البنت الصغيرة باندهاش : (لا ، انا اريدهم يقولون : انظروا الى هذين الشخصين المختلفين !) .

هذا الاندهاش التلقائي ، يكشف بوضوح شيئاً بالغ الأهمية بالنسبة للبنت الصغيرة تلك ، لا يمكن القول عنه بأن الطفلة كانت تحب انتباهاً ؛ ذلك لأنها كان يمكنها ان تحظى بانتباه أوفر لو انها ارتدت رداء التوأم الأخرى . بل ، بالأحرى ، ان (اندهاشها ذاك) كان يكشف عن حاجتها اى أن تكون شخصاً له كيانه كما هي على حقيقة ، بأن تكون لها هويتها الشخصية الخاصة بها ـ انها حاجة بالنسبة اليها اكثر اهمية من الانتباه والاهتمام والمكانة في نفس الأبوين .

لكل كائن عضوي حاجة اساسية ، تلك هي أن يحقق طاقاته الكامنة فيه الكائنة بالفعل (بالقوة) Potentialities . فجوزة البلوط تنمو فتغدو شجرة بلوط ، والجرو يصبح كلباً ويوطد علاقات مودة وولاء مع أسياده من بني الانسان ؛ وهذا هو كل المطلوب من شجرة البلوط والمنتظر من الكلب . غير ان مهمة الكائن البشري في تحقيق ذاته وفي تحقيق طبيعته هي اشد تعقيداً الى حد بعيد ، ذلك لأنه يتعين عليه ان ينجزها في حالة **شعور بالذات** . بعبارة أخرى ، ان تطوره لا يتم بشكل آلي ولكن ، والى حد ما ، يجب ان

يتم اختياره لنموه وتوكيده من جانبه هو . وكان جون ستيوارت مل[٦] J.S. Mill قد كتب بهذا الصدد يقول : (ان من بين المهام التي تتولاها حياة الانسان بالتتميم والتجميل على الوجه الصحيح ، والأهمية الاولى على وجه التأكيد ، هو الانسان نفسه . . . فطبيعة الانسان ليست بماكينة يتم بناؤها وفق نموذج معد مسبقاً لكي تقوم بدقة بالعمل المرسوم لها ، ولكنها ـ طبيعة الانسان وحياته ـ شجرة ، تتطلب ان تنمو وتطور نفسها بنفسها من جميع الجوانب ، طبقاً لنزعة القوى الداخلية فيها التي تجعل منها شيئاً حياً) . بهذه الفكرة المعبر عنها تعبيراً جذاباً ، كان جون ستيوارت مل للأسف قد أغفل ان الانسان لا ينمو بصورة آلية كما تنمو الشجرة ، بل هو يحقق طاقاته الكامنة على النحو الذي هو عليه في شعوره الخاص فيخطط ويختار وينشط ويعمل بوعي .

لحسن الحظ ان امتداد فترة الرضاعة وطول فترة الطفولة في حياة الانسان تهيء الطفل لمهمات صعبة في حياته المرتقبة . فحياة الانسان على النقيض مما هي عليه الحال في جوزة البلوط التي تعنى هي بنفسها حالما تسقط فوق التربة ، أو في حالة الجرو الذي عليه ان يهتم بنفسه بعد اسابيع قليلة من ولادته . فحياة الانسان مهيأة لغير ما هي مهيأة لها بقية المخلوقات الأخرى . الانسان يعمل ويسلك بفعل ما هو كامن فيه من طاقات ذاتية .

والانسان ، فضلاً عن ذلك ، يجب عليه ان يقوم باختياراته كفرد ، لأن التفردية لديه تمثل احد جوانب شعور المرء بذاته . وبوسعنا ان نرى هذه النقطة بوضوح عندما ندرك ان شعور المرء بذاته هو دائماً عمل فريد ـ فأنا لا أعرف على وجه الدقة كيف ترى أنت ذاتك ، ولا أنت ابداً تعرف بدقة كيف انتسب انا الى ذاتي . فهذا المستكن الذي يجب ان يقف فيه كل انسان بمفرده ، ان هذه الحقيقة بعينها تتسبب في كثير من المأساة وفي كثير من العزلة

---

(٦) عالم اقتصاد انكليزي عاش في القرن التاسع عشر ، كان يدعو الى الحرية الفردية والأخذ بمذهب المنفعة . (المترجم) .

التي لا مفرّ منها في حياة الانسان ؛ لكنها مع ذلك تدلنا على مواطن القوة فينا لمواجهة ما يجبهنا من مشكلات ولنتحرى حقائق القوة فينا ، وانه يتعين علينا ، من خلال توكيد ذواتنا ، أن نتعلم محبة بعضنا بعضاً .

اذا أخفق أي كائن عضوي في تحقيق طاقاته الكامنة فيه ، فإنه يصبح مريضاً ، شأنه في هذا تماماً شأن ساقيك اذ تضمران اذا انت لم تمارس المشي . غير ان قوة ساقيك ليست هي كل ما يمكن ان تفقده ، اذ يتبع ذلك ضعف تدفق دمك وقلة دورانه في الجسم ، وبطء عمل قلبك ، وان تكوينك الكلي يصبح الأضعف . وبالطريقة ذاتها ، فإن الانسان اذا هو لم يتمكن من تحقيق طاقاته الكامنة فيه كشخص ، فإنه يصبح بذلك عديم القدرة محدوداً ومريضاً . وهذا هو جوهر العصاب ـ فالشخص المعطّل الطاقات ، المعرقل بظروف مضادة له في بيئته الماضية منها والحاضرة ، والمغرق بصراعاته الداخلية فإنه ينكفىء على ذاته ويتسبب له مرض رهيب . وكان وليم بليك(٧) W. Blake قد كتب يقول : (الطاقة هي بهجة خالدة سرمدية ، ومن كان يرغب في شيء ولكنه لا يعمل من اجله ، فإنه يستجلب لنفسه وباء pestilence) .

كان كافكا(٨) Kafka بارعاً في تحديد معالم الصورة المخيفة للناس الذين لا يستعملون طاقاتهم الكامنة فيهم مما يفقدهم بالتالي احساسهم بهوية شخصياتهم كذوات لهم كيانهم . فالشخصية الرئيسية في مسرحيتي (المحاكمة) The Trial ، و(القلعة) The Castle ، جاءت غفلاً من الاسم ـ اذ تم تعريفها فقط بحروف اولية . انها شخصية رمز أصم لرجل ينقصه الكيان المقتضى له على وجهه الصحيح . ففي قصته الرمزية المرعبة (المسخ) metamorphosis ، يوضح كافكا ما يحدث للكائن البشري عندما

---

(٧) شاعر ورسام انكليزي عاش في القرن التاسع عشر ، اتسمت اعماله بالطابع الرمزي . (المترجم) .

(٨) روائي نمساوي توفي في العشرينات من هذا القرن ، تميزت اعماله بتصوير قلق الانسان الحديث . (المترجم) .

يفقد طاقاته . وبطل هذه القصة نموذج لرجل شاب عصري مفرغ من محتواه ، يعيش حياة رتيبة ، حياة خاوية ، حياة ملاح ، يعود بانتظام الى بيته ، من بيوت الطبقة المتوسطة ، ويتناول كل يوم احد نفس وجبة الطعام المؤلفة من لحم البقر المحمّر في حين ينام ابوه على الطاولة . كانت حياة ذلك الشاب . كما يشير كافكا الى ذلك ، حياة خاوية تماماً تتسم بالجفاف ، بحيث انه عندما استيقظ ذات صباح لم يجد نفسه كائناً بشرياً ، بل صرصوراً Cokroach ، ولأنه لم يتمكن من تحقيق مكانته كإنسان ، لذلك فإنه قد فقد طاقاته الانسانية الكامنة . والصرصور ، شأنه شأن الحشرات الأخرى ، يعيش عالة على الفضلات وعلى ما يعافه الآخرون . انه طفيلي ، وهو في اذهان كثير من الناس رمز للقذارة والاشمئزاز . أيمكن أن يكون هناك ما هو اكثر من هذا رمزية لما يحدث للكائن الانساني عندما يفتقد طبيعته أو يتخلى عنها كشخص ؟

اننا بمقدار ما نستطيع تحقيق طاقاتنا الكامنة فينا ، نكون بذلك قد جربنا أعمق ضروب المتعة التي هي من موروثات الكائن البشري . فحين يتعلم الطفل مثلاً المشي ويحاول ارتقاء السلم او رفع صندوق ، فإنه يحاول ذلك المرة تلو المرة ، فينهض حيناً ويسقط على الارض احياناً ، ويعاود محاولاته تلك مرات ومرات . وعندما ينجح بعدئذٍ فإنه يضحك ضحكة الرضى ، وهي ضحكة تمثل تعبيره عن بهجته باستخدامه طاقاته . لكن بهجة الطفل هذه ومتعته لا تعد شيئاً بالمقارنة مع بهجة المراهق الهادئة حينما يجد نفسه وقد استخدم طاقاته البازغة لتوهاالجديدة في كسب صديق ، أو متعة الراشد حين يستعمل طاقاته من اجل الخير والتخطيط والابداع . البهجة ، وليست السعادة ، هي هدف الحياة ، ذلك لأن البهجة هي الانفعال المصاحب لعملية تحقيقنا لطبائعنا كوننا كائنات بشرية . انها تمنح الفرد تجربة التحقق عن هويته ككائن له اعتباره وكرامته ، كائن قادر على توكيد كينونته ، واذا اقتضت الحاجة ، توكيدها وفرضها على جميع الكائنات العضوية في هذا العالم . ان

هذه الطاقة بشكلها المثالي تبدو واضحة في حياة سقراط الذي كان من الثقة بنفسه وبقيمه بحيث انه لم يجعل من الحكم عليه بالموت هزيمة وانما عدّه انجازاً أعظم من المساومة على معتقداته .

ازدراء الذات تعويض عن اعتبار الذات

يتعين علينا هنا ان نتريث لنجيب على اعتراضين . فبعض القراء قد يفكرون بأن هذا التأكيد على ضرورة الشعور بالذات وقيمته سيجعل الناس شديدي الاهتمام بذواتهم اكثر مما ينبغي . ولعل أحد الاعتراضين يذهب بالمرء الى ان يصبح اشد استبطاناً[٩] لذاته وبذاته ، وقد يحمل الآخر منهماالفرد على الزهو والتفاخر والمفاخرة بذاته . والأشخاص الذين يتبنون الاعتراض الأخير هذا قد يثيرون الاسئلة الآتية : (أما قيل لنا بالاّ نحسن الظن بأنفسنا اكثر مما ينبغي ؟ وهلا ثمة المناداة بأن تفاخر الانسان بذاته هو أساس معظم الشرور في وقتنا هذا ؟) .

دعنا الآن نبحث الاعتراض الأخير ونتمعن فيه اولاً . فمن المؤكد انه لا ينبغي للمرء أن يغترّ بذاته أكثر مما يجب ، وأن التواضع المتسم بالشجاعة انما هو امارة تدل على ان الشخص واقعي وناضج . لكن اغتراره بذاته اكثر مما ينبغي ، الى حد تضخيم الذات Self-inflation والعجب[١٠] بها ، لا يتأتى من اعماق الشعور لدى المرء بشأن اعتبار الذات . انما هو يتأتى في الواقع من مصادر هي عكس ذلك تماماً . اذ ان تضخيم الذات والاعجاب بها والغرور

(٩) الاستبطان بمعناه الواسع منهجية بحث في علم النفس وبمعناه الضيق انشغال الفرد بذاته انشغالاً نرجسياً ، وقلقه عليها من غير وقائع موضوعية . (المترجم) .

(١٠) بضم العين وسكون الجيم . (المترجم) .

انما هي علامات خارجية تدل بوجه عام على الخواء الداخلي وتدل على الشك اللاشعوري بقدرة الذات . فإظهار علائم الفخر والتيه والغرور هي من اكثر ضروب التغطية شيوعاً للتعبير عن القلق . كان التكبر والتفاخر من انواع السمات الرئيسة لما ساد هناك من صخب واسع عمّ العالم في العشرينات من هذا القرن ، ولكننا لا نعجب كثيراً اذا ما عرفنا ان هذه الفترة كانت احدى فترات القلق الضارب اطنابه المكبوت الذي تغلغل الى نفوس الناس . مما يجعل كل واحد يدعي ما ليس فيه . فالشخص الذي يشعر في قرارة نفسه انه ضعيف يبدو متنمراً ، والفرد الذي يشعر بالنقص يغدو متبجحاً متنفجاً ، والانسان ذو العضلات الرخوة تراه يثرثر كثيراً مدعياً القوة ، والذي يحس بالقصور تجده يظهر الانتفاخ نافشاً ريشه ، ويحاول جاهداً التعبير عن ذلك بصفاقة ؛ وهذه كلها اعراض تكشف عن قلق خفي دفين لدى فرد معين او جماعة معينة . ان الافراط في التفاخر والاعتداد بالنفس قد كشف عن نفسه في النزعة الفاشية ، كما يعرف ذلك كل من شاهد صوراً لموسوليني المختال ولهتلر السيكوباتي . والفاشية بحد ذاتها هي نمو لدى الناس الذين هم في دواخلهم خاوون ، قلقون ، يائسون ، لذلك فإنهم يتشبثون بأوهام هوس العظمة[11] .

ولندفع بهذا السؤال أبعد ، فنقول : ان كثيراً من المجادلات في وقتنا الحاضر انما هي موجهة ضد تباهي المرء بذاته ، وإن كثيراً من المواعظ الموجهة الى ما يسمى بـ (نكران الذات) ، تنطوي على دوافع تختلف تمام الاختلاف عن التواضع او المواجهة الشجاعة لموقف انساني يتصدى له المرء . ان كماً هائلاً من هذه المجادلات تكشف ، مثلاً ، عن قدر جم من الازدراء للذات . وقد كتب الدوس هكسلي[12] A. Huxley يقول : (ان اجف وأقتل حياة بالنسبة لنا جميعاً ، هي تلك التي نحياها في دواخل ذواتنا) .

---

(١١) مرض عقلي يغالي المريض به في تقديره لذاته والمغالاة في اهميته وقدراته . (المترجم) .

(١٢) روائي وناقد انكليزي (١٨٩٤ ـ ١٩٦٣) . (المترجم) .

ولكن ، ولحسن الحظ ، يمكننا التعليق على ذلك على الفور ، فنقول من الواضح أن هذا التعميم ليس صحيحاً ، فمن الوجهة التجريبية ليس من الحقيقة في شيء أن تكون أجف واقتل الساعات في حياة سبينوزا تلك الساعات التي أمضاها مختلياً الى ذاته يفكر ويبحث ، ولا هي ابداً كذلك بالنسبة الى ثورو[١٣] Thoreau أو اينشتاين[١٤] Einstein او المسيح من قبل ، او حتى بالنسبة الى كثيرين من الكائنات الانسانية ممن لم تكن لهم شهرة مهما كان نوعها ، لكن الواحد منهم غامر واقتحم ، على حد قول كيركجارد ، ليصبح مدركاً لذاته وعلى وعي بها .

ان ما تقدم ينتهي بنا الى أهم نقطة في فهم ديناميات كثيرة من دينونة الذات في الوقت الحديث ، أي ان ادانة انفسنا هي اسرع سبيل للظفر بمعنى لإعتبار الذات . فالناس الذين تقريباً ، وليس تماماً ، فقدوا احساسهم بالاعتبار تتكون لديهم بوجه عام حاجات جد قوية لإدانة ذواتهم ، لأن ذلك هو أسلم طريقة جاهزة لديهم للتخلص من الألم الموجع المرير لمشاعر الاحساس بالتفاهة والذلة . فكأن الشخص يقول لنفسه : (يجب ان اكون مهماً لذلك فأنا جدير بالاهانة) ؛ أو لعله يقول : (انظر كم انا نبيل ، ولدي مُثل عليا ، ومع ذلك فأنا خجل من نفسي ، لأنني مقصر) . وكان قد علّق احد المحللين النفسانيين تعليقاً معبراً ، اذ قال : عندما يوبخ امرؤ ما ذاته توبيخاً كثيراً من اجل خطيئة تافهة فإن هذا من وجهة التحليل النفسي يعني وكأنه يسألك : (من تفتكر ان تكون أنت ؟) . ان الشخص حين يحكم على ذاته بدينونة الذات انما يحاول في الغالب ان يظهر كم هو مهم بحيث ان الله منشغل بعقابه ومهتم به .

---

(١٣) هنري دايفيد ثورو كاتب وشاعر اميركي عرف بمقاومته الشديدة للاسترقاق عاش في القرن التاسع عشر . (المترجم) .

(١٤) البرت اينشتاين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥) فيزيائي اميركي ، صاحب نظرية النسبية ، منح جائزة نوبل في الفيزياء . (المترجم) .

لهذا فإن كثيراً مما يدخل في دينونة الذات يعد غطاء للعجرفة ، وان اولئك الذين يظنون أنهم يقهـرون التعالي ويتغلبـون عليه بـدينونـة الذات يستطيعون ان يتأملوا ملياً تعليق سبينوزا ، اذ يقول : (المرء الذي يزدري ذاته هو الأقرب الى ان يكون انساناً متعالياً) . وعندما كان السياسي أيام أثينا القديمة يحاول كسب أصوات الطبقة العاملة عن طريق ظهوره بمظهر المتواضع جداً كان يسير مرتدياً معطفاً ممزقاً تخترقه ثقوب كثيرة ، فكان سقراط يفضح نفاقه هذا بأن يصرخ في وجهه بقوله : (ان غرورك يكشف عن نفسه في كل ثقب من ثقوب معطفك) .

ان كثيراً من اواليات (ميكانزمات) دينونة الذات هذه في وقتنا الراهن يمكن ملاحظته في الكآبات النفسية . فالطفل الذي يشعر ، مثلاً ، انه غير محبوب من أبويه ، يمكن ان يردد مع نفسه دائماً : (لو كنت مختلفاً ، لو أنني لم اكن سيئاً ، لأحباني) . وبهذه الوسيلة فإنه يتجنب مواجهة القـوة كاملة ، ويتفادى كل الرعب المتمثل في ادراكه بأنه غير محبوب . وكذا الأمر ايضاً مع الكبار : فهم اذا استطاعوا ادانة ذواتهم فلا يحتاجون في الواقع الى الاحساس بألم عزلتهم وخوائهم ، وانهم يستطيعون عند ذاك القـول : (لو لم اقـترف الخطيئة كذا وكذا ، او لولا العادة السيئة كذا ، لكنت محبوباً) .

التأكيد على دينونة الذات في عصرنا هذا ، عصر النـاس الخاوين في دواخلهم ، هو اشبه بالهاب ظهر حصان مريض بالسـوط لكي يحقق سيراً أسرع ؛ انه قد يؤدي ذلك مؤقتاً لكنه سرعان ما ينهار . وكذلك الأمر بالنسبة للبشر . اذ ان ادانة الذات كبديل لاعتبار الذات وكرامتها ، انما يهيء للفرد وسيلة يتجنب بها مواجهة كريمة لمشكلات العزلة والتفاهة ، ويخلي السبيل الى شبه تواضع ، بدلاً من التواضع الصادق الأمين الذي يجعل المرء يسعى الى مواجهة موقفه بصدق وواقعية ولكي يعمل على نحو بنّاء . يضاف الى هذا ، فإن بديل ادانة الذات يعطي الفرد تبريراً لكراهية الذات Self-hate ، وهذا يعزز في نفسه الميول باتجاه كراهية الذات . وهذا يستتلي كراهية ترسخ في

نفس المرء تكون موجهة نحو الآخرين . فكيف نتوقع ممن يكره نفسه ان يحب الآخرين ؟ فعندما تكون الذات طافحة بالكراهية من داخلها لذاتها ، فإن كراهيتها هذه سينال رشاشها غيرها . وذلك هو على النقيض من الذات الحافلة بالمحبة التي سيمتد فائض حبها هذا ليغمر غيرها من بني البشر .

انه لا يتعين علينا بعد الآن ، لحسن الحظ ، ان نحاجج في أن حب الذات Self-love ، انه ليس فقط ضرورة لازبة وانه خير كله ، ولكنه في الوقت عينه يعد من المتطلبات الأساسية لحب الآخرين . وحب الذات بالقدر المعقول يجب الا يبلغ مبلغ الافراط الذي يجعله أنانية . فيجدر التمييز بين حب ينبع من داخل الذات ليعم الآخرين وبين انانية اثرة ضارة بصاحبها وبسواه . ففي تحليله الحامل على الاقناع ، يذكر اريك فروم Erich Fromm في كتابه : **الأنانية وحب الذات** ، Selfishness and Self-love ، بوضوح تام أن الأنانية والافراط في الاهتمام بالذات يتأتيان في الواقع من كراهية الذات الداخلية . ويشير فروم الى أن حب الذات هو ليس فقط لا يشبه الأنانية ، ولكنه في الحقيقة نقيضه وعلى العكس منه ومغاير له . وبعبارة أخرى ، فإن الشخص الذي يشعر في قرارة نفسه بأنه عديم القيمة هو ذلك الذي يحس بأن عليه ان يبني ذاته عن طريق تفخيم الذات وتبجيلها تفخيماً أنانياً ، وبعكسه الشخص الذي لديه خبرة سليمة عن اعتبار ذاته الخاصة به ، اي الذي يحب ذاته بشكل سليم ، يتكوّن لديه أساس للعمل بسماحة وسخاء ازاء جاره والآخرين .

ولعل من المفارقات أن يقترن ازدراء الذات هذا بالتقدم الصناعي ، فأخذ الأفراد يشعرون بعدم اهميتهم في ذروة التطورات الصناعية في الفترة الحديثة . ان ازدراء الذات في القرن العشرين هذا لا ينبع فقط من النزعة الكالفينية[١٥] Calvinism ، ولكنها تنبعث ايضاً من مرض خوائنا . بيد أن

---

(١٥) مذهب كالفن اللاهوتي الفرنسي الذي عاش في القرن السادس عشر ، القائل ان قدر الانسان مرسوم قبل ولادته ، وقد نشر كالفن راية الاصلاح في فرنسا وسويسرا . (المترجم) .

ازدراء الذات ودينونة الذات لا ينبغي ان يحسب معياراً يقاس عليه عبر العصور ، ولا هو بالشريعة السماوية او مما تقره شرائع السماء . ولقد عبر كيركجارد عن ذلك بصورة مؤثرة حيث يقول :

فما لم يتعلم المرء من المسيحية
ليحب ذاته على النحو الصحيح ،
فلن يتمكن عندئذٍ من حب جاره . . . ان
حب المرء ذاته على النحو الصحيح ، وحبه
لجاره ، فإنما هما مفهومان متماثلان
بصورة مطلقة . . . ومن هنا فالقانون
هو : (ستحب نفسك كما تحب جارك
في حين تحبه كما تحب نفسك)[١٦] .

الشعور بالذات لا يعني الانطواء

الاعتراض الآخر الذي المعنا اليه من قبل ، يمكن أن يثير في ذهن القارىء اسئلة كهذه : (أما ينبغي علينا أن نحاول نسيان ذواتنا ؟ وان شعور المرء بذاته هلا يجعله يحس بأنه خجول ، وانه محرج ، ومحبط اجتماعياً ؟

انه لمن غير الملائم ابداً ان نقرن الشعور بالذات باستبطان يتسم بالقصور ، ألا وهو الخجل والاحراج . فمن الطبيعي ان آخر ما يتمناه المرء في هذا العالم هو ، اذن ، الشعور بالذات . ولعل للاختلاف بين اللغات نصيباً من حيث دقة التعبير عن مفهوم الشعور بالذات ومن حيث دلالته المنشودة .

---

(١٦) A. Kierkeguard: Anthology, Robert Bretall, Princeton, (1946) p. 289.

مثال نسوقه هنا سيوضح ان ما نتحدث عنه انما هـو مغايـر للخجل تماماً ، هو مناقض للاحراج والانطواء المشوه المخل . جاءني شاب من اجل العلاج النفسي ذلك لأنه ، وان كان من الناحية العقلية جد كفؤ وكان ظاهرياً يبدو عليه انه جد ناجح ، لكن تلقائيته كانت تقريباً معطلة . فما كان بإمكانه أن يحب أي واحد وانه لم يكن بمقدوره أن يستمتع استمتاعاً حقيقياً بالرفقة الانسـانية . هـذه المشكلات كـانت مصحوبـة لديـه بقدر كبـير من القلق والكآبات المتواترة . وكان من عادته الدائمة أن يقف خارج اطار ذاته ، ناظراً الى ذاته ، فلا يطلق ذاته على سجيتها ، حتى اصبح الاهتمام بالذات لديه شيئاً مؤلماً للغاية . فعند استماعه الى الموسيقى ، مثلاً ، كان كل اهتمامه ينصب على كيفية اصغائه بحيث انه لم يكن بمستطاعه سماع الموسيقى . وحتى في حالة اقامة تواصل انساني كان يحس بأنه يقف خارج نطاق ذاته ، يرقب ذاته وهو يتساءل : (كيف هو أدائي ؟) ونمط تفكيره هذا ، وكما هو متوقع ، قد اعاق اسلوبه في الحياة . كان خائفاً عندما أخضع للعلاج النفسي واكتشف انه يتعين عليه ان يعي ما يجري في داخل ذاته ، وانه يلزمه أن يكون اكـثر (شعوراً بذاته) ، الشعور الصحيح بالذات يعد دريئة للذات وحماية لها من الانزلاق الى مهاوي التشكيك بقيمتها كجوهر فعّال .

كان الفعل الوحيد لأبويه القلقين عليه ، انهما وفرا له الحماية اكثر مما ينبغي ، فما كانا مثلاً يخرجان ليلاً ، اذ كانا يترددان في تركه وحده . فالأبوان وان كانا ظاهرياً متسامحين وعقلانيين في كل تعاملهما مع الأبن ، فإنه طيلة فترة طفولته لا يتذكر انه جادلهما ولو مرة واحدة . وكـان الأبوان يتبجحـان أمام الأقارب بانجازاته في المدرسة ، فكانا مثلاً يقتطعان قصصات من الصحف تتحدث عن نجاحاته وكانا يفاخران بأنه اذكى من بني عمومته ؛ لكنهما كانا نادراً ما يعربان مباشرة عن حقيقة استحسانهما له . لهـذا فلم يكن بمقدوره كطفل أن ينمي في ذاته شعوراً خاصاً بقدرته على الاستقلال والاعتبار ؛ بل ركز اهتمامه البالغ على الثناء الذي كـان يكال لـه ، وكان اهتـمامه كـذلك

منصباً ، ولو بشكل غير مباشر ، على ما كان يحرزه من جوائز مدرسية . هذا فضلاً عما كان يسمعه احياناً ايام صباه من نقدات لاذاعة عابرة والتي قلّما يسلم انسان منها في الحياة . ولهذا فعندما بلغ مبلغ الرشد كانت حياته تشبه استمراره في اقتطاع قصصات من الصحف ، فكان يسعى جاهداً الى ان يجد تقديراً لذاته من مصدر يؤكد له ذاته كشخص . هذه صورة جد مبسطة بكل تأكيد ، وكل وكدنا هو أن نوضح ان الشعور المشوه للذات لدى هذا الشخص وعدم قدرته على أن يكون تلقائياً وصادقاً مع نفسه كانا من غير شك مرتبطين بنقص شعوره بذاته . اي ان شعوره بالنقص كان ناجماً عن عدم توظيف (الأنا) عنده بشكلها الفعال[١٧] . فمن المعروف في التحليل النفسي ان المرء حينها يكون مجرد (مراقب) لذاته ، وعندما يتعامل مع ذاته كشيء خارج عنه ، كل ذلك يجعله غريباً على ذاته هذه .

والشعور بالذات يوسع ، في حقيقة الأمر ، سيطرتنا عل معطيات حياتنا . وهذا يستجلب معه اتساع آفاق ثقتنا بأنفسنا . ويلي ذلك استعداداً لندع ذواتنا تنطلق على تلقائيتها . وهذه هي الحقيقة الكامنة وراء الرأي الذاهب الى انه كلما كان لدى المرء شعور بذاته اكثر ، كان في الوقت نفسه تلقائياً ومبدعاً على نحو أوفر .

والسؤال الماثل الآن كيف يحقق الانسان شعوراً بذاته بمرور الزمان ؟

احساس المرء بمشاعره

هناك من الناس مَنْ تسأله عن احاسيسه ومشاعره يجيبك إجابة لا تنطوي على معنى دقيق عما يحس به حقاً . فكأن يقول لك مثلاً إنه (رائع) أو

---

(١٧) المقصود ان ثقته بنفسه كانت انتزعت منه مبكراً من جراء الافراط في حمايته والمغالاة في اظهار القلق عليه . (المترجم) .

يرد عليك بـأنه (متقـزز) . وكل من الاجـابتين لا تعنيـان شيئاً وهمـا من الغموض كما في قولهم (الصين تقع في الشرق) . ان صلة هذا النوع من البشر بمشاعرهم هي من البعد كبعد خطوط الهاتف النائية ؛ فهم لا يشعرون مباشرة ولكنهم فقط يعبرون عن افكار حول مشاعرهم ؛ انهم ليسوا متأثرين بمؤثراتهم الحقة ؛ ان انفعالاتهم لم تحرك فيهم ساكناً ، شأنهم في ذلك شأن (الرجال الخاوين) الذين وصفهم اليوت بأنهم :

مظهر ولا مخبر ، وشكل ولا رونق
طاقة مشلولة ، حركة بلا حراك معلولة .

وفي العـلاج النفسي حين يتضـح لمثـل هؤلاء الأشخـاص انهم غـير متحققين من طبيعة مشاعرهم ، فإنه يتعين عليهم أن يدربـوا انفسهم على الإجابة على أسئلة يطرحونها على انفسهم مثل : كيف اشعر وانا الآن في هذا الوقت بالذات ؟ اسئلة فيها تمرين لاختبار حقيقة الأحاسيس في لحظة محددة وفي موقف معين . وحقيق بنا نحن البشر ان نميز بوضوح الفرق بين نزعة عاطفية جارفة تفلت من زمام العقل وبين عاطفة توطد وشائج الصلة وتوثق العلاقات الانسانية ، وعلينا ان نفرّق بين حالة انفعالية عارمة وبين موقف وجداني للتبصر فيه شأن . المهم في الأمر هو حسن التجربة وطبيعة الخبرة التي أعيها (انا) الذي أقوم بعملية الشعور وأمر بها ؛ ففي حالة الموقف الوجداني الذي يتفاعل معه المرء بعقلانية ، فإنه يشعر بحيوية متدفقة متسامية ؛ وعندئذٍ فبدلاً من ان تكون مشاعر المرء محدودة متقطعة اشبه بنوتات notes البوق ، تصبح رقراقة متواصلة رقيقـة حساسـة مثلها مثـل مقطوعـات الموسيقى في السمفونية المتكاملة .

وهذا يعني كذلك بأننا بحاجة الى أن نستعيد وعينا بأجسادنا واهميتها والاهتمام بها . فالطفل مثلاً ، انما يكتسب جزءً من احساسه بكيانه الشخصي الذاتي عن طريق وعيه بأبعاد جسمه وادراكه اياها . وفي هذا الصدد يقول جاردنر مـرفي Gardner Murphy ، (لعلنا نسـتطيع ان نـطلق على الجسم

عندما يجربه الطفل اول مرة بأنه جوهر الذات عنده)[١٨] . فالرضيع يتحسس ساقه مراراً وتكراراً ، وبعد ذلك ، عاجلاً أو آجلاً ، تتكون لديه الخبرة ، فيكون لسان حاله : (هنا هذه الساق ؛ أستطيع تحسسها ، فهي ساق تخصني) . وان تحسس الطفل اعضاءه الجنسية يعد من الأهمية بمكان ، فبواسطتها يستطيع الطفل الاشارة الى ذاته . وهذا جزء من تحسسه ذاته . لكن تلمس الطفل اعضاءه الجنسية بصورة عفوية قد اقترنت بالمحرمات في مجتمعنا ، فرحنا نسمعه قارص الكلم وهذا لا بد انه ينطوي على معنى يستقر في عقل الطفل مؤداه : (ان صورتك عن ذاتك هي صورة قذرة) . وهذا لا شك هو أحد الجوانب المهمة في أساس النزعة الى تحقير الذات في مجتمعنا .

وعي المرء بمشاعره لا ينطوي ابداً على التعبير عنها اعتباطياً وكيفما اتفق وحيثما حل المرء او أينما كان . فالرأي واتخاذ القرار ، كما سنرى فيما بعد ، هما جزء لا يتجزأ من اي شعور بالذات ناضج . ولكن كيف يتسنى للمرء ان يتكون لديه أساس للرأي على ما سيفعله او ما لا يفعله ما لم يعرف اولاً ماذا يحب وماذا يريد ؟ فالمراهق مثلاً يتعين عليه ان يتعلم في اطار السياق الاجتماعي كيف يجب ان يروّض نزواته لتتواءم والذوق الاجتماعي العام . والحياة كلها عِبَر فما أحرى المرء أن يتعظ بمواقفها . وكلما نضج الانسان وازدادت مشاعره نضجاً كان أقرب الى انسانيته ووظفتها في الحياة .

الناس الذين يجهرون بأصواتهم محذرين من أنه ما لم يتم كبح الرغبات والانفعالات ، فإنها ستمتد وتنتشر بكل اتجاه ، وان كل فرد ، مثلاً ، ستتغلب عليه الرغبة الجنسية بشكلها المحرم اللامشروع ، انما هم يتكلمون عن الانفعالات العصابية neurotic emotions ، والحق ، اننا لنعرف على وجه الدقة ان الانفعالات والرغبات التي كانت قد كبتت هي نفسها التي تعاود

---

(١٨) Culture and Personality, ed. by Sargent and Smith, p. 19.

فيما بعد فتدفع بالشخص الى عمل ما دفعاً قهرياً[١٩] قسرياً Compulsively . ولكن كلما كان الشخص اكثر تكاملاً وأفضل انسجاماً مع ذاته ، كانت انفعالاته اقل اتساماً بالقهرية . اذ أن مشاعر الشخص الناضج ورغباته انما تحدث بشكل منتظم متكامل Configuration . فحين يذهب المرء لمشاهدة مسرحية معينة مثلاً ، ويرى خلال عرض المسرحية مائدة للطعام على المسرح كجزء من فعاليات المسرحية ، فلا تساور المرء الرغبة في الطعام ذلك لأنه انما جاء لمشاهدة نشاط المسرحية ، لا ليأكل . ما من شك في ان كل انسان معرض الى صراعات مختلفة ، كما اوضحنا في ثنايا هذا الكتاب . ولا يقدر المرء ان يهرب من الصراعات . نعم ، انه يستطيع التهرب منها من وقت لآخر . بيد أن هذه الصراعات تختلف تمام الاختلاف عن كون المرء مدفوعاً الى الانفعالات والصراعات دفعاً قسرياً .

كل خبرة من خبرات الاحساس والرغبة مباشرة وسريعة هي تلقائية وفريدة . وبعبارة أخرى ، فإن الرغبة والاحساس يمثلان جزءاً فريداً من ذلك الموقف الخاص في ذلك الوقت الخاص وفي المكان الخاص . ان التلقائية تعني القدرة على الاستجابة مباشرة الى الصورة الكلية ـ او كما يعبر عن ذلك فنياً ، فيقال : الاستجابة الى (الهيئة الكلية للأرضية والصورة) Figure-ground configuration . فالتلقائية انما هي (الأنا) الفعال المؤثر وقد صار جزء من الأرضية والصورة . ففي رسم صورة جيدة تظهر فيه الخلقية دائماً جزء لا يتجزأ من الصورة ذاتها ؛ وكذلك فإن عمل الانسان الناضج هو جزء لا يتجزأ من الذات بالنسبة للعالم من حولها . ولهذا فإن التلقائية تختلف اختلافاً كبيراً عن الاهتياج effervescence أو الأنوية egocentricity ، او التنفيس عن

---

(١٩) العمل القهري : قوة داخلية لا تقاوم يضطر صاحبها الى القيام بعمل ضد ارادته مما قد يتنافى واعراف المجتمع ، فكأن في داخل هذا الشخص شخصاً آخر يأمره فيطيع ، وقد يقوم الشخص بتكرار انماط من السلوك لا معنى لها ولا لزوم ولا ضرورة لها ، فيكون المرء شاذاً في كل تصرفاته . (المترجم) .

الاحساسات دونما اعتبار للواقع الاجتماعي وللبيئة ؛ بل ان التلقائية ، هي ، بالأحرى ، (الأنا) الفعالة باستجابتها الى بيئة معينة في لحظة معينة . وفي ضوء هذا كله يمكن فهم الاصالة والفردانية والتفردية Uniqueness التي هي دائماً جزء من احساس تلقائي . فالسلوك التلقائي يباين تماماً السلوك العصابي الذي يتكرر عادة بجمود ورتابة .

والخطوة الأخرى التي تتساوى واعادة اكتشافنا احساساتنا ومستحباتنا ، هي الخطوة المتعلقة باستعادة واستحضار علاقتنا بالجوانب شبه الشعورية Subconscious في ذواتنا . وباقتضاب نقول : بما ان الانسان الحديث في عصرنا هذا لم يعد يهتم الاهتمام الكافي ببدنه وبقوة جسمه ، فهو كذلك قد تخلى عن الجانب اللاشعوري من شخصيته ، وقد رأينا ان كبح الجانب اللاعقلاني لدى الانسان في هذا الزمان تقتضيه الضرورات التي يتسنى له بتحقيقها ان يتمكن من استنجاز مهماته بشكل منظم وعقلاني في عالم الصناعة والتجارة هذا . اننا في حالة التنقيب في طوايا الخبرات المكبوحة نكون قد كشفنا عما هو خبيء من معالم ذواتنا، ولعلنا في ذلك نستكشف مفاتيح بها نفتح مغاليق جوانب لها اهميتها البالغة فينا . فعلى مرّ العصور ، حتى قبل تأويل يوسف احلام فرعون الى الفترة الحديثة الآن ، نرى الناس قد اعتبروا احلامهم ، مثلاً ، مصادر حكمة ، ومظان توجيه ومنابع تبصر insight .

لكن معظمنا يظنون ان احلامنا احداثاً شاذة ويحسبونها مستغربة وكأنها رقصة استعراضية غريبة من رقصات سكان التيبت . وهذا الانكار لواقع الأحلام من شأنه ان يفضي الى استئصال جزء جسيم ومهم للغاية من اجزاء الذات . وبهذا فلا نكون بعدئذ قادرين على ان نستخدم كثيراً من الحكمة والقوة المختزنة في اللاشعور . وهذا من شأنه يجعلنا في موقف نحاول فيه قيادة وتوجيه عربة يجرها حصانان لكن لجامي الحصانين مشدودان الى حصان واحد فقط ؛ أو يكون أمرنا كمن يمتطي عربة تجرها اربعة أو خمسة أحصنة ولكنها تسحب باتجاهات مختلفة . ان الميول والالهامات وشبه الشعور واللاشعور انها

وان كانت محجوبة عن الوعي الشعوري فينا ، الا انها لا تبرح تعمل وتكوّن جزءاً من الذات، وأنها ميسورة المنال وبدرجات متفاوتة حتى تكاد تقترب من متناول الشعور بل وتلامسه . وكلما حاولنا استعادة ذلك الجزء المهم من ذواتنا وكنا في هذا اسرع كان الأمر لنا أنفع .

واذا كان هناك من يستخف بالأحلام ويعتبرها أموراً طارئة على حياة البشر ، فإنه يكون بذلك قد اسهم في استبعاد جوانب مهمة من جوانب الذات الانسانية . الأحلام جزء لا يتجزأ من شخصية الفرد . انها لغة رمزية تتكلم باستخدام الرموز التي يمكن فهم كنهها اذا هي اوليناها شيئاً من الاهتمام والتفهم . وما اكثر ما كتب[٢٠] عن الأحلام ، وكثيرون هم الذين كتبوا عن الاحلام ومكانتها في حياتنا المعاصرة ، من هؤلاء يمكن ان نذكر مثلاً اريك فروم E. Fromm وكتابه : **اللغة المنسية** The Forgotten Language ، وفيه يشير الى أن الأحلام ، شأنها شأن الأساطير التي نتداولها وقصص الحوريات ، ليست لغة أجنبية او غريبة علينا قط ، بل هي لغة شاملة يشترك فيها جميع ابناء الجنس البشري . ومن اراد أن يعرف شيئاً عن المصطلحات الفنية ، وان يتعلم شيئاً جديداً عن (لغة اسلافه) شبه الشعورية والشعورية منها يمكنه الرجوع الى كتاب أريك فروم هذا ونوصيه بقراءته .

فالاحلام ليست فقط تعبيرات عن صراعاتنا الداخلية ورغباتنا المكبوتة ، وانما هي ايضاً روافد تذكرنا بالمعرفة السابقة التي كان المرء قد تعلمها ، من سنين كثيرة خلت فنسيها ؛ ففي الأحلام لمحات واشارات واستبصارات ذات قيمة جلّي ورائعة لحل مشاكل نفسية ومسائل حياتية .

زبدة هذا الفصل هي : كلما كان الشخص على وعي بذاته اكثر كانت دفقة حيويته أوفر . وكان كيركجارد قد كتب يقول : (الشعور الأوفر تتولد

---

(٢٠) انظر مثلاً ما كتبه ابن سيرين عن الأحلام وكتابه في تفسير الأحلام وما كتبه عبد الغني النابلسي في كتابه تعطير الأنام في تعبير المنام ، وما كتبه كل من فرويد ويونج بشأن الاحلام . (المترجم) .

عنه ذات اكبر) . انه الوعي المتسامق ذلك الذي يجعل الشخص شخصاً حقاً . انها هذه الخبرة بـ (الأنوية) I-ness ، هذه التجربة انها (انا) ، اي الفرد الفعال ، انها الذات كما هي حاصلة بالفعل .

ان يصبح الشخص شخصاً بالفعل وكما ينبغي ، يؤدي به الى ان ينفض عنه غبار السلبية[٢١] . والنزعة السلبية قد تكون نتيجة لكل ما قد يترسب في النفس من قلق حاد وعصاب وذهان وكل اشكال الآفات النفسية . ومما يدعو للتأمل هو ان انسان القرن العشرين هذا ، أمسى أقل امتلاكاً لناحية موجهات حياته مما كان عليه انسان القرن التاسع عشر الذي كان يمتلك قوة ارادته التي كان مولعاً بها وبالإيمان بها . ولهذا فمهمة علم النفس الحديث يجدر ان تنصب على الكشف عن خفايا اللاشعور والعمل على احضارها الى حيز الشعور وذلك تحقيقاً لمكانة الذات في هذا العصر . وهذا من شأنه ان يساعد الفرد على ان يوجه سفينة ذاته بصورة شعورية . وهذا بدوره يساعد على درء مخاطر الوقوع في مهاوي السلبية الصارفة للفرد عن الاسهام الفعال في البناء الاجتماعي .

حقيق بنا ان نكون على بينة من ان مصطلح (الأنا الفعال) يجب ألا يؤخذ على علاته وحسب دلالته الحرفية الظاهرية . بمعنى انه ليس من المؤكد ان يكون الفرد كثير النشاط والحركة واذن فإنه يكون اكثر فعالية . اذ ليس كل من يتحرك كثيراً يكون بالضرورة كثير الانتاج . فعبارة (جعجعة ولا طحين) تنطبق تمام الانطباق على سياق حديثنا هنا . فبعض الناس تكون كثرة حركتهم نوعاً من انواع التغلب على ما يعانون من قلق واذن فإن فعاليتهم هي طريق للهرب من أنفسهم . ولتشوسر[٢٢] Chaucer تعليق بارع ولاذع حول هذا

---

(٢١) السلبية نمط من الشخصية يتسم بالخنوع والانسحاب من دنيا الواقع والتقوقع داخل جدران الذات . (المترجم) .

(٢٢) شاعر انكليزي يعد اشهر الشعراء في بريطانيا قبل شكسبير ، اشتهر بحكايات كنتربري ، توفي في مطلع القرن الخامس عشر . (المترجم) .

النمط ، متمثل في مقطوعة التاجر merchant في حكايات كنتربري Canter-bury Tales ، اذ يقول : (يخيل اليّ انه يبدو منشغلاً اكثر مما كان) .

لا ريب في أن تأكيدنا على وعي الذات وادراكها ينطوي على النشاط كتعبر عن الحيوية ، وتكامل الذات ، لكنه عكس الفعالية . النشاط المؤكد للذات غير العمل الرامي للخلاص من وعي الـذات وللهرب من مهـاميز النفس . الوعي بالذات ، كما سبق ان اقترحناه ، يعيد الى هيكل الصورة أهدأ انواع الحيوية . انه يستجلب ، مثلاً ، فنون التأمـل والتفكير ، وهي الفنون التي جازف بها العالم الغربي ففقدها . فعلى المرء أن يكون اكثر وعياً بما يؤديه لينأى بذاته عن التبطل المغلف ، والى هذا المعنى كان روبرت لويس ستيفنس[٢٣] قد اشار . الوعي بالذات يتمخض عن تذوق جديد لكونه شيئاً محدداً بدلاً من كونه ينطوي على عمل شيء ما فقط . فعلاقة المرء بذاته علاقة شعورية صميمة انما هي البرهان على أهمية المرء في عين نفسـه . انها تعبير ابداعي عن الطاقات التلقائية لدى الشخص الذي يستطيع شعورياً ان يؤكد صلته الحميمة بعالمه وبصحبة بني جنسه من الناس من حوله .

---

(٢٣) شاعر وروائي اسكتلندي ، يعتبر احد اعلام ادب المغامرات توفي في آخر القرن التاسع عشر . (المترجم) .

الفصل الرابع
الكفاح من أجل البقاء

آن لنا ان نسأل : أليس السبيل الى وعي الذات مشحوناً بتقلبات وعقبات ومنحدرات هي من الصعوبة والصراع اكثر مما تبيناه في الفصل السابق ؟ الحق كذلك ؛ ولنلتفت الآن الى الجوانب الأكثر دينامية ، الجوانب التي تستكمل صياغة كينونة الشخص . فبالنسبة الى معظم الناس ، وبالأخص الراشدين منهم ، حينما يحاولون التغلب على الخبرات السابقة التي حالت دون استكمال كينونة شخصياتهم على وفق اهوائهم الخاصة بهم ، فإن تحقيق الشعور بالذات لديهم غالباً ما ينطوي على كفاح وصراع معاً . فهم في مسيرة تحسسهم مواطن الذات يصطدمون بعوائق تقف منتصبة ضد اتجاه سيرهم الرامي الى تلمس خبرات تحقيق ذواتهم الشخصية . يكتشفون أن ثمة قيوداً معينة تمنعهم وتحول دون ذلك . وهذه القيود ، من حيث أساسها ، هي طبيعة الروابط التي كانت تحكم العلاقة بينهم وبين الأبوين ابان الطفولة ، وبخاصة الأم في مجتمعنا هذا .

فعلاقة الفرد بأبويه تتخذ اشكالاً شتى وانماطاً متباينة . وعلى كيفية هذه العلاقة تتم صياغة ذاته في الحياة . ولعل علاقة المرء بأمه تكون اوثق بحكم نشوئه جنيناً في الرحم . وبعد ولادته تتخذ خطوات حياته وطبيعة علاقاته بأمه خطوات متتاليات ابتداء بالرضاع ومروراً باعتماده عليها في كيفية توجيهه للاعتماد عليها في قضاء بعض حاجياته الفسلجية النفسية ، وانتهاء بتتالي

مراحل دراسته حتى يبلغ مرحلة اتخاذ قراره بنفسه في اختيار مهنته واستقراره في الرأي في الاقتران بمن يرى ان تكون زوجته ، كل هذه الخطوات كفيلة بتحديد معالم ذاته وترسيم كينونة شخصيته . فتأمل كم هي ظروف الحياة بالغة الأهمية في صياغة شخصية الانسان . ان تطور الكائن البشري يمثل استمراراً للتمايز diffentiation بدءاً من تأحده مع الأيام وانتهاءاً ببلوغه مرحلة الارتقاء التكويني . وان التطور كله يمكن وصفه بأنه عملية تخليق الجزء من الكل . ولما كان الكائن البشري ، وهو بهذا بخلاف الجمادات والمركبات الكيميائية يستطيع تحقيق فرديته فقط عن طريق الاختيار الشعوري والمسؤول لما يريد ان يكون ، فإنه يتعين عليه ان يكون فرداً نفسياً واخلاقياً الى جانب كونه فرداً جسمياً . فتمايزه عملية فريدة في بابها .

حياة الانسان في تداركها يمكن تمثيلها بخط بياني يوضح التخليق ابتداء من طفولته واتكاليته الى شبابه وعنفوانيته حتى شيخوخته وحكمته . وابان خط سيره هذا تتجلى هناك مسؤوليته وما يمكن ان يكشف عنه من ابداع .

الفطام النفسي

يصبح الطفل فرداً جسمياً منفصلاً متميزاً بعد قطع الحبل السري عند الولادة ، ولكن ما لم يقطع كذلك الحبل السري النفسي في الوقت المناسب ، فإنه يبقى وكأنه مشدود الى مكانه وكأنه يدرج في مشارف باحة دار أبويه . فلا يقدر على الابتعاد اكثر مما يسمح به طول الخيط المربوط . فيكون تطوره معطلاً معاقاً ، وتنكفىء حرية النمو لديه الى داخل ذاته ، فتتقيح وتتحول الى سخط وغضب . وهؤلاء الناس الذين قد يبدون منسجمين بشكل محتمل ضمن مدى الخيط المشدودين به وهم يدرجون ، إلا أنهم يكونون جد مضطربين حين يواجهون اتخاذ قرار الزواج او عندما يتوجهون الى اختيار ما يريدون من عمل . وانهم عندما تلم بهم ازمة فإنهم يميلون ، حقيقة او مجازاً ، الى الرجوع الى الأم . وقد عبر احد الشباب عن ذلك بقوله : (اني لا استطيع

أن أحب زوجتي بما يكفي لأنني أحب أمي اكثر مما ينبغي) . وخطأ هـذا الشاب هنا هو استعماله كلمة (حب) لعلاقته مع أمه . فالحب الحقيقي واسع المدى وإنه لا يستثني محبة الآخرين : والاستثناء الوحيد هو فقط الانشداد الى الأم مما يحول دون حب المرء لزوجته . وكلما كان المجتمع اكثر استقراراً فإنه يمنح امثال هؤلاء الأفراد اطمئناناً وحناناً كبديل لعطف الأم ، وهذا من شأنه ان يجعلهم اكثر التصاقاً بالمجتمع الذي اليه ينتمون .

نتحدث عن الفطام النفسي وعن تحقيق الذات . وهذا مؤكد تحقيقه اذا كـانت الظروف مـواتية لتنمـو فيها الـذات على سجيتهـا وحسب سـيرورة طبيعتها . ولكن هل يمكن ان يكون الأمر دائماً على هذه الشاكلة ؟ هناك فرق بين ذات وذات : ذات سوية تنشأ في ظروف ، الى حد ما ، سوية ، وذات تكون قد تعرضت الى رضوض فأصبحت ذاهلة مبخوعة . والحالة التالية لا تعد بحال من الأحوال استثناء ، انما هي شبيهة بكثير من الحالات الأخرى التي انكشفت لمواقف ضاغطة ولاسيما ابان غضارتها .

انها حالة شاب نشأ في طفولته وهو تماماً تحت هيمنة أمه وسيطرتها . فهي تختار له ملابسه طفلاً ومراهقاً وهي تذهب معه الى المدرسة لتحميه من اقرانه الذين يعتدون عليه ، وهي تختار له اصدقاءه ، واذا اراد التحدث الى أبيه فإن ذلك يتم وفق اوامر ونواهي منها ، ذلك لأنها كانت تزدري الأب علناً أمام الولد ، وقد قالت لزوجها الضعيف الشخصية امام ابنهما الوحيد هذا : (إن موتك اكثر نفعاً لنا من حياتك ، لكنك جبان وانك دائماً تخاف من انهاء حياتك) ، قالت هذا وكأنها تحرضه على قتل نفسه . ولما بلغ الصبي مبلغ الشباب وراح يتطلع الى التعرف على الجنس الآخر ، حرصت امه ودأبت على تحذيره وكأنها تريده لنفسها تحتفظ به ؛ وطرأت لها فكرة ان تزوجه من فتيات الطبقة التي تحقق لها طموحاتها هي لترتقي عن طريقها الى مطامحهـا . نشأ الشاب شديد القلق ، متوجساً من النساء . رغم أنه كان طالباً موهوباً وانه كان يعد نفسه لنيل شهادة الدكتوراه ، كان احياناً تنتابه نوبات قلق يكـاد

يصبح معها مشلولاً . كان احياناً ، صبياً ويافعاً وشاباً ، يرتج عليه ولا يعود قادراً على الاستذكار . وكل هذا كان تمرداً لا شعورياً ضد استغلال أمه لموهبته ولطبيعته . فبدافع من نوازع خاصة بها ، كانت هذه قد افسدت حياة ابنها وافقدته جانباً مهماً من جوانب شخصيته الذاتية . فهذه الأم كانت ، مثلاً ، حين يبتعد ابنها عنها سرعان ما ترسل اليه برسائل ليعجل بالعودة والعناية بها وكل هذا كان ادعاء لا مبرر له من الواقع . وكانت تقول له انها ستصاب بنوبة قلبية اذا لم يبد نحوها اهتماماً زائداً .

مشكلة هذا الشاب الذي وصفنا لتونا وضعه بشكل مبسط نوعاً ما ، هي في كثير من جوانبها، حالة نموذجية لدى كثيرين من الرجال الشباب في مجتمعنا . انه كان يعاني من نقص في الاحساس والارتباك في مجالي تكوين العلاقات التي توصله الى اختيار شريكة حياته وفي العمل . هذا احد جوانب المشكلة ، والجانب الثاني هو نمط العلاقة الأسرية التي رأينا كيف كانت ملتوية . ويلاحظ ان هذه العائلة كانت تختلف بشكل أساسي عن العائلات الأبوية Patriarchal ، العائلات التي تنشأ تحت سلطة الأب ، والتي كانت في ذهن فرويد عندما صاغ أول مرة (مبدأ أوديب) Oedipus doctrine . ففي عائلة الشاب هذا ، كانت الأم هي المسيطرة . كان الأب ضعيفاً وقد صورته الأم للإبن انه تافه . والجانب الثالث المكون لمشكلة الولد هذا ، هو انه كان اثيراً لدى الأم ، وقد احلته محل الأب ، وهذه المعاملة التفضيلية قد استمرت طويلاً . ولكن (لا راحة لرأس يحمل فوقه تاجاً)[1] . فالأم ارادته بشكل مخالف لطبيعته السوية . هو يريد أن يكون هو ، بيد أن أمه ارادته وجعلت منه دمية في يديها . فالصبي هنا تختلف حالته عن حالة أوديب التي وصفها فرويد . الصبي هنا كان يعاني من خوف فقدان قوته ، كان يعاني من عقدة الخصاء ، لكن الأم ، وليس الأب ، هنا هي التي كانت مصدر الخوف من

---

(١) الكلام لشكسبير في مسرحية الملك هنري الرابع، المشهد الثالث ، وبالانكليزية هو : Uneasy lies the head that wears a crown . (المترجم) .

هذه العقدة اللاشعورية في حياة كثير من الشباب . لم يكن الأب من قـوة الشخصية لكي يتقمص الولد قوة الرجولة فيه ؛ لذلك كان يفتقر الى ذلك المصدر الطبيعي السوي من خبرة القوة النفسية والمعنوية بـالنسبة الى صبي ناشيء . وكتعويض عن هذا الافتقار للقوة ، كان يتلقى تدليل الأم اليه تدليلاً أفسد عليه حياته . وكما هو متوقع ، فإن شاباً كهذا ، كانت تراوده احلام متكررة بأنه امير حقاً . كانت نرجسيته جد طاغية . كانت نرجسيته العارمة تعويضاً عن احساسه الداخلي بأنه كان تقريباً فاقد القوة . نشأ هذا الفتى وهو يخشى النساء الى حد الموت ، وكان على قدر كبير من الصراع الداخلي ، فلم يعد قادراً على التقدم إنْ في العمل ، او في الحب ، أم في تكوين علاقات مع الآخرين .

فما هو ، يا ترى ، السبيل الى الخلاص من مثل هذا الموقف المتشابك الرهيب ؟ بطبيعة الحال ، يستطيع الطفل الانسحاب مؤقتاً مما يتعرض له من موقف ضاغط ، ينسحب ملتمساً حماية نفسه من الاستغلال ، فهو بانسحابه يكون بذلك قد أدى الى تصغير ذاته بقدر المستطاع ، وبهذا يحاول (تحاشي مقاليع وسهام الحظ العاثر)[٢] . حدث ان كان ثمة شاب ، راح ينظر الى ماضيه ، الى أيام الصبا ، يوم كان في وقت من الاوقات محاصراً بين نارين : بين أب ضعيف الشخصية مـدمن ، وبين أم متسلطة تعتـبر نفسها ضحيـة تصاريف الحياة ، وصف الشاب المذكور حياته ، في قصيدة له كيف رأى ذاته ابان تلك السنين الباكرة :

وأنت هناك جنب الطاولة تتسمر
هادئاً ، حاملاً دبك المخملي واليه تنظر

يجعلونه من الصغر ، فيكاد يهوي
لك ان تلقاه وبين ذراعيك تلفه وتطوي

---

(٢) من مسرحية هاملت لشكسبير ، المشهد الثاني ، المنظر الثاني والنص الانكليزي هو : Avoid the slings and arrows of outrageous fortune . (المترجم) .

وبعد ، فأنت وحيد هناك مهمل
هناك تقارع ما لا يحبون وما شاؤا
وأنت لست بذي طَوْل ، وكيف لك الإباء

اذا كان الوضع على هذا النحو الموصوف ، فهل يستطيع بعدئـذٍ ان (يحاول الاستعداد للتصدي لخضم من المتاعب) ؟ كيف يمكن ان يكـافح بفعالية كشخص لتحقيق حريته وفق حقه وكما يـريد ؟ . والى هـذا نلتفت الآن .

الكفاح ضد سيطرة الأم

الكفاح ضد سيطرة الأم ومن أجل الحرية ، كان قد عرض في واحدة من أعظم المسرحيات الدرامية على مرّ العصور ، تلك هي مسرحية اوريستس Orestes . دعنـا نتمل المشكلة من خـلال ما تضمنتـه تلك المسرحيـة من استبصارات . وسيساعدنا هذا لا لأن منظوراً تاريخياً يمنحنا ضوءً نرى فيه الحاضر فقط ، ولكن كذلـك لأن أعمق حقائق الخبرة الانسانيـة ، كتلك الخبرات المتمثلة في مسرحية أوديب ، يمكن تمليها بوضوح أوفر في الاشكالية الكلاسيكية التي توالت عصراً بعد عصر .

هذه القصة العظيمة من الصراع الانساني ، قصة أوريستس ، كتبها اول مرة ايسخيلوس Aeschylus في اليونان القديمة ، وأخيراً أعيدت كتابتها بالشعر الحديث ، اذ كتبها روبنسن جيفرز[٣] Robinson Jeffers في (برج ما وراء المأساة) The Tower Beyond Tragedy . فبينا كان أغاممنون ، ملك

---

(٣) شـاعر امـيركي ، توفي الستينـات من هذا القـرن ، عرف بتشـاؤمه وازدرائـه للحضـارة . (المترجم) .

مسينيا ، غائباً يقود الجيوش الإغريقية في حرب ضد طروادة ، كانت زوجته كليتمنسترا Clytemnestra ، قد اتخذت بغيابه أغسطوس Aegisthus ، عشيقاً لها . وعندما عاد أغاممنون من حربه الى بيته في ارض الوطن ، اغتالته زوجته ، ثم أبعدت ابنها الصغير أوريستس عن المملكة ، وجعلت ابنتها ، اليكترا ، في موضع الإذلال والمهانة . وحينما بلغ اوريستس سن الشباب عاد الى مسينيا وقتل أمه . ومواجهة له ، وهو يشهر سيفه أمام القصر ، حاولت كليتمنسترا ان تستدر عطفه عن طريق توجيه اللوم الى أبيه ، ثم قالت : (انه حظي العاثر ، يا بني) ؛ ثم تلجأ الى التهديد بعاقبة الإثم ، قائلة : (احذر اللعنة ، لعنة الأم التي حملتك !) وعندما اخفقت مثل هذه الستراتيجيات ، كما صورها جيفرز ، تلجأ في النهاية الى محاولة ثني أوريستس باحتجاجات واهية ، منها مثلاً التذكير بحبها الزائف ، فمن احتضان له ، وتقبيل بشغف حار . وفجأة يتراخى فيترنح ، فيلقي السيف من يده وهو يردد هذه الكلمات : (انا منسحب ، انا متخدر ، انا فاقد الحس) . ان الشيء الملفت للنظر بشأن هذه السلبية المفاجئة المخدرة ، هو ما يلاحظه اليوم كل معالج نفساني في حالات كثير من الشباب في عصرنا الحالي ، انه كفاح نابع من الفعالية والقوة في كفاحهم ازاء أم مسيطرة متسلطة . ادرك اوريستس أن أمه سرعان ما تهتبل لحظة استسلامه لها وسلبيته ، لتدعو جندها ، ادرك ان ما اسمته حبها له لم يكن حباً قط ، بل كان استراتيجية لتبسط عليه قوتها وسيطرتها ، عندئذ نهض منتصباً ، فاستعاد قوته ، ويهوي بسيفه فيضرب ضربته .

ونتيجة لذلك ، فإن اوريستس بعدئذٍ يجنّ . (الأرواح المنتقمة) تلاحقه . وهي (ارواح تظهر ليلاً فتتراءى له ، مهمتها العقاب ، تحمل اقفالاً متشابكة فيها ثعابين متشابكة ملتفة على بعضها) . وهذه هي الاشخاص الاسطورية الاغريقية ، فهي تجسد بذلك تأنيب الذات Self-reproach ، وترمز الى الضمير الفاسد . ويمكننا القول هنا انه لأمر مدهش اذ نرى كيف

كان الاغريقيون القدامى يصفون ببصيرة دقيقة وثاقبة هذه الذنوب القارصة الناخزة ، الذنوب التي تؤرق الشخص فلا تدعه ينعم بطعم الكرى ، ولعلها تدفعه الى العصاب او تنتهي به الى الذهان . انهم كانوا يعبرون عن تلك الذنوب بصورة رمزية تقربها من العقل والواقع .

كـان اوريستس هذا تـلاحقه الارواح المنتقمـة ، فكنت تراه مؤرقـاً مرهقاً ، الى أن يتهـاوى فيسقط في النهايـة عند محـراب (أبوللو) في دلفي Delphi ، حيث يلقى هناك شيئاً من الراحة . وبعدئذٍ يبعث به تحت حماية أبوللو وحراسته الى مدينة أثينا حيث تتم محاكمته امام محكمة عليا تترأسهـا أثينا[٤] Athena . والمسألة الكبرى التي كان ينبغي ان يتخذ قرار بشأنها هي ما اذا كان يجب الحكم على شخص بجريمة قتل أم مسيطرة ومستغلة . وطالما أن النتيجة ستكون في واقع الحال حاسمة بالنسبة لمستقبل الجنس البشري ، فـإن الآلهة gods ، آلت عـلى نفسها ان تنـزل من فوق أوليس Olympus لتشارك في مجريات المحاكمة وفي المناظرة ، وبعد كثير من الخطب والجدال ، توجه الألهة اثينا الاتهام الى المحلفين Jury ، وفيه تحذرهم بقولها (لا تطوحوا بكل السلطة العليا عـبر جدرانكم) ، بـل عليكم ان تستبقوا وان تـوفروا (مهابة الآلهة وهيبتهم وان تبقوا في اذهانكم مخافة الأقداس) ، محذرة اياهم ان يتحـاشوا المخـاطر المزدوجة وهي (الفـوضى) من جهـة ، و(الهيمنـة الاسـترقاقيـة) Slavish masterdom من جهة أخـرى . والمحلفون عنـدئذٍ يصوتون . وقد تعادلت الأصوات . ولا بد للأمر من الحسم . ولهذا كان على أثينا نفسها ، وهي آلهة الفضائل المدنية المهذبة ، ومنها فضيلتان : الموضوعية Objectivity ، والحكمة Wisdom ، كان عليها أن تدلي بصوتها الترجيحي لحسم القرار . فتعلن للمحكمة انه اذا كان الجنس البشري يتوخى التسامي واعلاء مكانة الاشخاص ، ويبتغي تقدمهم في الحياة ، فيجب عليه ان يتحرر

---

(٤) آلهة الحكمة والفنون والصنائع والمهارات النسوية عند الاغريق كما ورد في الاساطير الاغريقية القديمة . (المترجم) .

من اغلال وقيود أمثال هؤلاء الآباء الممقوتين ، حتى اذا كان في الأمر محاولة التخلص منهم . وبصوتها هذا يتم العفو عن أوريستس .

هذه القصة الرمزية المستقاة من الأساطير الاغريقية ، تنطوي على كفاح رهيب من الأهواء البشرية ، تصطرع به النفس الانسانية . كفاح اوريستس هذا ، وان كان يمثل قتل الأم ، لكنه يرمي الى الابقاء على شخصية فرد لتكون ذات كينونة في الحياة . انه كفاح ليس بأقل من كفاح (تكون أولا تكون) ، كفاح وجود نفسي وروحي . وقد أوضحت أثينا والخطباء الآخرون اثناء المحاكمة ، انها كانت مناظرة بين الأساليب (القديمة) من اعراف وأخلاقيات ، كما تمثلها روح كليتمنسترا وأشباح الظلام ، وبين السبل (الجديدة) التي كانت تدافع عنها ويدافع أبوللو وأثينا ، ويجسدها عمل أوريستس . وهذا الضرب من القصص يمكن تفسيره وفق منظور اجتماعي فيقال بأنه كفاح يرمي الى توطيد سلطة الأب وتوكيدها لتحل محل الهيمنة الأمومية ، كما يشير الى ذلك أريك فروم في كتابه : **اللغة المنسية** ، المشار اليه من قبل . بيد أن ما يهمنا في هذا السياق هو التطبيقات النفسية المستفادة من هذا الصراع ، وما يعنيه .

وبفطانة نفسية أخّاذة يوضح لنا أيسخيلوس ان (أوريستس لم يكن أمامه من خيار سوى تسلق الصعاب) ، وانه كان يمكن أن يلبث مريضاً الى الأبد لو لم يقم بتلك المأثرة ولم يقدم عليها . وفي الخاتمة المتعاظمة يجعل ايسخيلوس فرقة الانشاد تغني (أشرق النور ولاح وأعقب الفجر الصباح) وبعبارة أخرى ، فإن اوريستس ، بصنيعه ذاك ، يكون قد أطلّ على العالم ضياء جديد وصفاء جديد[٥] .

---

(٥) قارن بهذا قول ايليا ابي ماضي :

فإذا أنا شخص يعيش مكررا　　قد كنت أحسبني كياناً ضائعاً

المترجم

ليس كل الأمهات هن على شاكلة كليتمنسترا التي تعتبر حالة متطرفة . وللنقاد أن يقولوا بأنّ مسرحية اوريستس هي بما تنطوي عليه من تطبيقات ومتضمنات ؛ اذ ما من كائن انساني تكون دوافعه تماماً كراهية خالصة او حباً خالصاً او رغبة في التسلط وفرض الهيمنة وبسط القوة ، بل تكون دوافعه مزيجاً معقداً من هذه الدوافع . ان الحقيقة هي ، كليتمنسترا كونها رمز اكثر منها شخصاً ، فهي رمز لما يمكن ان يكون عليه الأب أو (الأم) من نزعة تسلطية وسلطوية ، من شأنها ان تخنق طاقات الطفل الفعالة . ان هذه المسرحية ، على ما تتسم به من عمق وشجاعة في العرض ، وفي الكشف عن دفائن النفس بقدر ما يحفل به الأدب الاغريقي من نزعة توجيهية ، فهي لا تنسحب بكل خيوط نسجها على كل زمان ومكان . لكنها ، من حيث طبيعة الانسان ، تنطوي على حقائق لا يمكن اغفالها ولكن يجدر اخذها بحذر . فمعظمنا في العصر الحديث ، ونحن نغتذي بغذاء مصطنع زائف ، نجد هذا الدواء جد قوي على مذاقنا .

ان جوهر الكفاح هو أن الشخص الناشيء ، وفي هذه الحالة هو اوريستس ، انما ينافح ضد القوى التسلطية التي يمكن ان تخنق حريته وتحول دون نموه . ومثل هذه القوى في محيط الاسرة يمكن ان يكون مصدرها الأب او الأم . وما اعتقده فرويد من صراع شامل بين الأب والابن ، وما عممه عن (عقدة أوديب) ، ليس بالاعتقاد الذي يمكن التسليم به على انه عام ينتظم جميع الافراد ومما يصدق سريان مفعوله على جميع المجتمعات ، لما هناك من تفاوت بين العوامل الحضارية والتاريخية . ذلك ان فرويد ، مثلاً ، كان قد نشأ في مجتمع (الأب الألماني) . غير ان هناك شواهد كثيرة وكلها تشير الى ان في منتصف القرن العشرين وما بعده ، تشير هذه الدلائل الى أن الأم ، وليس الأب ، هي الشخص المسيطر في الوسط الأسري الذي فيه أشخاص يبلغون الآن العشرين أو الخمسين عاماً من العمر ، وإن علاقاتهم بها - بالأم - باتت تثير أعقد المشاكل ، وان معظمهم يعتبرون اسطورة أوريستس تعبر عن أعمق

خبراتهم في مسيرة حياتهم هذه . واني هنا لا اتحدث عن خبراتي فحسب ، وانما استمزجت اراء معالجين نفسانيين آخرين ، وقد أعربوا عن خبرات مرت عليهم في عياداتهم عن أناس كشفوا عن مشاعر مماثلة لتلك التي المعت اليها . فالأبناء يريدون أن يكافئوا الأم لقاء حنانها عليهم ، فيبقى هؤلاء الأبناء مشدودين اليها ، ولكن يترتب على هذا عدم القدرة على تحقيق الذات من ناحية ، ومن ناحية أخرى يعجزون عن تكوين علاقات مع الناس الآخرين ، وهذا يكون نابعاً من عجزهم عن استثمار طاقاتهم وقواهم في محبة الآخرين ، لأنهم لم يتحرروا من اسار القيود اللاشعورية التي تشدهم الى الأم .

على ان اتكالية الابن على الأم يجب ألا تؤخذ على ان في الأمر مما يزري بمكانة الأم . ففي بلدنا ـ اميركا ـ ان سيرورة الحياة آخذة في التشبه بالنظام الأمومي ، وهذا يتضح اكثر في تأكيدات ادوارد ستريكر Edward Strecker ، المعالج النفساني المعروف ، ويناقش المحلل النفساني ، اريك اريكسون Erik Erikson ، يناقش في كتابه : **الطفولة والمجتمع** Childhood and Society ، أصول التطور الأمومي هذا ، ويشعر ان (الامومة هي ضحية خاسرة اكثر منها منتصرة ظافرة) ، وان الأم قد قسرت على تولي دورها هذا قسراً نظراً لطول غياب الأب عن البيت معظم الوقت واكثر أيام الاسبوع . فالأب ، ولعله بحكم ظروف عمله ، هو الذي تخلى عن مكانته في الأسرة فأخلى السبيل للأم . (فالأم قد أصبحت ذات سطوة لا شيء الاّ لأن الأب قد أصبح اباً روحياً فحسب) .

ان التعميم بشأن المرأة غير ممكن في ان تكون متسلطة أو انها تسعى الى ذلك بدافع الرغبة منها في هذا الاتجاه . بيد ان هذا لا ينفي بأن هناك جيلاً مشوشاً من الأمهات فينعكس ذلك على مظاهر علاقاتهن الأسرية ، وهذا مرده الى اسباب نفسية ـ اجتماعية . فالذين يأتون الى العيادات النفسية للعلاج تجدهم في الغالب من أسر تسلطت فيها الأمهات اللاتي كن يعانين من شيء كثير من الاحباطات ومن خيبة الآمال . ففي حالة كليتمنسترا مثلاً كانت قد

قالت انها فعلت ما فعلته (بدافع كراهية دفينة لا تعرفها منذ القدم) . ومن المؤكد فما من امرأة تجدّ مثلما فعلت كليتمنسترا في أن تمارس سلطة استغلالية ملحاحة ما لم يكن ثمة سبب معقول يكمن وراء ذلك ، ولعل من اسباب ذلك ودواعيه انها تشعر ، مثلاً ، في قرارة نفسها ان السبيل الوحيد لحماية ذاتها من معاناة المستقبل هو ان تتحكم في الآخرين . فهل المرأة اليوم كانت ، مثلا ، تتوقع الشيء الكثير من الرجل ، وانها كانت تمني النفس بآمال عراض ولكنها صدمت فأحبطت فراحت تلتمس التنفيس التعويضي في التسلط المتمثل في التحكم الخانق بالأبناء ؟

ان ارتباط الطفل بأمه هو ارتباط بيولوجي ونفسي واجتماعي . ولكن ما هي الحدود المقبولة لتحديد حقيقة العلاقات بينهما مدى الحياة ؟ ففي حالة الالهة التي أدلت بصوتها الترجيحي الذي اعفى أوريستس وخلصه من الأدانة ، هي الالهة أثينا التي قالت بألفاظها الخاصة : (اني لم أعرف رحم الأم التي ولدتني) ، ذلك لأنها بزغت كاملة تامة من جبين أبيها زيوس[٦] Zeus .

تطرأ على الذهن اسئلة شتى وكلها تتعلق بالحكمة التي جعلت الاغريق مثلاً يعبرون بصيغة الرمز الى ان الاهتهم اثينا تكون قد جاءت الى هذه الدنيا من غير رحم وانما هي بزغت من جبين أبيها . ومن تتولى الدفاع عن اوريستس ، فهي لم يسبق لها ان كافحت ضد بتر الحبل السري ، ولم يسبق لها كذلك ان عانت من الفطام النفسي ، وهي فوق هذا كله كانت الاهة الحكمة والفضيلة المهذبة ، فهل كانت ترمي الى تكريس (الجديد) في حياة الاغريق ؟

الطفل في رحم امه يغيض جنيناً ومن صدرها يتغذى وليداً ، واذن فإن علاقة الأم بطفلها هي دائماً علاقة احتفاظية بدلاً من ان تكون حيادية أو

---

(٦) كبير الآلهة عند قدماء اليونان كما تروي الأساطير . (المترجم) .

ارتفاضية ، وبين النقيضين يتولد ما يمكن ان يؤول الى التوتر والنزعة التشنجية . هل اراد كاتب المسرحية الإغريقي مثلاً أن يوجه الأنظار الى كوامن العلاقات الأسرية خروجاً على ناموس الطبيعة في الحياة الانسانية ؟ الفرد بطبيعته تتنازعه رغبتان : رغبة ، كما يقول التحليل النفسي ، تشده الى الحنين في التحرر والنضج والانطلاق وتأكيد معالم ذاته كشخص له كيانه الاجتماعي . لهذا تراه احياناً ممتثلاً للأم والأب والاسرة ، وتجده تارة جامحاً رافضاً لتقاليد الأسرة . وأياً كان الأمر ، فإن فلسفة الإغريق تلك يمكن للقارىء ان يؤلها كيفما شاء ، ولكن يحق لنا جميعاً أن نضع في الحسبان روح العصر والتطور التاريخي وفوارق التأثير البيئي .

ينصب اهتمامنا الآن على الكيفية التي استطاع بها هذا الفتى ـ أوريستس ـ بوصفه يمثل نمطاً للشخص الذي يعاني من صراع انفعالي ، استطاع أن يحقق حريته ليعيش كشخص ذي كيان . في غمرة جنونه ، بعد اتمام فعلته ، يهيم أوريستس في الغابة (مريضاً بأوهامه وتخيلاته ورؤاه) . ويروي جيفرز ان الفتى اوريستس قد عاد بعدئذٍ الى القصر في مسينيا ، حيث تدعوه اخته ، اليكترا ، ليكون ملكاً مكان أبيه . فينظر اوريستس اليها ذاهلاً مندهشاً ويسأل : كيف يمكنها أن تكون متبلدة بهذا القدر ، وهو الذي ، كما تعرف اخته ، اقترف أشنع فعلة بقتله امه ؟ كيف يكون ملكاً على مسينيا ويحكم من قصر أغاممنون أبيه ؟

انه قرر مغادرة المدينة . بيد أن اليكترا تحسب أن متاعبه نابعة من (حاجته الى امرأة) تكون بجانبه ، فتقترح عليه ان تتزوجه ، فيصرخ في وجهها : (انها كليتمنسترا في اهابك وتحت ثيابك) . ثم يوضح لها ان المتاعب برمتها تلك المتغلغلة في الطالع السيء والحظ العاثر لأسرتهم انما هو متأت من الزواج بالمحارم . وانه في كفاحه وهو في الغابة ، يتابع :

رأيت اشباحاً تتحرك في ظلام ،
وجلّ ما فعلناه او ما كان من احلام

اهتمام ببعضنا ، الرجل يتأثر[٧] بالمرأة ،
المرأة بالرجل تتلبب[٨] ، وثمة مقاتلون وملوك ،
في جوف الدجى يهصر بعضهم بعضاً ،
كل فريق وكأنه مع ذاته في كفاح
وكل امرىء من الأناسي التائهين
يلتمس في احداق غيره ويرتجي الثناء من سواه
ليس ذاته ملتمساً بل ذاتاً سواه
وكل حين يرنو الى الوراء
فلا يلمح الا فرداً وحيداً شاخصاً في الابتداء ،
أو حين يشرئبون الى امام
فلا يرمقون الّا رجلاً في آفاق الانتهاء ،
وحين تشخص الابصار الى علٍ ، ترى رجالاً
ثمة في السماء الصافية القارصة ، يغذون الخطى حافلين
(رجال) ممن بالقديسين متشبهين . . .
ويلمح البصر كل شيء الى الداخل انكفأ ،
وكل رغابك في سفاح المحارم وهجها انطفأ[٩] .

عقد أوريستس العزم ، بالنسبة لذاته ، انه (لن يكون في داخله مقفراً خاوياً) . واذا كان لا بد له من ان ينزل عند رجائها ، مخاطباً أخته ، فإنه يوافق على البقاء في مسينيا ، ولكنه سيكون (أشبه بصخرة تتحرك) ـ يكون قد زيّف طبيعته الفريدة ككائن وانه سيتحول الى جماد ، وانه ليحاول ان ينأى بذاته عن الخواء والجمود والركود . وانه لن يداني الزواج من المحارم . وهو بهذا يستلفت الانتباه ، بالعزوف عن زواج المحارم ، الى ان تنمو ذاته الى

---

(٧) يتتبع الخطوات . (المترجم) .
(٨) تتشبث بتلابيبه . (المترجم) .
(٩) سبقت الاشارة الى ذلك من قبل . Robison Jeffers (The Tower Beyond Tragedy)

خارج قوقعتها ، يوجه حبه الى خارج نطاق ذاته . مستقبحاً الزواج من المحارم ، ها هو أوريستس ينهي قوله بعبارة يمكن ان تلبث يتردد صداها في أروقة العصور بوصفها هدفاً من اهداف التكامل النفسي الانساني : (ها أنني قد وجهت حبي الى خارج ذاتي) .

ليس من قبيل المصادفة أن يردد اوريستس مصطلحات (داخل) و(خارج) وأن لا يستحسن (الزواج من المحارم). فالزواج هذا معناه ان يبقى الفرد منكفئاً على ذاته مشدوداً الى (داخل) فلا يستطيع التخلص من ربقة ذلك ولا الامتداد الى (خارج) حدود الذات . وبالتالي فإن الحب يصبح مهيض الجناح فلا يتجاوز حدود الذات الى غيرها من سائر الناس . فمن حكمة السماء ان وضعت حداً للزواج من المحارم وذلك صوناً لكرامة الانسان[١٠] . ان التطور لدى الانسان يجب أن يشمل الجانب الروحي بالاضافة الى النواحي العضوية والأخلاقية والاجتماعية .

ان تحريم الزواج من المحارم قد وجدت حدوده تقريباً في كل مجتمع يتمتع بمزية نفسية ـ اجتماعية سليمة ، بمعنى انه يمهد السبيل الى (دم جديد) ويستحدث (مورثات جديدة) ، وبعبارة ادق ، انه يفضي الى توسيع نطاق امكانيات التغيير والتطوير . ان منع الزواج من المحارم يجعل هناك تمايزاً اكبر في التطور البشري ، وبالتالي فإنه يفضي الى ضرب من ضروب التكامل لا تتوفر عناصره من خلال الشيء ذاته اذا بقي منحصراً في نطاق ضيق ، وعندما تتسع دائرة انتشاره ، فإنه في تطوره يتوفر على أرقى مستوى مرتقب .

الكفاح ضد الاتكالية

من الواضح ، ان مغزى مسرحية أوريستس لا تعني ان على كل فرد ان يتناول بندقيته ليقضي على أمه . بل ان ما ينبغي ان يُقضى عليه ، كما بينا من

(١٠) الاسلام فصل في ذلك وانذر ورسم الحدود الواضحة بلا لبس ولا تغبيش ، بحيث بصّر كل انسان بما يجب ان يأخذ وبما يجب ان يدع . (المترجم) .

قبل ، هي العلائق الطفولية الخاصة الحافزة الى الاعتماد والاتكالية التي توثق من رباط انشداده الى أبويه ، الأمر الذي يحد من حريته فتحول بينه وبين ازجاء المحبة خارج حدود ذاته مما يمنعه من ايجاد ذاته كما ينبغي ان تكون عليه من الاستقلالية المبتغاة . وهذا ليس بالعمل الهين البسيط بحيث يمكن المبادأة به بتصميم مفاجىء ، ولا يمكن انجازه من خلال انطلاق غير مسؤول للحرية ، كما لا يمكن تحقيقه عبر انفجار ينبع من ذات المرء ضد أبويه . ان مسرحية اوريستس تمثل في الواقع عملية رحلة شاقة وطويلة على طريق التطور ، انها تعني اعادة تربية في سبيل ايجاد استبصارات جديدة من اجل اتخاذ قرارات شعورية ذاتية . انها تعني تخلص الفرد من قيود لا شعورية تقف حائلاً بينه وبين توظيف قدراته في مجال العمل في أي ميدان من ميادين الحياة . وقد كشف التحليل النفسي عن خطورة الاصفاد التي تكبل النفس الانسانية حينما تصبح مرتعاً للقلق الحاد .

فمسرحية أوريستس ومسرحية هاملت تمثلان كفاحاً ضد ما هو غير مألوف ، وضد صراع الضمير ، وضد الاحساس بالذنب ، وضد دواعي الغدر والخيانة . فكل من ايسخيلوس وشكسبير ، قد حاول ، بطريقته الخاصة ، اظهار عوامل صراع ينطوي على تناقض وجداني ambivalent يستعر بين ضدين : الشجاعة والخور المشحون بالتردد ، بين الإقدام والإحجام . اذ ان كفاحات كهذه كانت في واقعها ذاتية داخلية بيئية وخارجية ، والخارجية منها يكون مصدرها في الغالب سوء المعاملة القاسية ولاسيما في جو الأسرة إبّان الطفولة المبكرة . وكل ما يصدر عن البيئة انما يستدمج في ذات الطفل فيطفح بعدئذٍ في سلوكه . **فالكفاح من أجل أن يصبح الشخص شخصاً يبدأ من داخل الشخص ذاته** . وان المعركة النفسية الحاسمة التي علينا ان نشنها هي معركة ضد حاجاتنا الاتكالية التي غالباً ما تغرينا بالتواني والتلكؤ . وقصارى القول ، هو ان الصراع في ذات الفرد ، الصراع الاساسي ، هو ذلك الذي يشتد أواره بين ذلك الجزء الذي يسعى الى

النمو والتواصل والصحة لدى الشخص ، وبين ذلك الجزء الذي يرغب في ان يبقى على مستوى من عدم النضج والفجاجة ، ذلك الجزء الـذي يحنّ الى الحماية والدلال من الأم بوجه خاص .

مراحل الشعور بالذات

ثمة مراحل شتى يمر بها الشخص وكلها تتمخض عن شعوره بالذات . واولى هذه المراحل هي مرحلة **البراءة** innocence لدى الرضيع قبل ان يتكون عنده شعور بذاته . وثانية هـذه المراحـل مرحلة **العناد** rebellion ، وهذه المرحلة تلحظ بوضوح اكثر لدى الطفل في ما بين السنة الثانية والثـالثة من العمـر ، أو عند المراهق ، وتنطوي عـلى التحدي defiance والمخـاصمـة hostility وشيء من العناد والعداء ، كما ظهرت في اقصى اشكالها من اشكال التطرف عند اوريستس في كفاحه من اجل الحرية والشيء بالشيء يذكر وحمل النقيض لا يستكثر ، ينبغي التأكيد على التفريق بين الحرية والعناد . فعناد يبديه المرء لأمر ما لا يعني انه يؤكد حريته ؛ كما يجب التمييز بين عناد بريء يصدر عن طفل غرير وبين عناد يتعمده فرد كبير لحاجة في نفسه .

والمرحلة الثالثة يمكننا ان نسميها مرحلة الشعور الاعتيادي بالذات The ordinary consciousness of self . فيوسع المرء في هذه المـرحلة ان يرى أخطاءه ويتبينها الى حد ما ، ويستـطيع أن يلتمس الأعـذار ويجد المـبررات لتغرضاته وانحيازاته ، وأن يستخدم احساساته بالـذنب وبالقلق كخـبرات يتعلم منها ، ويقدر ان يتخذ قراراته بنفسه مع شيء من الشعور بالمسؤولية . وهـذا هو مـا يعنيه معـظم الناس حينـما يتحدثـون عن الحالـة السليمة في الشخصية .

وهناك حالة رابعة من الشعور بالذات يصطلح على تسميتها بالحالـة الاستثنائية او المرحلة الاستثنائية extraordinary الخارقة . فهي استثنائية لأنها قلما يمرّ بها اناس كثيرون كخبرة نافعة في الحياة . وهذه المرحلة أوضح ما تكون

تجلياً عندما يلتقط المرء تبصراً مفاجئاً بمشكلة معينة ـ يلتقطها على حين غرة ، فتبدو له في ظاهرها كومضة وكأنها آتية من مكان مجهول ، فكأنها تأتي جواباً على سؤال كان المرء منذ أمد يكد ويسعى من اجل العثور عليه . والجواب يبزغ مما ندعوه بمستويات شبه الشعور subconscious في الشخصية . وان شعوراً كهذا يمكن ان يحصل في النشاط العلمي او الروحي او الفني على حد سواء . ويعبر عنه بالمفهوم الشائع بـ (بزوغ) dawning الأفكار او يعبر عنه بـ (الالهام) inspiration . وهذا المستوى من الشعور متوفر في جميع الأعمال الابداعية . ويتأتى على صورة استبصارات وامضة ، وقد يأتي عن طريق الأحلام ، او في لحظة من لحظات الاستغراق في احلام اليقظة البنّاءة ، حينما يكون المرء مستغرقاً في التفكير حول شيء ما .

فماذا ينبغي لنا أن نسمي هذا المستوى ؟ أيسمى (شعوراً موضوعياً بالذات) ، كما يصطلح عليه في بعض ضروب التفكير الشرقي ، جراء ما يتيحه من ومضات تنفذ الى الحقيقة الموضوعية ؟ أم نسميه (شعوراً فائقاً متجاوزاً حدود الذات) Self-surpassing consciousness ، كما نعته نيتشه ؟ أو تدعوه (الشعور المتسامي للذات) Self transcending consciousness ، كما يسمى في التقاليد الأخلاقية والروحية؟ واني هنا لأقترح مصطلحاً اقل دراماتيكية ، ولكنه لعله في وقتنا الراهن ، اكثر تقبلاً وارضاء ، الا وهو : **الشعور الأبداعي بالذات** creative consciouness of self .

ان المصطلح النفسي الكلاسيكي لهذا الوعي بالذات هو الوجد[١١] ecstasy . والكلمة بمعناها الحرفي هنا تعني (وقوف المرء خارج نطاق ذاته) واستشرافها في مكان متسامق . اي : ان يلمح منظراً ، او ان يجرب شيئاً ما ، من آفاق هي خارج اطار وجهة النظر الذاتية الاعتيادية المحدودة

---

(١١) المعاني القاموسية لكلمة ecstasy هي : ابتهاج ، بحران ، نشوة ، لكنها كلها لا تفي بالمعنى المستراد هنا ، والوجد في تراثنا تجمع بين الجانبين الروحي والفلسفي . (المترجم) .

الضيقة . فما يراه الشخص من حوله من اشياء تكون عادة مقيدة بحقيقة رؤيته الذاتية . ان ما نراه يبدو لنا موضوعياً ، لكننا نفسره على وفق خبراتنا واهوائنا الشخصية ومن خلال عالمنا الخاص بكل منا . اننا دائماً مجبرون ، أي مضطرون اضطراراً قسرياً ، على ان نشطر الرؤية شطرين : ذاتية subjectivity وموضوعية objectivity . والمستوى الرابع هذا يتضمن في عناصره الاستبصار insight والحدس intvition ، وكلها روافد ترقى بمراتب الابداع وفق تدرج الى الذرى . فخذ مثلاً قول روبنسن جيفرز ، وهو ينطق اوريستس خلال تجواله في الغابة بعد فعلته تلك :

. . . لم يبتكروا له المفردات بعد ،
انه فيما وراء الأشياء ، انه عبر الزمان والمكان ،
انه في كل الأشياء ، انه في كل الأزمان . . .
لكي اصف فخامته فمن أين لي البيان
ما وجدت ورأيت ، فذلك لا لون له بل هو سطوع ؛
ليس برحيق هو بل وجد . . . لا رغبة هو بل
مأثرة واستنجاز ووئام ، لا هوى هو بل سلام .

سبك جيفرز مقطوعته هذه على لسان اوريستس ، ودرءاً للالتباس ، فإنه يمكن القول بلغة علم النفس ، انها ببساطة مرحلة قد مرّ بها اوريستس هذا حينما رأى الناس في مسينيا ، ولاسيما الرجال منهم ، لا يرون في أعين الناس الآخرين الا انفسهم . ورأى ان (الجميع منكفئون على دواخلهم) ، غارقون في اسقاطاتهم الممتزجة بتغرضاتهم وتحيزاتهم ، والتي يسمونها ، بدواع من غرورهم ، (الحقيقة) . وحينما يكون المرء (متجهاً الى خارج) ذاته ، فإن ذلك يعني انه يخترق بخياله وراء ما يعرفه ويمتد بخياله هذا الى ما وراء معرفته في اللحظة التي هو فيها . فالانسان يحقق ذاته عندما يتجاوز حدود ذاته الى آفاق أرحب . وحياة الانسان في تحقيق ذاته مرتبط أوثق ارتباط اذ ان الحياة في ديناميتها (منهمكة في حالتي تخليد ذاتها وتخطي معوقاتها) ؛ هذا ما قالته

سيمـون دي بفوار Simone de Beauvior ، التي اضـافت في كتابهـا : في الاخلاق on Ethics ، (. . . ان وجود الانسان فيها يصبح لا فرق بينه وبين حياة البلادة والخمـول المنافي للعقـل) ما لم يبـدع الانسان تحقيقـاً لوظيفـة وجوده . لهذا فإن الرتابة تخنق صوت الابداع وتبلّد العقل ، مما يسدل غلالة على قدرة تحقيق الذات . فتحقيق الذات يجعل المرء يحس وكأنه في لحظة من لحظات حياته قد ارتقى قمة جبل فراح يسرّح الطرف في ارجاء حياته من ذلك الأفق الفسيح وهو يشخص ببصره صوب اللا نهاية . وبذلك تعرض الحقيقة نفسها امام انظارنا ناصعة غير مغلقة ، فنكون بذلك قد أحببنا غيرنا مقابل حبنا لذواتنا ، ونكون قد ابدعنا في حالة الوجد ونحن منهمكون فيما نحن عاملون . ففي المستوى الرابع هذا ـ الوجـد ـ يكون ثمـة نوع من نكـران الذات عند هذا المستوى من الشعور . لكن تعبير (نكـران الذات) هـذا ضعيف لا يفي تماماً بالغرض المنشود . وبمعنى آخر ، ان هذا هو اقوى حالة من حالات الانجاز في وجود الانسان في الحياة .

والابداع يتجلى عندما يكون المرء في حالة استبصار واسترخاء . فالتوتر يحجب عادة ومضات الفكر وما يمكن ان ينقدح عنه من قبسات استنارة . فالهدوء والارتخاء من شرائط شعور الذات الابداعي الذي كان يتمتع به غوته Geothee وعنه تكلم نيتشه بقوله : (روّض ذاته في كل ما له تمام الاكتمال ، انه قد ابدع ذاته . . . ومن يمتلك روحاً كهذه فيصبح حراً يقف في خضم هذا الكون مؤمناً بالقضاء والقدر وهو واثق ومبتهج . . . مطمئن بالايمان . . . انه لن يجحد بعدُ ولن ينكر) .

القسم الثالث

أهداف التكامل

الفصل الخامس
الحرية والتكامل الداخلي | الذاتي |

ما الذي عساه أن يحلّ بالفرد ان هو استلبت منه حريته تماماً وبشكل واقعي ؟ اننا سنبلغ غاية هذا السؤال عن طريق ابتناء حكاية رمزية خيالية . والحكاية الرمزية ذات المغزى الاخلاقي هذه يمكن ان نسميها :

الرجل الذي احتجز في قفص

في احدى الامسيات ، كان هناك ملك واقفاً امام نافذته يطل منها ، وكان ينصت الى صوت موسيقى خافت ينبعث من عبر الممر آتياً من جهة غرفة الاستقبال في الجناح الآخر من القصر . وكان الملك مرهقاً من كثرة الاستقبالات الدبلوماسية التي كان قد حضرها في ذلك اليوم ، وقد أطل من النافذة يتأمل العالم من حوله بوجه عام وليس بشكل خاص ولا على التعيين . واذ هو في استغراقه ذاك لمحت عينه رجلاً في الساحة اسفل القصر ـ كان يبدو على الرجل انه من عامة الناس ، وكان يسير باتجاه زاوية الساحة يهم بركوب حافلة (tram) عائداً الى بيته ، وكان ذلك الرجل يسلك الطريق نفسه خمس أمسيات في الاسبوع ومنذ عدة سنين. فراح الملك يتابع ذلك الرجل بعين الخيال ـ متصوراً اياه قد وصل بيته ، وقبل زوجته قبلة عابرة ينقصها شيء من الحماس ، وقد تناول وجبة عشائه متأخراً ، مستفسراً عما اذا كان كل شيء على ما يرام فيما يخص الاطفال ، ثم قرأ الصحيفة ، وتوجه بعدها الى الفراش ،

ولعله راح يتبادل الاحاديث مع زوجته ، احاديث تسليه وتطرد متاعب يومه ، وقد لا يكون الأمر كذلك ، وربما استسلم لنوم عميق ، ثم استيقظ في صباح اليوم التالي ، فخرج متوجهاً الى عمله ثانية .

وهنا طرأت للملك فكرة غريبة أبعدت عنه التعب ، ألا وهي : (اني لأتساءل : فما الذي عساه ان يحصل لو احتجز انسان في قفص ، كما هي الحال بالنسبة للعجماوات في حديقة الحيوانات ؟) .

لذلك عمد الملك في اليوم التالي فأرسل يطلب احضار مختص بعلم النفس يؤتى به اليه ، وقد اطلعه على فكرته ، وطلب اليه ان يرعى التجربة ويهتم بها اهتماماً علمياً ؛ ثم امر الملك بأن يحضر من حديقة الحيوانات قفص ، ثم جيء بذلك الرجل المذكور ، فألقي فيه وأحتجز هناك .

كان الرجل ذاهلاً ، مرتبكاً تماماً . كان باديء الأمر مندهشاً لا يعرف لما حصل له سبباً ، وراح يردد على مسامع النفساني الواقف خارج القفص ، (أطلقني ، يتعين عليّ ان ألحق بعربة الترام قبل فوات الأوان ، يجب عليّ أن ألحق ببدء الدوام في عملي ، لاحظ الوقت وانظره كم هو الآن ، سأكون متأخراً عن العمل !) ولكن بعدئذٍ ، وقد مضى نصف النهار ، بدأ الرجل يدرك مع شيء من الهدوء والاتزان ، بدأ يدرك ما كان يجري ، راح عندئذٍ يحتج بشدة ومعترضاً بقوله : (لماذا تفعلون هذا بي ، ان هذا لظلم ، ان هذا ضد القوانين ومنافياً لها) . كان صوته في داخل القفص مجلجلاً وعيناه تقدحان بشرر الغضب .

وخلال بقية أيام الاسبوع أخذ الرجل المحتجز في قفصه ، يتابع احتجاجاته الغاضبة . وعندما كان الملك يمر امام القفص ، كما اعتاد على ذلك ، كان الرجل المحتجز يوجه اليه احتجاجاته رأساً . لكن جواب الملك كان : (انتبه هنا ، انك وانت في مكانك هذا تحصل على كمية كافية مما تحتاج

اليه من طعام ، وانك تنام على فراش وثير ، ثم انك لست مكلفاً بأي عمل تقوم به . واننا نرعاك خير رعاية ـ واذن فعلامَ أنت تعترض ؟)

وبعد ذلك بأيام أخذت احتجاجات الرجل تخف رويداً رويداً حتى تلاشت تماماً . فكان يُرى صامتاً داخل قفصه ؛ يرفض الكلام والتحدث بوجه عام . غير ان النفساني كان يرى في عينيه كراهية تتأجج أشبه بالنار المضطرمة تحت الرماد .

وبعد مضي عدة أسابيع لاحظ النفساني ان الكراهية المتأججة ـ أخذت الآن تبدو وتتبدى اكثر فأكثر ولكن بشكل آخر ، فكأن الرجل كان في حالة تأمل بعد ان تذكر قول الملك له بأنه مكفي الطعام وانه يحظى برعاية طيبة وانه تحت عناية جيدة ، وشيئاً فشيئاً خف الحقد من عينيه ، فكان يسأل نفسه : هلا كان قول الملك صحيحاً !

وبعد مضي عدة أسابيع أخرى ، جعل الرجل يتناقش والنفساني كيف أنه يمكن أن يكون الشيء مجدياً اذا ما توفر للمرء الغذاء ، والمأوى ، وان على الانسان ان يتعايش وقدره المحتوم على اية حال كان هو ، وان شطر الحكمة هو أن يتقبل المرء قدره ومصيره . ولهذا فعندما قدم في احد الأيام جماعة من الاساتذة مع طلبتهم من الدراسات العليا لمشاهدة الرجل الموجود في القفص ، كان متودداً اليهم وأخبرهم انه هو بمحض اختياره وارادته اختار هذه الطريقة في العيش في حياته ، اذ ان فيها من الفضائل الجمة لما توفره من الأمن والأمان والعناية ، بحيث انهم كانوا يلحظون عليه كان يبرر كم كان معقولاً السبيل الذي اختاره . . . الخ . مما جعل النفساني يفكر فيه ويقول في قرارة نفسه : ما اغربه ! وما ابلده ! انه الآن يلح باصرار ليحمل مشاهديه الزائرين على استحسان طريقة حياته !

وفي الأيام التالية ، عندما كان الملك بالمصادفة مثلاً يتنزه في فناء القصر ، كان الرجل يتودد اليه من خلف قضبان قفصه ، شاكراً له تلطفه

وشاكراً له على المأكل والمشرب . ولكن عندما لا يكون الملك في فناء قصره متنزهاً ولا يكون النفساني قريباً منه ، كان يبدو على الرجل انـه واجم وانه محزون . وعندما يناوله الحارس الطعام والماء من خلف القضبان كـان يبدو مرتبكاً رعبالاً ، وانه كان يشعر بالحرج جراء رعبلته تلك . لكن فلسفته التي كان يحدث بها غيره وملخصها ما أطيب أن يكون الانسان مكفي المؤونة ، تدنت مفرداته في المخاطبة الى مجرد جمل بسيطة مثل (انه القـدر) ، وراح يكرر هذه اللازمة مراراً وتكراراً ، او انه يتمتم مع نفسه بكلمات ليست بذات دلالة ، مثل : (انه . . .)

لاحظ النفساني ان وجه الرجل ذاك كـان يبدو خـالياً من اي تعبـير معين : لم تعد ابتسامة التودد بادية عليه ، بل كانت ابتسامته تبدو خالية خاوية لا معنى لها ، كما هي الحال في التكشيرة التي يبديها الطفل الصغير ولا مغزى لديه من ورائها ، او حينما يبديها عندما يكون متضايقاً من غازات تضغط على جدران معدته . كان الرجل شارد الذهن ، يتبادل مع النفساني كلمات قليلة ثم يحجم عن الكلام ، وكانت نظراته تائهة مبهمة يتناول طعامه بوجوم ، كان ينظر الى النفساني ولكنه كان يبدو وكأنه لا يراه . فعيناه مسمرتان باتجاه بعيد .

لم يعد الرجل الآن قط يستخدم كلمة (انا) في محادثاته العابرة . انه تقبل وجوده في القفص . لم يعد يبدو عليه شيء من غضـب ، ولا كراهية ، ولا تبريرات ، لكنه أصبح الآن مجنوناً insane .

في تلك الليلة جلس النفساني الى مكتبه محاولاً كتابة تقرير ختامي عن التجـربة ـ ولكن الكلمات استعصت عليـه ، فلم يكن بمقدوره استحضـار شتات افكاره ، ذلك لأنه أحس في اعماق نفسه بخواء كبير . فراح يطمئن نفسه بكلمات مثل (إنهم يقولون انه ما من شيء قط يذهب هباء او يطويه الضياع ، وان المادة تتحول الى طاقـة ثم تتحول الى مـادة تارة اخـرى) . لكنه ، وهو في غمرة اعداده ذلك التقرير ، كان يحس بأن شيئاً ما قد ضاع

وتم استلابه من الكون من حوله ، ان ذلك الشيء المجهول قد ضاع ابان اجراء التجربة تلك ، فلم يبق هناك الاّ العفاء واليباب !

الضغينة والاستياء ثمناً للحرية المنكورة

نقطة واحدة يمكن ملاحظتها عند الرجل في الحكاية المذكورة آنفاً ، تلك هي الضغينة التي جاشت بها نفسه عندما ادرك انه محتجز رغم ارادته . وحقيقة لا غبار عليها هي أن هذا القدر الهائل من الضغينة الذي يتولد لدى الناس حينما يفسرون على ان يتخلوا عن حريتهم ليبرهن على أن هناك شيئاً في حياة الانسان لا يمكن غمطه ذلك هو : كم هي أساسية قيمة الحرية بالنسبة الى الفرد ؛ شريطة ان تكون حرية مسؤولة تعزز من معناها بفعل التصرف بها على نحو حصيف . وهنا نقطة تربوية ـ نفسية ـ اجتماعية لا مندوحة من الاشارة اليها . ان الطفل خلال فترة طفولته يضطره الأبوان الى التخلي عن كثير من حريته ، فيحدان من نشاطه ومن حركته ومن كثير من رغباته ، وهو مجبر الى الاذعان اليهما ليحافظ على شيء من مكانته لديهما ولكي يحظى بحمايتهما له ، لكنه في دخيلة نفسه يحس بكثير من الضيق والضغينة والاستياء ازاءهما . فهو يستسلم (متكيفاً) اما خائفاً او انه يطمع بشيء يعوض عليه عن حريته المشلولة ، لكن تقبله للموقف هذا لا يعني انه مغتبط من اولئك الذين اجبروه على التخلي عن حريته التي يريدها هو لنفسه . والضغينة الحبيسة تكون في الأغلب بمقدار الضغط الواقع على الطفل . وهذا يصدق في كل مجالات الحياة . ففي حالة الاطفال مثلاً نلاحظ تظهر عليهم أعراض الرسوب في المدرسة ، او المرض الجسمي المفرط ، أو التبول في الفراش الذي يمتد احياناً الى ما بعد سنوات الطفولة الباكرة . والتفسير النفسي لنشوء الضغينة في نفس المرء ، هو لكي يستعيد التوازن الى ذاته بعد ان حرم من حرية يراها لنفسه وبتقديره هو . فالضغينة تنشأ وكأنها ثمن لحرية منكورة .

مما يترتب على احساس المرء بأنه غير قادر على التعبير عن حريته وانها

عليه منكورة ، ان يصبح من الصعب عليه الافصاح عن طاقاته وقدراته . والناس دائماً يتطلعون الى متنفس كتعويض عما يحرمون منه من حرية ولو بحدود مرسومة . ولنا من التاريخ المعاصر أمثلة دلت على كيفية كبت أنفاس الناس في المانيا الهتلرية وروسيا الستالينية . وكما هو موضح بجلاء في الرواية المعروفة بعنوان (العالم عام ١٩٨٤)[1] ، اذا ما شرعت حكومة بالحد من حرية الناس ، فعليها أن تمتص كراهيتهم فتضخها خارج اطار الجماعات ، والاّ فإن الناس سيبحثون عن متنفسات بديلة قد لا تكون مشروعة ، او انهم يصابون بالذهان الجمعي Collective psychosis ، او لعلهم يموتون موتاً نفسياً : اي يصبحون غير فعالين ، فلا يعودون يرتجى منهم خير . وكلما كان الامعان في الضغط اكثر ، كان الفرد او الجماعة الذين يوجه اليهم الضغط اكثر استمساكاً بهويتهم ومن ثم التنقيب عن بدائل توفر لهم حماية ذواتهم ، ومثال على ذلك ما ورد في رواية فوكنر[2] Faulkner عن الزنجي ووضعه وكيف ، كلماارغم ازداد تعنتاً لاثبات ذاته .

اننا لا نعني بطبيعة الحال ان الكراهية او السخط هما بحد ذاتهما شيء جيد ، ولا نعني ان الهدف من التطور هو ان يكره كل فرد أبويه او اولئك الذين هم في السلطة . ولا نقول ان العلامة الدالة على الصحة النفسية تتمثل في مقدار ما يبديه الفرد من كراهية نحو الآخرين ، اننا لا نقول بذلك ولا ندعو اليه . بل يجدر التأكيد على ان الضغينة والاستياء والكراهية والسخط ، انما هي انفعالات مدمرة ، وان علامة النضج هي في تحويلها الى انفعالات بناءة . وان توجه الانسان نحو التدمير فإنما هو على المدى البعيد يدمر نفسه . ولكن هذا يجب الا ينسينا حقيقة لا يمكن انكارها ألا وهي : كم هي مهمة الحرية للفرد على شرط صيانة قدسيتها .

---

(١) كتبها جورج اوريل مؤلف رواية (مزرعة الحيوان) الشهيرة ، واورويل كاتب انكليزي (١٩٠٣ ـ ١٩٥٠) ذو اسلوب ساخر . (المترجم) .

(٢) كاتب وروائي اميركي منح جائزة نوبل للآداب ، توفي عام ١٩٦٢ . (المترجم) .

بوسعنا ان نرى في كتابات كافكا ، كما في كثير من الأدب الحديث ، الصورة القاتمة للرجل الحديث المعاصر افتقد القدرة على أن يقف بوجه متهميه . ففي مسرحية المحاكمة The Trial ، كان الشخص الرئيسي فيها (ك) قد ألقي القبض عليه ، ولكنه لم يتم اخباره بأي شيء هو متهم . فكان يرسل من محكمة الى محكمة ومن قاضٍ الى آخر ومن محام الى ثان وهكذا ، وهو يشكو من هذا كله ، ويتساءل : هلا من أحد يفسر له اي ذنب هو اقترف . وكان مغزى ذلك هو تحطيم كرامة الانسان وزعزعة الثقة بذاته .

ذكرنا ان الضغينة والاستياء يمكن كبتهما ، لكن شيئاً مضاداً لهما يمكن ان يطفو على السطح . فقد تجد نفسك ، مثلاً ، تتصرف بأدب خاص حيال الشخص الذي تبغض . واذا كنت انت خالياً نسبياً من القلق ، فلعلك تحدث نفسك اثناء ادبك الشكلي هذا ، بما قاله القديس بولص St. Paul ، مجتزئين ما قاله : (أعامل عدوي بإحسان لكي يكوّم ركاماً من فحم النار على رأسه) . فالمرء بهذا يكون قد حقق جملة اهداف ، من ذلك مثلاً ، انه يكون امسك بخصمه مسكة ملاكم محكمة ، وانه يتخلص في الوقت نفسه من الضغينة والاستياء ، فإنه يكون فريسة لانفعالات هادمة لتوازن الشخصية ، او لعله في الأغلب ينكفىء على نفسه ويستسلم لندب الذات Self-pity . وندب الذات هذا هو الشكل (الاحتياطي) لكل من الضغينة والاستياء والحقد والحنق ، مما يجعل الفرد يجتر افكاره ويندب سوء طالعه فيعزف عن انجاز اي شيء نظراً لانشغاله بهمومه الوهمية .

ما ليس من الحرية في شيء

نستطيع ان نفهم الحرية بوضوح اكثر اذا ما وقع ما يخالفها . فحينئذ نفهم ان نقيضها ليس منها . الحرية ليست تمرداً . واننا لنصف سلوك الطفل الفج بأنه تمرد . فالطفل حينما يحاول ان يعبر عن استقلاليته اول مرة فيعاند ابويه قائلاً (لا) ، انما يريد ان يمارس قوته مظهراً قوة عضلاته ؛ قد يقال بأنه

ينشد حريته ، لكن الطريقة التي يتصرف بها لا تنم عن الحرية بمعناها الماثل في الأذهان . وفي فترة المراهقة نلحظ التمرد لدى المراهق ضد ما الفه الأبوان ، ويزداد تمرده كلما حاول ابواه ان ينصحاه ؛ وعلة تمرده واصراره على العناد انما تتأتى لأنه في عراك مع قلقه الذي يدفعه ليخطو باتجاه العالم المحيط به . وعندما يقول له الأبوان مثلاً (لا تفعل هذا) فإنه في الغالب يصرخ بوجهيهما صرخة التحدي ، ذلك لأن (لا تفعل) هذه هي تماماً ما يقوله الجانب الهياب المتردد من ذاته : جانب الذات الذي يغريه دائماً ان يحتمي وراء متاريس الحماية الوالدية ، وهذا ما يراه ، من وجهة نظره ، منقصة بحق نفسه في مثل هذا العمر ، مدفوعاً بنزوات المراهقة التي لها تفكيرها الخاص بها .

وكثيراً ما يخلط التمرد بالحرية . اذ يصبح التمرد ملتجأً زائفاً في وقت هبوب العاصفة ، لأنه يعطي للمتمرد احساساً وهمياً بأنه في الواقع مستقل الذات والرأي . وفي غمرة هذا الاحساس الوهمي ، ينسى ان هناك خارج ذاته توجد قواعد واعراف وقوانين وتوقعات ، وان هذه كافة هي التي تكوّن أسس البنيان الذي يسند ذاته . فعلى قوة البناء الخارجي تعتمد قوته وحريته . ومن هذه القوى المؤسسية تستمد الحرية ومنها تستعار ؛ ويمكن ان تسترد ، فهي اشبه بالقروض المصرفية التي تسترد في وقتها الملائم .

كثير من الناس يحدون من نشاطهم النفسي عندما يدركون انه عتو وانه يتنافى والمعايير الأخلاقية المتمثلة بالسلوك الاجتماعي العام . لكن الواقع ليس على هذه الشاكلة في مختلف الاوقات ولا في جميع البيئات . ولعل هناك من لا يرعوي وبخاصة عندما يجد أحياناً تشجيعاً له في بعض الأدبيات . ففي العشرينات والثلاثينات من هذا القرن مثلاً قد طغت موجة من التمرد وصادفت هوى من نفوس الذين أوغلوا فيها . وكأن مصدر التمرد ذاك متأتياً من روايات كتبها روائيون وقصاصون ، منهم مثلاً ، ف. سكوت

فيتزجيرالد[٣] F. Scott Fitzgerald ، في روايته : **هذا الجانب من الفردوس** This Side of Paradise ، ود. هـ. لورنس[٤] D. H. Lawrence في روايته : **عشيق السيدة شترلي** Lady Chatterley' lover والى حد ما سنكلير لويس[٥] Sinclair Lewis ، ففي روايات هؤلاء الكتّاب وجد بعض الشباب ضالتهم الى ما حسبوه تحرراً .

بعد أن جرب الناس مدى التدمير الذي يتركه التحلل من القيم والاندفاع وراء الأهواء والنزوات ، متخذين من الحرية ذريعة في ذلك ، زاعمين انه التحرر ، وجدوا أنفسهم في فراغ وارتباك . فبعد ان كانوا يظنون القوة والحرية في التحرر من المعايير المرتضاة ، عادوا يبحثون عن مصادر القوة والحرية في ثنايا ذواتهم وفي التقيد بما في المجتمع من أخلاقيات .

ان الحرية لا تعني الترخيص بعمل كل شيء وبفعل أي شيء . فهناك خطأ شائع ، ذلك هو خلط الحرية **بالتخبط** . ان الحرية يجب أن تكون موجودة في كل مجال من مجالات الحياة ، ولكنها تكون أسمى بضوابطها المستزادة . وهذه الضوابط تصدق في سياق التصرف الفردي ، وفي سياق الجماعة الاقتصادية ، وفي سياق القيم الاجتماعية .

الحرية كل لا يتجزأ . هذه حقيقة ما من أحد يستطيع ان ينكرها . فالحرية الاقتصادية والحرية الفكرية والحرية السياسية والحرية الاجتماعية والحرية الفردية والحرية الجماعية ، وسوى ذلك كثير ، كلها ضروب من الحرية ؛ لكنها كلها من صنع الانسان وانها الى الانسان تؤول . فالعالم اليوم هو أصغر مما كان ، وذلك بفضل وسائل التكنولوجيا الحديثة . لكن الانسان

---

(٣) كاتب اقصوصة وروائي اميركي ، توفي عام ١٩٤٠ ، يعتبر من ابرز ممثلي (الجيل الضائع) . (المترجم) .

(٤) روائي انكليزي توفي عام ١٩٣٠ . (المترجم) .

(٥) روائي اميركي منح جائزة نوبل في الآداب ، توفي عام ١٩٥١ . (المترجم) .

الحديث قد اسلم كلياً ، حريته الذاتية الداخلية وحريته الروحية ، اسلمها الى رتابة الانساق الجامدة ، بحيث ان الانسان اصبح المنافس الوحيد اقتصادياً لجاره ، على اساس انه يريد ان يثبت فرديته باسم حريته .

الحرية شيء حي . وان معناها ليتجسم جيداً من الكيفية التي ينسب فيها المرء شخصه ككل الى الجماعة من مواطنيه ، ومن الانسانية . الحرية تعني انفتاح المرء بنفسيته والاستعداد للنمو ، انها تعني كون الشخص مرناً ، وان يكون مستعداً لاحترام القيم الانسانية الكبرى ، اذ ان الانسان يعيش دائماً في عالم اجتماعي . ان هذا الكتاب هو في علم النفس ، وليس مكرّساً للاقتصاد او علم الاجتماع ، ولكننا نشير الى هذين العلمين ونلمع اليهما لمساسهما بحياة الفرد والمجتمع . واننا لنقترح ببساطة ان يكون مثلنا الأعلى الاجتماعي والاقتصادي يرمي الى ان يتمكن المجتمع من أن يمنح كل شخص فيه أقصى فرصة متاحة ليدرك ذاته ، وليطور طاقاته الفعلية ويستثمرها ، وان يعمل ككائن انساني ذي كرامة ، يعطي مواطنيه ويتلقى منهم . الحرية انما هي الفرصة المتاحة لإدراك اعظم القيم الانسانية .

ما الحرية

الحرية تعني قدرة الانسان على ان يتولى تطوير ذاته . انها قدرتنا على ان نندمج في ذواتنا . الحرية هي الجانب الآخر من الشعور بالذات . وما لم نكن قادرين على أن نعي حقيقة ذواتنا ، فإننا ستتحكم فينا الغريزة فتدعّنا دعّاً واننا بالتالي نستسلم امام مسيرة التاريخ الآلية ، فيكون شأننا بذلك شأن النحل تماماً . اننا عن طريق طاقة الشعور بذواتها ، نستطيع ان نستعيد في الذهن كيف تصرفنا بالأمس او في الشهر المنصرم ، وفي ضوء ذلك يصبح بوسعنا ان نؤثر ، حتى ولو الى حد قليل ، في كيفية تصرفنا هذا اليوم ، وان نتخيل كيف يمكن ان يكون مستقبلنا .

الشعور بالذات يمنحنا القوة للوقوف خارج نطاق القيود الجامدة

للمنبهات والأرجاع وردود الأفعال . اننا نتمكن من الثبات (الصمود) . وبهذا الثبات نستطيع ان نحقق شيئاً من التوازن الذاتي .

الرأي القائل بأن الشعور بالذات والحرية متلازمان ليتجلى في الحقيقة القائلة انه كلما كان ادراك المرء لذاته اقل ، كان عندئذ مقيداً اكثر . وبعبارة أخرى ، فكلما كان المرء اكثر تعرضاً للكف والكبت والاقترانات الشرطية السلبية ايام الطفولة ، وهي الاقترانات التي قد (نسيها) شعورياً ، لكنها ما برحت تدفعه دفعاً لا شعورياً ، كان مدفوعاً اكثر بقوى لا سلطان له عليها . فحينما يأتي الاشخاص للمساعدة العلاجية النفسية اول مرة ، مثلاً ، فإنهم يشكون بوجه عام من أنهم مدفونون بعدة طرائق وبعدة اتجاهات : من كل ذلك نتبين ان لديهم مقلقات ومخاوف مفاجئة او انهم يحسون بما يعيقهم عن العمل او عن الدراسة او ما هناك من اسباب لا يعرفون لها مصدراً ، يشعرون وكأنهم مكبلون بأصفاد لا شعورية .

وبعد بضعة أشهر من العلاج قد يبدأ بعضهم تظهر عليهم تغيرات ايجابية . فيبدأ الشخص باستذكار احلامه بانتظام ؛ او انه في جلسة علاجية واحدة يأخذ المبادأة بالاعراب عن رغبته في تغيير الموضوع المبحوث ، أو أنه يريد العون بشأن مشكلة مغايرة ؛ أو إنه يضحك بصورة تلقائية ، او انه يحب فلاناً ولا يميل الى غيره ، وسوى ذلك من الأساليب ، وهي على بساطتها ظاهرياً ، فإنها تنم عن بزوغ ادراك المرء لذاته .

لا ريب في ان هناك عدداً غير محدود من المؤثرات الحاسمة في حياة اي فرد . وان أنت رغبت في ان تجادل بأننا مسيرون بحتمية تكويننا ، وبمواقعنا الاقتصادية ، وبحقيقة كوننا ولدنا في القرن العشرين هذا ، وهلم جرا ، فإني لمتفق معك بلا مواربة ؛ وبمقدوري ان اضيف اموراً كثيرة بفعلها نكون نفسياً مسيرين ، ولاسيما تلك الميول التي لا نكون بها شاعرين . ولكن بصرف النظر عما يمكن أن يجادل به المرء دفاعاً عن وجهة النظر الحتمية ، فإنه يبقى ان عليه ان يعترف بأنه يتوجب عليه ان يدرك بأن ثمة مجالاً وحيزاً يمكن للكائن

البشري الحي ان يتحرك فيه وأنه ـ هذا الحيز ـ حافل بما يسيّر الانسان . وفي ضوء ادراك المرء يكون رد فعله ازاء العوامل الحتمية المسيرة له .

لهذا فإن الحرية تتجلى في كيفية ربطها بالوقائع الحتمية للحياة . فلو أنك شرعت في كتابة قصيدة مغناة (سوناتة) ، مثلاً ، فإنك تستحضر في ذهنك جميع ضروب شوارد الحقائق المتضمنة في قوانين السجع العروضية ، وتصطفي مواءمة الكلمات بعضها ببعض وبعضها مع بعض ؛ او في حالة عزمك على تشييد دار لك فإنك تهيء كل ما هو ضروري من مستلزمات البناء . لكن ما ينبغي عليك معرفته في حالة السوناتة انما يكمن بصورة فريدة في اعماق ذاتك انت .

ان المناقشات التي تتناول مسألة الحرية مقابل الحتمية ، انما هي مناقشات قائمة على أساس زائف ، شأنها شأن مَنْ يظن ان الحرية كأنما هي نوع من مفتاح كهربائي منفصل وقائم بذاته . الحرية جزء من كيان الفرد كله ومنها الارادة الحرة التي لا تقيدها قيود الانحرافات النفسية . فحينما تضطرب حياة المرء أو عندما تضطرب نفسه ، فإن معنى الحرية يضطرب لديه ، فلا يعرف لها قيمتها وقداستها . فالانسان الصافي النفس يخلص لمفهوم الحرية وبالتالي فلا يبدد وقته في مخاصمة الواقع ، بل انه ، كما علق كيركجارد ، على العكس من ذلك ، فإنه (يمجّد الواقع) .

لهذا فالحرية ليست مجرد القول : (نعم) أو (لا) بشأن قرار محدد ، بل الحرية قوة الذات ، وقوة الارادة على أن نكون متماسكين ، ان نستحدث قوة الابداع في انفسنا . الحرية هي القدرة على استدماج خبرات الحياة في تكويننا ، على ان (نكون حقاً على ما نحن عليه) ، على حد تعبير نيتشه .

الحرية والبناء التكويني للمرء

الحرية لا تحصل في فراغ أبداً ؛ انها ليست فوضى . وقد اكدنا من قبل على ان الحرية ليست سلعة تباع أو تُشترى . وكنا قد اشرنا الى ان الحرية

النفسية Psychological Freedom للانسان تنمو وتتطور ليس بوصفه كائناً يشبه (روبنسن كروسو)[٦] يقطن جزيرة مقفرة ، وانما هي تتطور بواسطة التفاعل المتواتر مع الاشخاص الآخرين الكائنين في عالمه . الحرية لا تعني محاولة العيش في عزلة . انها الاحساس بالمسؤولية في سياق علاقات الفرد بالعالم المحيط به .

وعندما لا يكون التكوين الشخصي رصيناً فإن ما يطرأ هو بروز نتائج مهلهلة . ونرى مثل هذه المترتبات شاخصة فيما يحاول بعض الكتّاب الكشف عنها في كتاباتهم التي يعمدون فيها الى الرمز او التصريح . فالشخصية الرئيسية في رواية جان بول سارتر ، المعروفة بعنوان : **عصر العقل** Age of Reason ، يبدو انها رسمت وكأنها تعمل في مجال الحرية ، ولكنها في الحقيقة تتحرك على وفق الهوى وفي مضطرب الحيرة التامة . والقصة كلها توحي بمعاناة الانسان من الفراغ والخواء . وكأن ما من أحد يهمه من أمره شيء . فكأن لسان كل واحد يكاد ينطق : من ذا الذي يأبه ؟ وفي ملحمته المسماة : **القفازات الحمراء** The Red Gloves ، يظهر سارتر بطل مسرحيته بأنه شخص يعقد العزم تارة ويتراخى تارات ، ويا لدهشته حينما يباغت ما ليس في حسبانه ، فيفقد السيطرة على حرية ارادته وينهار .

ليس من غرضنا هنا ان نسهب في تفصيل ما يتصل بشكل خاص بما ينبغي ان تكون عليه بنية علاقات المرء بعالمه الذي هو خارج حدود ذاته . فثمة اراء واتجاهات شتى . فالاغريق مثلاً ، اطلقوا على احدى الصيغ اسم (المنطق) ومنها جاءت كلمة (منطقي) ؛ واسماها الروائيون (القانون الطبيعي) ، وارادوا بذلك صيغة الحياة التي يحياها المرء ليكون سعيداً . وفي

---

(٦) شخصية خيالية ابتدعها الروائي الانكليزي دانييل ديفو ، كتبها عام ١٧١٩ ، عن شخص عاش في جزيرة نائية اثر غرق سفينته . تمثل القصة كيفية اعتماد الفرد على نفسه عندما تحدق به الملمات ، وكيف ان يستلهم الانسان الطبيعة ويعيش من اجل البقاء معتمداً على قدراته الذاتية . للقصة ترجمات كثيرة ومحاولات لتقليدها اكثر . (المترجم) .

القرنين السابع عشر والثامن عشر ساد الاعتقاد بهيمنة (العقل الكلي الشامل) Universal reason . والمفكرون عبر العصور نعتوا البنى وضروبها نعوتاً شتى . ان كل فرد ، شعورياً او لا شعورياً ، يتخذ لنفسه بنية ذاتية تكوينية يرتضيها وبمقتضاها يسلك . ولكن الحكم الاجتماعي يبقى هو المحك .

اختيار المرء لذاته

الحرية لا تأتي بصورة آلية ، بل هي يتم تحقيقها بالعمل وهي لا تتوفر بضربة لازب ، بل يجب تحقيقها بالسلوك والدأب في كل يوم وباستمرار . فهي كما عبّر عنها غوته في الدرس الأخير الذي وعاه عن فاوست :

(أجل اني بهذه الفكرة لأتمرس بإصرار أكثر ؛
وان غاية الحكمة لبالحقيقة تمهر :
وان من يكسب الحرية والوجود الأكيد
انه ذاك الذي يظفر بها في يومه من جديد) .

ان الخطوة الأساسية في نيل الحرية هي (اختيار المرء لذاته) choosing one's self . وهذه العبارة التي قد تبدو مستغربة هي صياغة كيركجارد ، وتعني تأكيد المرء مسؤوليته ازاء ذاته وازاء وجوده . انها تمثل الاتجاه المناقض للزخم الآلي أو الوجود الرتيب : انها تعكس اتجاهاً في الحيوية والحسم ؛ انها تعني ادراك المرء بأنه موجود في مكانه المحدد من الكون ، وانه يتقبل مسؤوليته ويتحملها من أجل وجوده . وهذا ما كان يعنيه نيتشه بقوله (ارادة الحياة) . انها تعني محافظة المرء على ذاته من اجل دوام الحياة واستمراريتها ، ويتوجب عليه ان يقرر خياراته بنفسه .

ثمة مثل توضيحي نجده في حياة الاشخاص الذين يكرسون أنفسهم الى مهمات معينة ، كالعناية ، مثلاً ، بشخص محبوب لديهم أثير ، او كإنجاز عمل مهم . فهذا النمط من الناس يمضون قدماً في تحمل الصعاب وكأنهم

مصممـون على أن يحيـوا لتلك المهام فقط . وبعـد ان تكون مهمتهم قـد استنجزت ، فإنهم يسيرون قدماً لمواجهة الموت وكأنهم قرروا ربط موتهم بما حقق لهم النجاح فيما ارادوا ، وكأن كل هذا قد تم بتصميم مسبق منهم . فكيركجارد مثلاً كان قد الّف عشرين كتاباً في غضون أربعة عشر عاماً ، اتمّ تأليفها في الثانية والأربعين من بواكير حياته ومن ثم ـ وبالكاد القول في الختام ـ لزم فراشه ومات .

الرتابة في الحياة لا تنتهي . ولا جدال في أن الانماط المتراكمة من الرتابة يجب اختراقها : وعلى المرء أبان ذلك ألا يفكر فقط بأسلوب الرتابة نفسه بأن ابويه انجباه وحسب ، وانه هو مجرد فقرة عابرة في بطاح هذا الكون ، وانه مجرد جزء من سلسلة السبب والنتيجة في قدومه لهذا العالم لينمو ثم يتزوج ثم ينجب اطفالاً ثم يهرم ثم يموت . ولما كان المرء يستطيع تقبل الموت ولكنه لا يفعل ذلك باختياره ، فإن كل عمل يقدم على اتخاذه يكون منطوياً على عنصر من عناصر الحرية .

وغالباً ما يمر الناس،حقيقة في زاوية من زوايا حياتهم، بخبرة الانتحار النفسي . وسنعرض هنا مثلين توضيحيين نأمل في أنهما يجعلان ما نرمي اليه أجلى . اولهما يمثل حالة امرأة تعتقد انها لن تستطيع العيش ما لم تتزوج من رجل بعينه يعشقها . وعندما يتزوج من غيرها تحدثها نفسها بالانتحار . وخلال فترة استغراقها في التفكير بالانتحار ، تروح تتخيل وتتحدث الى نفسها بالقول : (حسن ، فلأفترض انني نفذت ما اردت) ، لكنها فجأة يأخذ التفكير عندها مساراً آخر ألا وهو : (فلأفرض انني نفذت ما أردت فما الذي سيغيره هذا من وجه هذه الحياة ـ فالشمس ما برحت ولن تبرح تسطع كما هي ، والماء كان ولا يزال يبرد الجسـد ، والانسان مـا فتيء وسيبقى يعمل وينشط . . . الخ) وفي اضطرادهـا في سلسلة التفكير هـذا تصمم على أن تعيش . ولنفرض ان قرارها هذا قد اتخذ من جانبها لأسباب ايجابية وليس من جراء الخوف أو الخور ؛ فإن الصراع في الواقع يكـون قد منحهـا شيئاً من

الحرية الجديدة . فكأنَّ الجانب المتعلق بالرجل منها هو الجانب الذي كان يريد أن يقدم على الانتحار ، اما الجانب الأخر فتشبث بالحياة ، وكنتيجة لذلك فإنها بمقدورها ان تبدأ الحياة من جديد . وهذه هي الحياة المتنامية التي تصفها أدنا سنت فينسنت ميلاي Edna St. Vincent Millay في قصيدتها **الازدهار أو الانبعاث** : Renascence ، تقول فيها :

ها انا ذي من تراب قد خُلقتُ
وباسم هذي الارض قد هتفتُ
فما ذاك الهتاف الا من صوت البشر
كان ميتاً فأحيته قوة القدر[٧] .

ومثلاً آخر نتمثل به عن شاب يشعر انه لا سبيل الى ان يكون سعيداً ما لم يحرز شيئاً من الشهرة . فيشرع يدرك انه كفؤ وانه ذو قيمة ، ولنقل انه استاذ مساعد ؛ لكنه يتبين له انه كلما ارتقى السلم اكثر وجد هناك دائماً اشخاصاً ارقى منه ، وانهم قليل عديدهم الذين يظفرون بالشهرة ، وانه ينتهي به المطاف في التفكير لأن يكون محاضراً جيداً وكفوءاً. وربما خطر له انه طفق يشعر بأن لا أهمية له وأنه لا يساوي ذرة رمل ، وان حياته عديمة الجدوى ، وانه لا فائدة ترجى من حياته ولا من وجوده ، وعليه فلا ينبغي له ان يعيش . وحينذاك تبدأ فكرة الانتحار تدب في فكره وهو في حالة مزاجية قانطة . وسرعان ما يروح يفكر ايضاً في قرارة نفسه : (طيب ، هب انني فعلتها وأقدمت على الانتحار ـ وماذا بعد ؟) وعلى حين غرة تومض في فكره خاطرة تقول له ان الحياة حافلة بالكثير مما يمكن أن يعمله المرء حتى وان لم يحقق الشهرة . فيشق طريقه في الحياة بتصميم لكي يعيش من غير حاجة للشهرة . هنا يتبدى وكأن الجانب الساعي الى الشهرة عنده هو الذي كان ينحو باتجاه الانتحار . وبقضائه على جانب السعي للشهرة ، يبدأ يدرك ان

---

(٧) نشرت عام ١٩١٢ ، والمجموعة كاملة نشرت عام ١٩٤٠ . Harper and Brothers co.

ثمة منادح أخرى في الحياة بوسع الانسان ان يطرقها وان يحياها ويحقق من خلالها سعادته طبقاً لمعايير الرأي العام في المجتمع . وباستطاعته عند ذاك أن يتذوق اكثر من حكمة عابرة يمر بها فيرى فيها الجدوى من حياة الانسان ؛ وعلى حد تعبير أرنست هيمنغواي[٨] Ernest Hemingway (من ذا الـذي يطمع في الشهر وهو في نهاية الاسبوع ؟ اني احب ان اكتب على نحو جيد) . ومن خلال جوانب دوافع الانتحار عنده يمكنه ان يستشف أهدافه فيتوصل الى احساس بالمتعة تنبع من ثنايا تحقيقه لطاقاته ، من خلال قدرته على التوصل الى الحقيقة كما يراها هو فيضيف اسهامه الفريد المتأتي من جهده والنابع من تكامله ، فيكون بذلك قد عوض عما كان يرسف فيه من استخـذاء لهاتف الشهرة التي كان ينشد .

ولنا ان نؤكد هنا ان العملية الحقيقية في هذه الدراسات النفسية هي أشد تعقيداً مما تنطوي عليه هذه الايضاحات فبعض النـاس ـ وربما أغلب الناس ـ يتحركون في الاتجاه المعاكس حينما يتنكـرون لغرض او يغفلونـه ؛ فإنهم بسلوكهم هذا يتراجعون ، ويقيدون حياتهم ، فيصبحون اقل حرية . وثمـة جانب ايجـابي في ما يسمى بـ (الانتحـار الجزئي) ، وهـو الانتحـار المتضمن رغبة نفسية قد لا تتحقق ، ولعله يمثل ولادة شيء جديد في نفس من يحاول الاقدام عليه ، وهذا قانون قائم في الطبيعة بعامة ، وانه ليس بحكر على البشر قـط . فالمرء في قرارة نفسه قد يحاول قتل الجانب العصابي من ذاته ، أو الناحية الاتكالية لديه ، او التشبث بالجمود عنده ، لكنه سرعان ما يلمح انه قد عاد ليعيش ذاتاً جديدة اكثر مرونة وأوفر حرية مما كان عليه قبل محاولة الإقدام على الانتحار . فالمرأة التي حاولت الانتحار في مثالنا الأنف ، لم تكن في واقع الأمر تحاول الانتحار من اجل الحب قط ، بل كانت هناك تكمن فيها حالة من حالات التطفل والطفولية تقابلها رغبة في السيطرة على الرجل

---

(٨) روائي اميركي ، منح جائزة نوبل في الآداب ، انتحر عام ١٩٦١ . (المترجم) .

الذي تريد . اذ إن الرغبة في (الموت) والذي يمثل انفصال المرء عن ذاته يتبعها في الغالب تسام في الحياة : انه احساس متسام بالممكن .

عندما يختار المرء بكامل وعيه الشعوري ان يعيش ، فإن شيئين اثنين يترتبان على ذلك . اولهما ، ان مسؤوليته ازاء ذاته تكتسب معنى جديداً . فهو يتقبل المسؤولية نحو ذاته ليس من منطلق شيء مفروض عليه وكأنه به ملزم ومقيد ، او كأنه عبء عليه اضطر الى تحمله ، وانما بوصفه شيئاً اختاره هو بنفسه . ذلك لأن هذا انما هو موجود وكائن نتيجة لقرار اتخذه بنفسه من اجل الابقاء على حياته . فالحرية والمسؤولية يسيران جنباً الى جنب ، كما يدرك ذلك كل ذي بصيرة . فما لم يكن الانسان حراً فإنه يصبح كالآلة لا فرق بينها وبينه ، وما لم يكن الانسان مسؤولاً امام نفسه وامام العرف والقانون والنظام الاجتماعي ، فلا يكون عندئذٍ مؤتمناً على حرية . واذا ما تمّ الاختيار من جانب المرء بنفسه ، فإن المزاوجة تصبح عندئذٍ ممكنة بين الحرية والمسؤولية ، بل تصبح اكثر من كونها فكرة طريفة ومستحبة . انها تصبح بالنسبة اليه خبرة تنضح مع نبضه وتنفح مع حسه . فيكون قد اختار لذاته مع تنفسه الحرية والمسؤولية يتنفسهما مع كل نسمة من نسمات الحياة .

والشيء الآخر الذي يحصل في هذا السياق هو ان الترويض الذي يتم استقاؤه من خارج الذات : من البيئة عامة ، يتحول بدوره الى ترويض ذاتي - Self-discipline . يكون قد اختار الترويض هذا بملء حريته وبمحض ارادته . والترويض الطوعي هذا ضروري من اجل القيم التي يرغب في تحقيقها . والترويض الذاتي يمكن ان ينعت نعوتاً شتى ؛ فنيتشه ، مثلاً ، اسماه (حب المرء لمصيره وقدره) واطلق عليه سبينوزا (الاستجابة لقوانين الحياة) ، وسواء أزيّناه بزخرف الأوصاف أم جمّلناه بمعايير الخيال والتصورات أم سوى ذلك مما يراد ، فإني اعتقد ان في الأمر لدرساً يتعلمه المرء باضطراد وهو يجتهد توصلاً للنضج .

الفصل السادس
الضمير المبدع

الانسان هو (المخلوق[1] الوحيد الأخلاقي) ـ اخلاقي بالفعل والقوة in potentiality ، حتى وان لم يكن ، للأسف ، هو كذلك بالحقيقة . ان قدرته على الحكم الخلقي ـ كالحرية ، والعقل ، وسائر الصفات الفريدة الأخرى المتعلقة بالكائن البشري ـ انما تقوم على أساس من شعوره بذاته .

منذ سنوات قلائل خلت أجرى الدكتور هوبارت ماورر Hobart Mowrer في مختبر علم النفس بجامعة هارفرد ، تجربة صغيرة جديرة بالذكر . كان غرضه منها اختبار الحس (الأخلاقي) عند الفئران ؛ وهل كان في قدرة الفئران الموازنة بين النتائج الجيدة والسيئة في سلوكها ؛ وتبعاً لذلك فهل هي يمكن ان تحسن التصرف في النهاية ؟ وتتلخص التجربة في ان تلقى كرات صغيرة من الطعام تسوى على شكل قطع منتظمة صغيرة ، وتلقى امام الحيوانات تلك وهي جائعة . كانت الخطة تقضي بأنه يتعين على الفئران ان تتعلم نوعاً من اللياقة (الأتيكيت) في سلوكها وفي تصرفاتها ـ اي ان عليها ان تنظر ثلاث ثواني قبل البدء بالتقاط الطعام . واذا تعجلت احدى الفئران ولم تتريث ، فإنها تتلقى عقاباً يتمثل بصدمة كهربائية تسري خلال قاع القفص .

وعندما كان ينفذ العقاب مباشرة بعد التقاط الفئران الطعام بتعجل ،

---

(١) آثرناها ترجمة لكلمة animal التي لا تليق بكرامة الانسان ومكانته من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنها لا تتساوق ومنطق الأخلاق الذي يجري الحديث عنه في هذا السياق . (المترجم) .

فإنها سرعان ما تعلمت التريث (بأدب) ـ ومن ثم بعد التريث ـ تبدأ بتناول طعامها وتتلذذ به بسلام . أي انها تعلمت ، في تداخل سلوكها ، حقيقة مفادها : (انتظري لحظة والاّ فإن رغباتك ستصطدم بما لا يرضيك) . ولكن وجد ان العقاب اذا ارجىء فترة اطول ، ولنقل (٩) او (١٢) ثانية مثلاً ، بعدما تكون الفئران قد خرقت اصول اللياقة ، فإنها كانت تجد صعوبة في التعلم واكتساب قواعد ذلك النظام المطلوب منها . فقد وجد ان معظم الفئران لم تتعلم من العقاب ، بسبب الارجاء . انها صارت (منحرفة) delinquent ـ اي انها راحت تنهش الطعام اعتباطاً وبلا ضوابط ، غير عابئة بما يترتب على سلوكها ذاك من عقاب . او انها أصبحت (عصابية) neurotic ـ بمعنى انها إبتعدت عن تناول الطعام تماماً وبقيت جائعة ومحبطة Frustrated . والنقطة الأساسية هي انها لم تعد تستطيع ان توازن بين نتائج عمل شيء يأتي مستقبلاً وبين رغبتها في الطعام .

توضح هذه التجربة الصغيرة الفرق بين الانسان والفئران . الانسان بمقدوره ان يقدر ما يحصل (من قبل ومن بعد) . بوسعه ان يتخطى اللحظة المباشرة ؛ يستطيع ان يتذكر الماضي وان يخطط للمستقبل ، ولهذا فهو يختار الصالح الذي يكون خيره أعظم وأعم ، ويرجىء ما يريد الى حين ، حتى تؤتى اللحظة المواتية التي يراها افضل من غيرها ؛ اي ببصيرته يقدم الأهم على المهم . وهو في الوقت نفسه ، يشعر بحاجات الآخرين ورغباتهم ، وبوسعه ان يتصور نفسه انه بمكان غيره ، وبهذا يجعل اختياراته منسجمة مع غيره ، ومتوافقة مع ما لغيره وسواه من اختيارات . انه يستطيع ان يوائم بين صالحه وصالح الآخرين . وهذه هي بداية القابلية لدى الانسان ، وانها وان كانت ناقصة واحياناً بدائية ، الا انها عامة لدى الجميع ، ومنها يمكنهم ان (يحبوا الجار) ، وان يكونوا واعين للعلاقة بين افعالهم الذاتية وبين الصالح العام للوسط الاجتماعي .

فالكائن الانساني ليس بمقدوره أن يقوم بمثل هذه الاختيارات للقيم

فحسب ، بل هو المخلوق الوحيد الذي يحب ان يفعل هكذا ، اذا هو رغب في ان يحقق لذاته التكامل . ذلك لأن القيمة ـ وهي تمثل الهدف الذي اليه يسعى ـ يخدمه على أساس ، ان الهدف هذا انما هو دلالة اساسية ومركز نفسي ، وانه نوع من انواع جوهر التكامل الذي يجتذب الطاقات ، شأنه في هذا شأن قوة المغناطيس التي تجمع قوى خطوط المغناطيس في كيان موحد . ان معرفة المرء بما يحب انما يشكل الصورة الأولية لما ينبغي ان يتمثل في الشخص الناضج ، وهو ، بعد ، يمثل القدرة على اختيار المرء لنوعية قيمه . وان من امارات الانسان الناضج هي ان حياته تتداخل فتندمج في محور اهدافه التي اختارها بذاته وبمحض اختياره وارادته . اي انه يعرف ما يريد وما يحب ، ولكن ليس كما يحب الطفل المثلجات ice-cream ، بل كما يخطط بكامل وعيه ، مستهدفاً تحقيق علاقة ابداعية او تحقيق عمل يسعى اليه ومتوقعاً تضمينه قدرته الأخلاقية والابداعية. انه لا يعمل بمجرد الرتابة الآلية ، وانما لأنه شعورياً يعتقد بقيمة ما يعمل في هذا الاتجاه .

كنا قد رأينا في فصل سابق ان قلق الانسان ، وحيرته وخواءه ـ والامراض النفسية المزمنة لدى الانسان المعاصر ـ هذه كلها تحدث لديه لأن قيمه اضطربت وأضحت متناقضة ، فلم يعد لديه جوهر نفسي ولا هو يمتلك صفاء ذاتياً .

وفي المكان الأول ، فإن قيمك وقيمي ـ وما نواجه من صعوبات في توكيدها ، تعتمد كثيراً على روح العصر الذي فيه نعيش ، وعلى حقيقة طبيعته . ان الأمر دائماً هو كذلك . ففي عصر الانتقال transition والتحولات ، عندما تلازم الشكية او الشكوكية[٢] skepticism والشك doubt كل كرة ، فإن الفرد يكون في موقف يواجه مهمات أصعب . وان غوته ، وهو الذي لم تتوفر له فرصة قرع الطبول فيما يتعلق بالايمان بمعناه

(٢) مذهب يقول بأن المعرفة الحقيقية في حقل معين غير محققة او مؤكدة والفرق بين الشكوكية او الشكية وبين الشك هو ان الأولى نزوع الى الشك . (المترجم) .

التقليدي ، كتب يقول : (ان كل الحقب التي سادها الايمان ، أيّاً كان شكلها ، هي حقب مجيدة . وانها منعشة للآمال وهي ، بعد ، مثمرة في ذاتها ومجددة للرجاء . ومن ناحية اخرى ، فإن كل الحقب التي سادها الشك مهما كانت صيغة الظفر التي احرزها الانسان ، حتى وان كانت تلك الصيغة مملوءة بدواعي الزهو وبها مفعمة ، فإنها تفقد معناها . . .) .

فإذا كان غوته ، بألفاظه الجزلة هذه ، يعني بالإيمان Faith المعتقدات convictions المتغلغلة في ثنايا المناحي الاجتماعية ، فإن تقريره هذا ينطوي ، من الناحية التاريخية ، على جانب من الدقة . وما علينا في هذا الصدد الّا ان نستحضر في الذاكرة اليونان في عصر بيركليس[٣] Periclean Greece ، أو ان نستذكر وقت اشعيا[٤] time of Isaiah ، أو ان نتذكر باريس في القرن الثالث عشر ، او عصر النهضة في القرن السابع عشر ، لنتبين كيف أسهمت معتقدات كهذه في تجميع واستقطاب القوى الابداعية التي تجلت في تلك الفترات وتكشفت .

وفي الفترة الانتقالية ، او مرحلة التفسخ والانحلال disintegration phase من الفترات التاريخية ، كما حصل مثلاً في الفترة الهيلينية[٥] Hellenis- tic Period ، أو كما حدث في فجر الانحطاط من العصور الوسيطة twilight of medievalism ، نجد ان (الايمان) يؤول ايضاً هو الآخر الى التفكك والانحلال . وعندئذٍ يحدث ثمة شيئان بوجه عام . اولهما ، اننا نجد المعتقدات والتقاليد المتواترة في المجتمع تميل الى أن تتمحور فتتحول الى صيغ ميتة وبلا روح الأمر الذي يكبح حيوية المرء ويخمد نشاطه . لذلك كانت

---

(٣) سياسي اثيني عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ، بلغت اثينا في عهده اوج ازدهارها السياسي والثقافي . (المترجم) .

(٤) نبي يهودي من اهل القرن الثامن قبل الميلاد . (المترجم) .

(٥) الهيلينية : حضارة الاغريق وطرق معيشتهم في العصور اليونانية الكلاسيكية ، ويعتبر موت الاسكندر في عام ٣٢٣ قبل الميلاد خاتمة عصر الهيلينية، وتوصف بالهيلينية كل محاولة لاحياء المثل الاغريقية القديمة . (المترجم) .

الحياة ابان العصور الوسطى تلك كانت مجدبة خاوية وقد اعتراها الاضمحلال ، والشيء الثاني الذي يحصل في زمان كهذا من ازمان الانتقال هو ان الحيوية Vitality تصبح ذائبة فتفقد قوتها ونضارتها فتغدو اشبه بالماء المنسكب فوق الأرض ينساب بكل اتجاه .

أليست هذه هي مشكلتنا بشكل عام في الوقت الحاضر ؟ ألسنا نجد انفسنا متأرجحين بين اتجاهات دكتاتورية من جهة ، وبين حيوية ضالة لا وجهة لها من جهة أخرى ؟ واذا كان جميع القراء ينظرون الى التاريخ نفس التي آخذ بها أنا ـ ومن المحقق فإن التاريخ يفسر من زوايا مختلفة ـ فإن كل امرىء يتفق على أن اوقات الأزمات الاجتماعية ، كما نحن عليه الآن ، نجد الناس فيها يعانون من مشاعر (اللا انتماء) ، يشعرون وكأنهم لا جذور لهم ، فيجنحون يتشبثون بما يمكن أن يعيد اليهم شيئاً من الاطمئنان ، فتراهم يرنون ويتطلعون الى سلطة منقذة ، وتراهم يتمسكون بالمؤسسات الراسخة بوصفها مصدراً من مصادر الأمان وسط عاصفة قاصفة . واننا لنجد كما أوضح الدكتور لند والاستاذة لند في دراستهما عن المدينة الاميركية ـ مدلتاون Middletown ـ أيام الركود الاقتصادي ، نجد ان معظم الناس لا يطيقون في آن واحد احتمال التغير الحاصل واحتمال المجهول المحدق بجميع قطاعات الحياة) . لذلك نجد الناس في تلك المدينة قد اتجهوا صوب المؤسسات المتزمتة والأكثر محافظة بدلاً من المؤسسات الحرة . فكانوا بذلك اكثر جموداً وأشد انكماشاً .

ان الخطر الماثل في القرن العشرين هذا يتمثل في ان الناس فيه مبلبلون وحيارى ازاء ما يجري فيه ، وانهم احياناً يخشون الانزلاق الى مهامٍ من القيم وبيئة وهدامة . وحينما يشعر الناس بأنهم مهددون وانهم قلقون ، فإنهم ينزعون الى الجمود والركود ، وعندما يداخل نفوسهم الشك فإنهم يجنحون الى النزعة التحكمية ، وعند ذاك يفقدون الحيوية . فهم في هذه الحالة يبنون لأنفسهم متاريس وقائية يقبعون وراءها وهم منكمشون وعلى انفسهم

منطوون ، او انهم يعيشون مجترين ذكريات الماضي منسحبين الى دواخل ذواتهم انسحاباً يتسم بالذعر والهلع التام .

بيد ان الغالبية العظمى من الناس يكتشفون ، ولو بعد حين ، ان الهرب الى الماضي والعيش بذكرياته وحدها لا يجدي فتيلاً . اذ ان احياء ذكريات من هذا القبيل لا تطرأ الا كما طرأت أيام النكسة الهيلينية ، ذلك لأن (الانهيار العصبي) ، على حد تعبير جلبرت موراي Gilbert Murray ، لا يجدي نفعاً ، لا للمجتمع ولا للأشخاص انفسهم . وعلى ما في المهمة من صعوبة ، فما علينا الا ان نتقبل ذواتنا وان نتقبل مجتمعنا الذي يحتوينا ، وعلينا ان نتحرى جوهرنا الأخلاقي في ثنايا فهمنا العميق لذواتنا وكذلك من خلال مواجهتنا الشجاعة لموقفنا التاريخي .

ادم وبروميثوس

الانسان كائن اخلاقي ، كما أسلفنا . لكن تحقيق وعيه الأخلاقي ليس من السهولة بمكان انجازه . في حكمه الخلقي لا ينمو كما تنمو الزهرة في تطلعها الى الشمس وفي اتجاهها اليها . والحق ، ان الوعي الاخلاقي ، كالحرية مثلاً ، او سائر الجوانب الأخرى من جوانب شعور الانسان بذاته ، انما تكتسب وكلها مدفوعة الثمن مما يعانيه الانسان من صراع داخلي وقلق .

هذا الصراع نقلت الينا صورته الكتب السماوية في تلك القصة الممتعة عن اول انسان خلق على وجه الأرض ، انها قصة آدم . فآدم الذي خلقه الله لا يعرف معنى للصراع الداخلي ، امره وحواء بأن لا يقربا شجرة معينة في الجنة لأنها شجرة الخلد . فلهما ان يأكلا مما في الجنة ، الا تلك الشجرة التي ان اكلا منها يكون مثلهما (مثل الله ان يعرفا اسرار الخير والشر) . لكن وسوسة الشيطان اوقعتهما في المخالفة والخطيئة ، وتعبيراً عن غضبه عليهما ، عاقبهما الله . فالمرأة عوقبت بالتوق الى الرجل والاشتياق اليه لتلقي اللذة منه ولتعاني

آلام المخاض الناجم عن ولادة الأطفال ، والرجل وقع عليه عقاب الكد والكدح والنصب والتعب :

(بعرق وجهك تأكل خبزك
وهكذا ستلبث حتى تعود الى الارض ،
التي أخذت منها لأنك من تراب
والى التراب تعود)[٦] .

فهذه القصة الرائعة تصف ما كان يحدث لأناس بلاد ما بين النهرين القدامى وما يحصل في حياة كل كائن بشري من تطور فيما بين العام الأول والعام الثالث من حياته بعد ولادته[٧] ، واعني بذلك بزوغ ادراك الذات . وقبل ذلك كان الانسان يعيش في جنة عدن . وهو تعبير رمزي يراد به الدلالة على حياة الانسان قبل ارتكابه المعاصي . وحينما كان خالياً من الذنوب كان لا يعرف معنى للصراع الأخلاقي والمسؤولية . كانت فترة البراءة ، كما براءة الطفل ، كان الانسان : (لا يعرف فيها معنى للخجل ولا احساساً بالذنب) . ان التذكير بذلك الفردوس ليثير في النفس الحنين الرومانسي للتشبث بالحالة التي تسبق فترة ادراك الذات . ولكن ما الجانب النفسي والأخلاقي والاجتماعي لقصة اقتراف آدم ذنب معصية اوامر خالقه بعدم الاقتراب من تلك الشجرة ؟ فما الحكمة ؟

ان الأكل من شجرة المعرفة وتعلم الانسان كيفية التعرف على الصواب والخطأ ، إنما يمثل الولادة النفسية والروحية للشخص . وقد تحدث هيجل[٨]

---

(٦) العهد العتيق (القديم) ترجمة ابراهيم اليازجي ، الفصل الثاني ، آية ١٩ وانظر القصة كاملة في القرآن الكريم . (المترجم) .

(٧) وعن معاناة المرأة بالحمل والولادة جاء في سفر التكوين (وقال للمرأة لأكثرن مشقات حملك ، بالألم تلدين البنين والى بعلك تنقاد اشواقك وهو يسود عليك) الفصل الثالث ، آية ١٦ . (المترجم) .

(٨) جورج وهلم فريدريك هيجيل فيلسوف الماني صاحب (المنطق الجدلي الهيجلي) توفي عام ١٨٣١ . (المترجم) .

Hegel ، عن قصة سقوط الانسان هذه فأسماها (السقوط الى أعلى) ، وان قدامى الكتّاب العبريين الذين دونوا القصة في سفر التكوين قد جعلوا منها مناسبة لأنشودة سماوية وابتهالاً يقول :

هذا هو اليوم الجديد المتجدد
هذا يوم فيه ولد الانسان .

ثمة اساطير وقصص أغريقية تقترب من قصة آدم ، ومنها مثلاً قصة زيوس[٩] وبقية الآلهة على جبل اولمب ، والقصة التي تكاد تقترب من قصة آدم وتماثلها تقريباً هي تلك التي تتحدث عن بروميثوس الذي سرق النار من الآلهة وسلمها الى بني البشر ليستخدموها في الاستدفاء والانتاج . وكان زيوس الغاضب الحانق ، قد لاحظ وهو على قمة جبل الاولمب ، وميض الجذوة على الأرض لدى البشر الفانين ، فما كان منه إلا ان سارع للقبض على بروميثوس ، وحمله بعيداً الى القوقاز وهناك القاه مقيداً فوق قمة جبل . وتفتق خيال زيوس في الامعان في التعذيب بأن جعل نسراً يتغذى على كبد بروميثوس نهاراً ، وعندما تلتئم ليلاً يعود اليها النسر ثانية ليفلقها في نهار اليوم التالي ، وبهذا يكون قد حقق العذاب المستديم لبروميثوس المنكود الحظ السيّء الطالع .

وبقدر ما يتعلق الأمر بالعقاب ، فإن الإله الاغريقي هذا قد فاق يهوه قسوة ، اذ كانت نفسه تضطرم حنقاً على بني البشر وغضباً عليهم وغيظاً منهم، ذلك لأن الانسان تعلم المنفعة من النار وكيفية الانتفاع بها، لذلك فقد عمد زيوس ذاك الى ان ملأ صندوقاً بجميع ضروب الامراض وبالاحزان والرزايا والرذائل ، فجعلها على شكل مخلوقات العث وجعل عطارد[٩] Mercury يحمل ذلك الصندوق الى الفردوس الارضي (مكان ما اقرب ما يكون الى جنة عدن شبهاً) حيث كان يعيش فيه كل من باندورا وابيميثوس في

---

(٩) رسول الآلهة في الاساطير الاغريقية . (المترجم) .

سعادة هانئة . وعندما فتحت المرأة الفضولية (باندورا)[١٠] الصندوق انطلقت منه تلك المخلوقات ، ومنذئذٍ اصبحت بلايا الانسان ورزاياه بلا انقطاع ولا انتهاء . هذه العناصر الشريرة الصادرة عن تعامل الآلهة المزعومة مع الانسان لم تقدم قط صورة جميلة .

ومثلما تمثل قصة ادم حكاية وعي الذات ، فإن اسطورة بروميثوس تمثل رمز الابداع ، اي تعكس بداية اساليب جديدة في حياة الجنس البشري . والحق ، فإن اسم بروميثوس يعني (طليعة الفكر) Fore thought - وكما اوضحنا ، فإن القدرة على استشراف المستقبل ، والتخطيط ، انما هي ، بكل بساطة ، احدى جوانب وعي الذات . ان حكاية تعذيب بروميثوس انما تمثل الصراع الداخلي وترمز اليه ، الصراع الذي يصاحب الابداع - انه ليرمز الى القلق والشعور بالذنب كذلك . وقد كشف لنا عنه في اعمالهم وابداعاتهم اعلام ومفكرون من امثال ميخائيل انجيلو[١١] Michelangelo ، وتوماس مان[١٢] Thomas Mann ، ودوستويفسكي[١٣] Dostoeviski ، وغيرهم عدد آخر لا يحصى - وتارة أخرى نكرر القول : كما هي الحال في قصة ادم ، فإن زيوس استحوذت عليه الغيرة من طموحات الانسان وابداعاته . ولكن ماذا يعني أن تناضل الآلهة ضد ابداع الانسان ؟

من المؤكد أن ثمة تمرداً ضد الآلهة في اعمال كل من آدم وبروميثوس . وهذه هي الزاوية التي تجعل للقصتين معنى تعبران عنه . ذلك ان الاغريق والعبرانيين عرفوا أن الانسان عندما يحاول ان يقفز من فوق حدود قدرته البشرية ، وحينما يقترف بحق نفسه خطيئة الاخفاق في تحقيق غاية غير

---

(١٠) سبقت الاشارة اليها في هامش احد الفصول السابقة . (المترجم) .

(١١) نحات ورسام ومهندس معمار ايطالي (١٤٧٥ - ١٥٦٤) يعد احد اعظم الفنانين في جميع العصور . (المترجم) .

(١٢) كاتب وروائي الماني (١٨٧٥ - ١٩٥٥) عرف بعدائه للفاشية . (المترجم) .

(١٣) روائي روسي (١٨٢١ - ١٨٨١) اشهر اثاره الاخوة كرامازوف . (المترجم) .

مشروعة (كما فعل داوود حين أخذ زوجة القائد اوريا)[١٤] او حينما يجترح هيوبرس Hubris (مثلما فعل اغاممنون المتغطرس بعدما قهر طروادة) ، أو عندما ينتحل لنفسه القوة المطلقة (كما هي الحال في الايديولوجيات الفاشية) ، او لدى اصراره على ان معرفته المحدودة هي الحقيقة المطلقة او النهائية ، فإنه ازاء ذلك كله يصبح انساناً خطراً . كان سقراط على حق حين قال : بداية الحكمة الاعتراف بالجهل . ان بوسع الانسان استخدام طاقاته ، وان بمقدوره ، الى حد ما ، ان يتجاوز حدود قابلياته ، ولكنه يستطيع ذلك فقط بعدما يبدأ يقرّ بمحدودية هذه القابليات بتواضع وأمانة . فالقصتان الآنفتان قيّمتان من حيث تحذيرهما الانسان ضد الغرور الزائف .

قصتا آدم وبروميثوس ترمزان الى كفاح الانسان من اجل وعي ذاته . فلا يمكن النظر اليهما على انهما مجرد تمرد عابر ، بل هو تمرد يمثل انبجاس حياة جديدة تنم عن ابداع . وفي القصتين نجد هناك نوعاً من الصراع قائماً في نفس الانسان ، ويعزى الصراع هذا الى ان الشخص المبدع يتنازعه عاملان : احدهما شعوري يحدوه الى الابداع ، وآخر لا شعوري يشده الى الاحجام وذلك لتخوفه من المتاعب ومما قد يلاقيه من عنت . ومن المؤكد ان القلق والاحساس بالذنب وما يحملانه في طياتهما من تحفيز للمرء وما يرافق ذلك من توق الى ادراك الذات ، ذلك كله يكوّن موقفاً مليئاً بالإيلام . انها جوانب تستتلي صراعاً عنيفاً ومعاناة رهيبة . وما من أحد ينكر ان القلق والشعور بالذنب انما هما ثمن باهظ يدفعه الفرد لقاء مغامرته من اجل التعرف على الذات واحراز الابداع ـ فهما ، باختصار ، ثمن شاق مرهق للانسان مقابل الظفر بالقوة التي تمكنه من أن يكون انساناً بحق مكتمل الانسانية بدلاً من ان يبقى طفلا غريراً او انساناً كسيح الارادة .

---

(١٤) اوريا قائد جيش داوود الذي ارسله ليدمّر مدينة ربّة ويهلك جميع بني عمّون ، وجاء في سفر الملوك الثاني من العهد القديم ان داوود ارسله الى هناك ووضعه في موضع كان يعلم انه سيقتل فيه ليتزوج زوجته واسمها بتشابع بنت اليعام ، هي أم النبي سليمان . (المترجم) .

ولا اختلاف على ان كل مجتمع يجب ان يتمثل فيه جانبان في الأقل : اعني بـذلك المؤثـرات التي تتمخض عن الأفكار الجـديدة والاستبصـارات الأخلاقية والتي عنها تتولد المؤسسات التي تحافظ على قيم الماضي الإيجابية ، مضافاً الى ذلك مقومـات الابداع التي تنبثق من أعـماق الافراد ومن واقـع قدراتهم .

الانسان في وقتنا الراهن ، وهو ينشد قيماً توائم روح العصـر من غير تفريط بقيم الماضي الصميمة ، يواجه حقيقة ان ما من شيء ميسور بسهولة من غير معاناة ، ولا ثمة ما هو بسيط بحد ذاته . فما اكثر ما يجد الانسان نفسه في مواقف يسودها التوتر الذي يصدر احياناً من اعماق الذات بفعل متطلبات الحياة المتراكمة ، ولاسيما في وقتنا الراهن هذا .

وفي كل مرة يذر قرنا التوتر شاخصين يظهر هناك انبيـاء ومصلحون وفلاسفة يقفون من الحياة مواقف ترمي في الأغلب الى تخليص النـاس من الحيرة ومما قد يتعرضون له من نزعة سادية أو إذلال . وتكون مهمة الأنبياء والمصلحين والفلاسفة تذكير الانسان بقيمه الروحية ، التي تكون عامل بناء ذاتي له بقدر ما تقوي فيه احساسه بمقدار كرامته واهميته بذاته . وهذا مما يسعفه في تقرير الثقة بنفسه ويمكّنه من توكيد معاني القيم التي بها يعرف معنى جدوى الحياة ، ويمكّنه كذلك من تطوير وعيه بالقيم الأخلاقية والحرية الذاتية والمسؤولية الشخصية .

الاستخدام الابداعي للماضي

في الفصل الأخير من كتابه : الموجز في التحليل النفسي ، يقتبس فرويد من غوته هذين الشطرين :

ما ورثت من وراثة عن آبائك
اكتسبه واجعله عنك يصدر كالسبائك .

ونحن هنا نريد ان نتدبر كيف يرث الانسان عن أبويه وراثة بالمعنى الأخلاقي والتقليدي بعيداً عن الاتكالية ؛ على ان يصاحب ذلك ما يستقيه الانسان من قدر كافٍ من الحرية والهوية الذاتية وان يتمثلها في ذاته ، وان يكتسب الى جانب ذلك ما يكفي من الحكمة التي تؤهله لاتخاذ القرار الصائب . ومن خلال التصرف بالحرية على نحو مسؤول يستطيع الفرد ان يعبر عما في ذاته من قوة ابداعية ، ولكن يجدر الحذر من أن تكون قواعد الحرية لديه مجرد انماط جامدة ، فلا تمكّن صاحبها من تثمير قيمه الى الحد الذي يتيح له تنمية ذاته كفرد متميز الشخصية . وقد رأينا في الفصل الثاني من هذا الكتاب ، ان جزءً من علتنا الحالية انما يعزى الى أننا قد فقدنا قسطاً كبيراً من علاقتنا الابداعية المتصلة بحكمة الماضي . وكان هنري فورد Henri Ford قد نشر عام ١٩٢٠ كتاباً بعنوان : التاريخ هراء[١٥] History is Bunk ، اثار فيه مناقشات حامية . ومما اثاره فيه من جدل يعد نوعاً من التمرد على ما في التقاليد من آراء كانت سائدة يومذاك . لكن التاريخ من غير شك يمثل روح الجماعة المجتمعية الاجتماعية . ففيه نعيش وفيه نتحرك ، وان نحن قطعنا صلتنا به وتنكرنا له ، فنكون بذلك كمن يقول (ان جسمي الطبيعي هراء) .

ولعل اهم المبادىء الأساسية في هذا الشأن هو : كلما كان ادراك المرء لذاته اوفر ، كان على اكتساب حكمة الآباء ، التي تكون متمثلة فيه ، أقدر . واحدى أمائر القوة الذاتية في الشخص هي ألا يتنكر للتقاليد : اي عليه ان يندمج فيها ويأخذ منها وبها ، وان يحافظ في الوقت نفسه على هويته الذاتية بوصفها ذاتاً فريدة متميزة .

ان الإعراض عن الماضي وعما يحفل به في ثناياه يفقدنا كثيراً من الخبرات والمآثر الكلاسيكية ، سواء في الآداب كان ذلك ام في الاخلاقيات أم في مجالات المعرفة الأخرى . ذلك لأن جوهر الكلاسيكيات ان ينبع من أعماق

---

(١٥) هنري فورد (١٨٦٣ ـ ١٩٤٧) صناعي اميركي وأحد رواد صناعة السيارات . (المترجم) .

ضاربة بعيداً في مسارب الخبرة الانسانية ، الخبرة التي نعيش نحن اليوم بعدها بقرون ، فهي تتحدث الينا بصوت مبدعيها وما الفوه من طبيعة حياة زاخرة بتجارب تحكي عبقرية الانسان على امتداد الزمن . فهي تساعدنا في الوقت نفسه على فهم افضل لجوانب ذواتنا ذلك لأن (العمق يستتلي العمق) . واللاشعور الجمعي ، الذي قال به يونج بصدق في هذا المجال . فكلما تعمق الانسان اكثر في مواجهة متطلبات الحياة وكلما توغل اكثر في ثنايا الزمان ، وجد ثمة ما يوطد الصلة بينه وبين احداث طرأت لبني جنسه من البشر يستطيع ان يستمد من العبر ، فهناك ثقافات وحضارات ابدعها الانسان ، فهل يخلق بنا الاستخفاف بها أو تناسيها ؟ وهذا مما يجعل مسرحيات سوفوكليس ، ومحاورات أفلاطون ، ورسوم حيوانات الرنّة rerindeer والبيسون bison المنقوشة من قبل الانسان الكرومانيوني[١٦] cro-magnon ، على جدران الكهوف في جنوب فرنسا منذ اكثر من عشرين الف سنة خلت ، كلها تنطق بلغة ابلغ وتستثيره في المشاهد استجابة اقوى مما يستثيره حجم الكتابات أو حشد الصور التي تراكمت خلال الخمسة اعوام المنصرمة .

وكلما تعمق المرء في خبرات غيره وفي خبراته على نحو اوفى ، وجد استجاباته الذاتية وحقيقة عطائه اكثر اصالة . وكلما تعمق اكثر في تحري واختبار ما هو متاح من ثروة متراكمة في المعطيات والتقاليد التاريخية ، ازداد تفرداً اكثر وتنامت معرفته بذاته وبمحيطه بشكل أوفر .

هناك من يظن ان الضمير هو ذلك الجزء من الفرد الذي ينبئه بأن يفعل هذا وان لا يفعل ذاك من الأشياء . هذا النوع من التفكير يبدو وكأن الضمير يعمل بصورة آلية . كنت في يوم ما أناقش هذا الموضوع مع طلبة صف في احدى الكليات ، وقد تبرع احد الطلبة فقال انه من الممكن جداً ان يستخدم المرء ضميره بصورة ايجابية . اتفقت معه في الرأي ولكنني سألته ان يضرب مثلاً على ذلك ، فقال : (عندما لا تحب ان تذهب الى الصف ، فإن ضميرك

---

(١٦) منسوب الى انسان ما قبل التاريخ ، وجدت بقاياه في كهف كرومانيون بفرنسا . (المترجم) .

يحثك) . فأوضحت له ولزملائه ان هذا المثال في هذه الجملة انما يشير الى الجانب السلبي ويبرهن على عكس المطلوب . فما كان منه الا أن بحث في دماغه فأتى بمثل ثانٍ ، اذ قال : (حينما لا تريد ان تدرس ، فإن ضميرك يدفعك . .) فلم يدرك للوهلة الأولى بأن مثاله هذا كان كذلك مثالاً بالنفي تماماً . فالضمير في كلا المثالين كان ينظر اليه وكأنه الضمير محدد المهام وكأنه السوّاط[١٧] . والنقطة الجوهرية في هذا السياق هي ان ذلك الشاب لم يقل شيئاً عن ان الضمير في مثاليه انما هو دليل يهديه الى أن يكتسب ابلغ القيم من وجوده في الصف ، او ان الضمير انما هو صوت يعبر عن اعمق أغراضه واهدافه في عملية استثمار الدراسة والتعلم .

ليس الضمير بمجموعة من الممنوعات الجاهزة التي تحد من حرية الذات لكي تخنق حيويتها ، كما انه لا ينبغي الظن بأن الضمير كائن بمعزل عن التقاليد والأعراف ؛ بل ، بالأحرى ، الضمير يمثل قدرة المرء على اطلاق اعمق مستويات التبصر في الحساسية الأخلاقية وفي الحس الخلقي وفي الوعي الادراكي الذي لا تتعارض فيه الخبرة المباشرة مع التقاليد المرتضاة ، وانما هي تتداخل وتتعاضد . ان اشتقاق كلمة الضمير ومدلولها ليعبر عن ماهيته واهميته ، اذ نجد ان لفظة ضمير مركبة من كلمتين لاتينيتين احداهما (scire) وتعني (يعرف) والثانية (cum) وتعني (مع) ، وبذلك يكون الضمير أقرب الى مصطلح الشعور . واننا لنجد ، في الحقيقة ، في بعض البلدان ، كالبرازيل مثلاً ، ان كلمة (conscienia) تستعمل بمعنى (الضمير) وبمعنى (الشعور) . وعندما يتحدث اريك فروم عن الضمير فإنه يصفه بأنه (نداء الانسان الى نفسه) . ان النداء هذا لا يتضارب مع التقاليد كما هي ، بل انه ليتعارض والجانب التسلطي منها. ذلك ان ثمة مستوى يستطيع الفرد معه

---

(١٧) الضارب بالسوط ، وقد اخترناها لتؤدي معنى the whip ، واسم الفاعل ابلغ من الاداة في هذا السياق . (المترجم) .

الاسهام في ابتناء التقاليد ، وانه عند ذلك المستوى تسعف التقاليد الانسان في العثور على خبراته الهادفة العميقة .

لذلك ينبغي لنا ان نؤكد الجوانب الايجابية من الضمير ـ كونه طريقة بها يستهدي الفرد الى فتح كوى على الحكمة والتبصر في ذاته ، الضمير كـونه انفراجاً في حياة المرء وكونه دليلاً الى الخبرة الواسعة . وهذا ما كان يرمي اليه نيتشه بعبارته (ما وراء الخير والشر) ، وهذا ما عناه تيلش في قوله (في ما فوق الأخلاق) . إنّ الضمير لهو جوهر الشجاعة والاقدام .

قدرة الشخص على صنع القيم

لعل بعض القراء يظنون ، أثنـاء مناقشـاتنا لغيـاب جوهـر القيم في مجتمعنا ، يظنون ان ما هو ضروري يقتضي ببساطة العمل على ايجاد مجموعة جديدة من القيم ، ولعل غيرهم يحسبون ان (ما من شيء خطأ يشوب قيم الماضي) ـ كالمحبة ، والمساواة والأخاء الانساني . ان كل ما نتوخاه هو بكل بساطة ان نستحضر هذه القيم لتكون حاضرة أمام عين العقل .

وكلتا هاتين النقطتين تخطىء المشكلة الأساسية في المـوضوع ـ وأعني بذلك ، أن الانسان المعاصر قد فقد ، الى حد ما ، القدرة على توكيد أية قيمة والاعتقاد بأهميتها . وأيّاً كان الأمر ، فليس المهم في الأمر أهمية القيمة ، ولا كم هي مناسبة نظرياً كا هي مدونة على الورق ، بل ان ما يحتاجه المرء هو قابلية متوفرة لديه قبلاً ، واعني بذلك ان لديه القدرة على التقييم -the power todo valuing . ان تخلي الانسان عن قيمه يفقده معنى وجوده في مجتمعه وفي الحياة . وان ما تحضّ عليه التعاليم السماوية هو أن يكون الفرد هو ذاته اينما كان وان يجتهد في صنع القيم الايجابية وان يعمل على توكيدها . وعند فقدان هذه القيم يكون الانسان قد فقد هويته الذاتية .

هناك شيء خاطىء في عبارات تتردد بشـأن القيم ، منها مثلاً عبارة

(مناقشة القيم) . فالمرء مثلاً يتلقى معتقداته بشأن القيم وعن قيمه من خلال المناظرات الفكرية . ان ما في حياة المرء من اشياء تحيط به ، واشخاص يتفاعل معهم كحبه لأطفاله مثلاً ، وحبهم اياه ، أو الاستمتاع بلذة الانصات الى الموسيقى ، أو لعبة الغولف golf ، أو الزهو الذي يحسبه في عمله ـ كل هذه الأنشطة يتلقاها ويتقبلها بوصفها حقائق اواقعية. ولهذا فإن الخوض النظري في مثل هذه الجوانب يعده المرء ليس بذي علاقة . بل يحسبه خارج نطاق الموضوع اياه . ولو أنك سألته عن شرحها وعن كيفية تفسيره لها لقال لك : انه يحسها ، وانها خارج اطار التفسير . ورأيه هذا سليم . وهكذا هي القيم . فهي انما تتأتى عن طريق الاحساس مقترنة بواقع النشاط الذي يؤديه الانسان ويبديه ، طالما أن النشاط يمثل سلوكاً يتقبله المجتمع ويرضاه .

ان ما نرمي اليه هنا هو ان القيم انما هي وليدة العلوم كافة متكاملة . وان بوسع المرء ان يتصدى لحل مشاكله بقوة ارادته اذا هو ادّرع بجوهر القيم النابعة من صميم روح المجتمع .

ولكن الذي يخلق بنا تأكيده هنا هو ما لم يعزز الفرد من مكانة القيم وأهميتها ، وما لم يجعل من دوافعه الداخلية ومن وعيه وادراكه الأخلاقي ، مثابة للانطلاق ، فلا فائدة ترتجى من مناقشة يمكن انت تثير جدالاً لا طائل منه ويمكن ان تخلق اختلافاً حقيقياً يترتب عليها . اذ ان الحكم الخلقي واتخاذ القرار يجب ان يكونا متأصلين في قدرة الانسان على التقييم . وبمقدار ما يحمل المرء في نفسه وفي تكوينه من قوة واصالة فإنه يتمكن من تحديد معالم الواقع الذي يعيشه والذي فيه تنعكس القيم . فمن واقعه هذا يتلقى المسببات الأساسية التي تتيح له نسج مقومات القيم الراسخة . ومن خلال ذلك يستطيع ان يتعلم حدود مسؤوليته الأخلاقية والاجتماعية . وبممارسة الفرد نشاطه فإنه يتسنى له ان يختار طريقة تحديد وتأكيد ما يسعى اليه من اهداف تحكم وعيه الادراكي ، مما يؤهله في المآل من استبانة السبل المفضية الى كيفية بناء القيم الايجابية وتعزيز مكانتها .

يجدر ان يطلق على الانسان مصطلح (المقيم) the valuator ، كما قال قديماً زرادشت zarathustra : [فما من شعب يستطيع العيش قبل التقييم اولاً وقبل كل شيء ؛ واذا ما تماسك الشعب وتدبر امره ، فما عليه ، اذن ، الاّ ان يقيم ذاته كما يقيمه جواره ـ جاره ـ . . . التقييم خلق وابداع ، فانصت اليه واستجب ؛ فأنت ، اذن ، مبدع . والتقييم نفسه انما هو كنز من الأشياء وجوهر المقيم . ومن ثنايا التقييم وخلاله فقط تتبدى القيمة ؛ ومن غير تقييم فإن لب الوجود يصبح خواء . اصغ اليه ، فأنت مبدع خلاق مثلك مثل سواك] .

كل سلوك انساني يتألف من اجزاء دقيقة . تتراكم في النهاية لتكوّن سلوكاً اجتماعياً متطوراً . وبمقدار ما يتصف به المرء من حصافة تتأتى فعاله وأعماله محمودة الجانب من حيث التقييم الاجتماعي . وان قيم الانسان لخير هادٍ له في تسديد خطاه بلوغاً لأهداف يرتضيها فتحقق له ذاته ولتسهم في ترصين حياة مجتمعه .

ما من شك في أنّ فينا قوى كامنة متصارعة: منها قوى دافعة نحو الاقدام ، وأخرى رادعة فتغري بالاحجام . ولعل بعضها يظهر للفرد في أحلامه . وكلها توضح ان في الانسان قوى كائنة بالقوة والفعل ، تنطلق وقت الحاجة المعقولة موجهة بعقلانية صوب اتخاذ قرار حكيم . وهذا بدوره يوضح أن العمل الأخلاقي ، انما هو ، نشاط يختاره الفرد وينفذه بإرادته ، فهو نشاط يعد تعبيراً عن دوافع ذلك الفرد الداخلية وعن واقع اتجاهاته . ولا ينكر ، من وجهة النظر السيكولوجية ، ان اعمال الانسان لا تخلو من تناقض وجداني ambivalence ، وليس ثمة في دوافعه ما هو نقي تماماً فلا يشوبه شيء من هذا التناقض . ففي دخيلة كل انسان يوجد هناك تناقض ، وتناحر ، وشك ، وصراع ، وتأزم نفسي . فما على الانسان ، وهو يسلك سلوكاً اخلاقياً ، الاّ ان يجتهد في تهذيب نوازعه لتتساوق وقيم الحياة التي يرتضيها لنفسه ولمجتمعه وابنائه .

ان الانسان وبما يكمن فيه من قوى ونوازع ليستطيع ان يبرهن وان يؤكد حقيقة المقولة : (ان كل انسان انما هو مركز ذاته ، ومنها تنطلق قواه وطاقاته الخلّاقة)[١٨] .

(١٨) قارن بهذا قولنا الموروث: انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر. (المترجم).

الفصل السابع
الشجاعة من فضائل النضج

في اي عصر من العصور تأتي الشجاعة على رأس الفضائل التي يحتاج اليها الانسان ليجتاز بها سلسلة من الصعائب ، ابتداء من مرحلة الطفولة وانتهاء بمرحلة النضج التي تبلغها الشخصية . بيد أننا في عصرنا هذا ، عصر القلق ، عصر أخلاقيات القطيع ، عصر العزلة الشخصية ، تصبح فيه الشجاعة ضرورة لا مندوحة لنا عنها ولا محيد . ففي الفترات التي كانت فيها المواضعات الاجتماعية أمارات متماسكة ولها دلالتها ، كان الفرد يجد الاسناد له والدعم اكثر لدى مواجهته ازمات ومواقف تتعلق بجوانب تطوره ونموه وتقدمه في الحياة ؛ اما في الأوقات الانتقالية ، كما في زماننا هذا ، فإن الفرد يجد نفسه وحيداً في فترة مبكرة من حياته ومن عمره ، ويبقى هكذا فترة طويلة من أيام حياته .

قد يبدو مستغرباً أن نخصص فصلاً كاملاً للحديث عن الشجاعة ، بينما كنا قد دأبنا في العقود الماضية على أن نلقي بها على الرف او ان ندع الحديث عنها الى مجالات نشجع فيها المراهقين ، نشجعهم على الاقدام والاقتحام في ميادين الرياضة والالعاب ، او نحض الجندي على خوض غمار الوغى إبّان الحروب . غير أننا يمكن ان نتجاوز الحديث عن الشجاعة لأننا قد غالينا في تبسيط الحياة: فمن ذلك اننا مثلاً كبحنا فكرة الموت، ورحنا نحدث أنفسنا عن ان السعادة والحرية انما تتأتيان بصورة آلية ، او كأنهما هكذا

يتيسران ، وانطلقنا في هذا الاتجاه زاعمين أنّ الوحدة ، والقلق ، والخوف ، انما هي أمور عصابية ، وانه يمكننا التغلب عليها وقهرها بواسطة تكيف نقوم به على وجه أفضل . ما من شك في أن العصاب والقلق والوحدة يمكن القضاء عليها ، بل يجب لأنها من مثبطات العزائم ومما يشل الارادة . أما الشجاعة الأساسية من اجل القضاء على تلك الآفات كافة ، فتتمثل في التذرع بأساليب نتوخى منها ان نكون متسلحين بالعون المهني وبه يمكننا ان نمد يد العون لمن تتطلب حالته ذلك . ويجدر التمييز في هذا المقام بين قلق طبيعي ضروري لحياة الانسان وقلق محبط يزم العزم ويقعد الارادة . فالقلق الطبيعي امر لازم وضرورة لازبة في حياة الانسان وهو يواجه اطوار التطور ويواصل اشواط النمو ؛ واذ هو يواجه ضروب القلق ويعايشه تكون الشجاعة له من مستلزمات سيرورة حياته ومقوماتها . فالشجاعة هنا هي الفضيلة الأساسية لكل امرىء طالما هو ماضٍ على طريق التطور والنمو . فالشجاعة ، اذن ، كما كتب الين غلاسكو Ellen Glasgo ، هي (الفضيلة الوحيدة الباقية) للإنسان .

ونحن بصدد الحديث عن الشجاعة هنا فإننا لا نريد بذلك وبصورة أساسية الشجاعة المطلوبة لمواجهة ما يتهددنا من مخاطر خارجية ، كالحرب مثلاً ، او الوقاية من القنبلة الهيدروجينية . وانما نشير الى الشجاعة ونريد بها بصفتها سمة داخلية ذاتية ، بوصفها طريقة تحكم العلاقة بين خصال الفرد الداخلية الذاتية وبين ما في ذاته وبما يحيط به من امكانات يستطيع تسخيرها من اجل نفسه وللصالح العام . وبقدر ما يتحقق للمرء من هذه الشجاعة ويتاح له ، فإنه يتمكن من التصدي لما يحدق به من مخاطر برباطة جأش واتزان .

الشجاعة هي التماسك الذاتي

الشجاعة هي القدرة على مواجهة القلق الذي ينشأ عندما يتوخى المرء تحقيق حريته وارادته . انها الرغبة والارادة للتخلص من الاتكالية والانطلاق

باتجاه مستويات جديدة من الاعتماد على النفس والتكامل . الشجاعة سمة ملازمة للمرء يحتاجها في كل خطوة يقدم فيها على اتخاذ قرار له اثره الكبير في حياته ، ابتداء من رغبته في قطع اتكاليته على ابويه وانتهاء بقرار الزواج المناسب واختيار المهنة الملائمة . فالشجاعة يتطلبها الانسان في كل فترة من فترات حياته . انها ، كما احسن وصفها طبيب الاعصاب ، الدكتور كيرت غولدشتاين Kurt Goldstein ، (ان هي الا اجابة مؤكدة على الصدمات الحادثة في الوجود ، وانها ـ الشجاعة ـ يجب ان تتولد لتحقق طبيعة المرء) وذاته .

الشجاعة حسب مفاهيم هذا العصر لا تعني انها عكس الجبن والخور . فحين تقول ان شخصاً ما جبان فإنك لا تزيد بقولك هذا ، على انه كسلان ، او مترهل ، او انه لا ابالي . وفي كل الأحوال، لا تكون قد رميت بوصفك هذا الى انه انسان تنقصه الشجاعة ، انما هي اوصاف لها مدلولاتها حسب امزجة مستعمليها .

ان ما نتطلع اليه في ايامنا هذه هو الفهم العميق لمفاهيم الصداقة بمعناه الحميم ، والشجاعة بمرماها الصميم . اننا نتوق الى هذه المفاهيم بمعناها الدافىء ، بمعناها الشخصي الذاتي النظيف الأصيل ، البنّاء بمدلولها السقراطي والسبينوزي[1] . اننا خليقون بأن نحيي مفهوم الشجاعة بمعناها الإيجابي ـ بمعناها الذي يدل على حقيقة النماء الداخلي بمعناه الذاتي : الشجاعة بوصفها طريقة بناء لذلك الجانب من وجود الفرد الذي يكون دالاً على قوة الثقة بالنفس والجود بها في مواطن النبل . الشجاعة في واقع مفهومها انما هي اساس العلاقة الابداعية .

فمن اقدم العصور الضاربة في القدم ، ايام سرق بروميثوس النار[2]

(١) نسبة الى سبينوزا الفيلسوف الهولندي ، عاش ومات في القرن السابع عشر ، وقد سبقت الاشارة اليه من قبل . (المترجم) .

(٢) سبقت الاشارة الى هذه الاسطورة في الفصول السابقة . (المترجم) .

وعلم الانسان كيفية استعمالها ، وما تلا ذلك من ايام ، اتضح ان البشر لكي يبدعوا يتعين عليهم ان يستجمعوا عناصر الشجاعة في أنفسهم اولاً . فبلزاك Balzac الذي ادرك أبعاد هذه الحقيقة من خلال تداعياته ومن خلال خبرته ، نجده قد وصف الشجاعة بصورة شافية وبوضوح ، حيث قال وليس لنا الاّ ان ندع كلماته تتحدث عن نفسها: (ان السجية التي تستحق اسمى صور التمجيد في الفن ـ وفي جميع ضروب الابداعات الفكرية ـ هي الشجاعة ؛ الشجاعة التي لم تحط جميع العقول المشتركة بمفهومها ولم تستطع الاحاطة بها وبمغزاها . . . انها الشجاعة الرامية الى التخطيط ، والحلم ، وتصوير الأعمال الرفيعة وتصورها ، انها شيء يبعث على الغبطة والنشوة والانتشاء بكل تأكيد . لكنها الى جانب ذلك كله ، انها القدرة على الانتاج والعطاء ، والولادة ، وحمل الطفل على أن يعمل بمفرده بعد انجابه ، والعناية به والحدب عليه ، وحمله في الصباح بين الذراعين بكل ما في الأمومة من حنان متدفق ، والباسه مئات البدلات الجميلة التي طالما يمزقها مراراً ؛

(انها الشجاعة الدافعة الى عدم التراجع والتقهقر أمام اضطرابات الحياة المجنونة هذه ؛ بل هي تجعل مما في الحياة تحفة ماثلة للعيان تكاد تنطق امام كل عين تراها ، فتجعل منها تحفاً في النحت ، ومأثورات في الأدب ، وصوراً في الرسم ، بل تجعل منها قطعة في الموسيقى تنساب الى النفوس فتشيع البهجة في ثنايا القلوب ـ تلك هي مهمة التنفيذ والتطبيق المرتجاة من الشجاعة . وفي ضوئها يتعين على اليد ان تكون مهيأة في كل لحظة لتمتثل لتوجيه العقل . وان لحظات العقل الابداعية لا تنصاع الى ترتيب بعينه . وان الفنان ، ما لم يلقِ بنفسه في أتون عمله ، كما يفعل الجندي مندفعاً غير هياب في سبيل النجدة ، وان الفنان ، وهو في تلك المواقف ، ما لم يحتفر ويعزق كما هو عامل المنجم وقد تكومت فوقه كتل من الحجر . . . فما لم يطرأ كل ذلك للفنان ، فإن عمله الفني لن يكتب له ان يكتمل ؛ وان عمله سيتلاشى عند حدود مشغله studio حيث يصبح الانتاج بعد ذلك مستحيلاً ،وعند ذاك يطفق الفنان يرقب انتحار عبقريته . . . وانه لذلك السبب بعينه ، ولتلك المكافأة

ذاتها ، ولذلك الانتصار نفسه ، وانه لذات اكاليل الغار هذه ، وانه بسبب تلك الأمجاد كلها ، تنسب الى الشعراء الفحول هذه الفضائل كلها مثلما هي تنسب الى القادة العظام)[٣] .

ونحن الآن نعرف من خلال دراسات التحليل النفسي ، مما لم يكن يعرفه بلزاك ، ان احد الأسباب التي تجعل النشاط الابداعي يستوفي مقداراً كبيراً من الشجاعة هو لكي تستحدث مواقف يصبح المرء فيها متحرراً من ربقة الانشداد الى الماضي الطفولي ومحترماً القديم لكي يتاح للجديد ان يولد . اذ ان ما يحققه المرء من أعمال منظورة ، كما في الفن والأعمال الحرة وما اليها ، او تحقيق المرء ما يبني ذاته ـ بمعنى تطوير الانسان قابلياته ليكون اكثر احساساً بالمسؤولية ـ انما هما جانبان للعملية نفسها . وكل ابداع اصيل يعني تحقيق مستوى ارفع في وعي الذات وادراكها ؛ وان ذلك ، كما رأينا في قصص آدم وبروميثوس ، يمكن ان ينطوي على قدر كبير من الصراع الداخلي .

كان هناك رسام مولع برسم المناظر الطبيعية ، وكانت مشكلته تتمثل في اجتهاده للتخلص من ربقة أم متسلطة ، وكان لسنين عديدة يسعى الى ان يرسم مناظر لكنه لم يجرؤ . وقد تمكّن في النهاية من استجماع قواه واستحضار عناصر شجاعته ولازم مرسمه ، وقد تمكن من رسم عدة رسوم في غضون ثلاثة أيام . وتبين انها كانت رسوماً ممتازة . ولكنه ، ويا للغرابة ، لم يكن يشعر فقط بغبطة كبيرة وحدها ، بل انه الى جانب ذلك كان يحس بقلق كثير ايضاً . ففي الليلة الثالثة من بدئه الرسم رأى حلماً وفيه تخبره والدته انه عليه ان ينتحر ، وانه راح يستدعي اصدقاءه ليودعهم، وهو في حالة من الذعر والاحساس الغامر من الوحدة والوحشة . فما تفسير ذلك ؟ ان الحلم في الواقع كان يقول له : (اذا كنت ستبدع ، فإن عليك ان تودع المعتاد

---

(٣) بلزاك احد اركان الحركة الواقعية في الأدب ، فرنسي مات في القرن التاسع عشر . وكلامه المجتزأ هنا مقتبس من Causin Bette من منشورات Pantheon Book, New York ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨ . (المترجم) .

المألوف ، وانك ستكون مستوحداً وتموت ؛ فالأفضل لك ان تبقى مع المألوف وتستبقيه ، وان لا تبدع) . انه لمن الأهمية بمكان ، حين نرى طبيعة هـذا التهديد اللاشعوري الفعال ، انه لم يتمكن من رسـم صور أخرى الا بعد مرور شهر ـ اي ، بعد ان تمكن من التغلب على هجمة القلق المعاكسة له تلك ، والتي تبدت له في الحلم المذكور .

ومن معرفتنا بنشاطات العقل اللاشعورية ، نعرف ان الكفاح من اجل استجماع اركان الشجاعة المساوية لشجاعة الجنـدي وهو يقتحم المخـاطر ، ندرك ان الشجاعة ضرورية في كل خطوة يخطوها المرء ابتداء من وجوده في خضم الزحام ـ وما يرمز الى الرحم ـ الى اصغر خطوة يتخذ فيها قراراته في تصريف شؤونه اليومية وتسييرها من ساعة الى ساعة . فالشجاعة ، سواء منها شجاعة الجندي وهو يخوض المقاحم[٤] ، أم شجاعة الطفل وهو يغادر البيت اول مرة ليذهب الى المـدرسة ، كـل ذلك يعني القـوة على مجـانبة المـألوف واصطناع الجديد الطريف . فالشجاعة ليست مطلوبة في قرارات الشخص الجوهرية من اجل حريته فحسب ، لكنها مطلوبة كذلك في الاقدام على اتخاذ قراراته التي توطد رصف اللبنات اللازمة لبناء صرح ذاته وبما يعزز وجوده ليعمل بحرية نابعة من الاحساس بالمسؤولية ازاء غيره بقدر ما يريد من خير لنفسه .

من خلال خبرتي وممارستي التطبيقية في العيادة ، تكونت لدي قناعة بأن العقبة الكأداء التي تحول دون تطوير المرء ذاته وتنميتها هي عندما ينتهج سبيلاً في الحياة ليست متأصلة أساساً في حقيقة طاقـاته العقليـة وقواه الفكـرية . وبمقدورنا ان نتبين أبعاد هذا الموضوع من حالة شاب جاءني للعلاج بسبب ميول جنسية مثلية[٥] homosexuality كانت لديه ، مما سبب له اضطرابات في اعماله وفي حياته . كان هذا الشاب اصغر اخوته ، فهو السادس من حيث

---

(٤) المقاحم : المخاطر . (المترجم) .

(٥) الاشتهاء الجنسي المماثل . (المترجم) .

التسلسل العددي ، فقبله اربعة اولاد ذكور وبنت قد توفيت قبيل ولادته . كانت امه تتمنى ان يكون الوليد الجديد بنتاً لتعوض عليها عن البنت المتوفاة . ولما كان المولود ذكراً راحت الأم توجه جلّ عنايتها الى تربيته وكأنه في نظرها بنت ، فتلبسه ملابس البنات وتزوده بألعاب البنات ، وتحاول الحيلولة بينه وبين المشاركة في العاب الصبيان الذين هم في مثل سنه . وكان هو في صراع مع ذاته ، مبعثه انه لا يرغب في ما تصر عليه امه ، ولكنه في الوقت عينه ما كان يريد ان يخسر حنانها وحبها له وعنايتها به . فهو ، بحكم تكوينه الطبيعي ، كان يريد أن يسلك مسلك الذكور ، وأمه بفعل دوافعها اللاشعورية في رغبتها ببنت ، كانت تشده الى طبيعة مغايرة تماماً لطبيعته الحقيقية . ولكن اين تكمن المشكلة في كونه الابن الخامس ؟

كانت امه اساساً وبشكل لا شعوري رافضة له لأنه ولد ولم يكن قد ولد بنتاً ليرضي رغبتها الجامحة في ان تكون لها بنت . وهو بدوره ، لئن تصرف تصرف الولد الذكر فتكون امه قد كرهته ، لأنه رمز يدل على حرمانها من البنت التي تريد ، وان وجوده كان دائماً يذكرها بموت ابنتها . فمن الواضح ان كل هذه المعطيات كانت على النقيض من ميوله الفطرية ، فأدى ذلك به الى ان يتولد في نفسه الحقد والسخط والكراهية ، وبالتالي آل به ذلك الى التمرد . ان اساس نمو شجاعته ليتطور بوصفه ذكراً قد استلب منه على الرغم منه . فهو ذكر بالفعل لكنه مسلوبة منه ارادة الذكورة . فاحتدم في داخله صراع عنيف . ونتيجة لذلك فقد برزت شجاعته من داخله على شكل ثورة عارمة متفجرة مندفعة ، ذلك لأنها كانت خلال أيام الصبا قد وجهت توجيهاً مغايراً لأرادتها الطبيعية . كان هذا الشاب شديد الفزع اذا ما تطلب الأمر منه ان يكون في موقف فيه امرأة متقدمة في السن ، فهو لا يحتمل موقفاً يجد فيه نفسه امام امرأة في مثل سن امه . فمثل هذا الموقف لا شعورياً كان يذكره بموقفه من أمه . فأية امرأة مسنّة كانت بالنسبة اليه تمثل البديل لأمه في تصرفاتها الماضية معه . علماً بأن امه كانت في الحقيقة قد ماتت في هذا الوقت الذي بدأت تظهر عليه تلك الاعراض المذكورة . فلا يمكن اذن التقليل من

اثر صورة امـه التي كانت قـد ترسخت وتعمقت في ثنـايا عقله ، فـطفقت صورتها تلك تتجسد في من هن في مثل سنها من النساء ، الأمر الذي كان يسبب له احراجات مربكة تطغى على سلوكه في الحياة . فالكشف عن خبايا النفس وخفاياها ، وسبر غور الطاقات العقلية لهي اساس عليه تقوم المعالم الذاتية وعليه ينهض كيان الشخصية . ولكن كيف يمكن ان يتم ذلك ؟

انه لمن الطبيعي والمناسب ان يشجع الطفل وان يتم توجيهه ليتخـذ لنفسه بنفسه كل خطوة ممكنة تمكنه من التفرد بشخصيته المميـزة له ، لكي يكون هو ذاته متميزاً . لهذا الضرب من توجيه الطفل كل الأثر على مستقبل تحديد ملامح ذاته وتعزيز حقيقة ثقته بنفسه ، بشرط ان يتم ذلـك من غير تعريضه الى قلق يخيفه ويرهقه وهو لمّا يعرف بعد تبريراً لأسبابه . اذا توفر له مثل هذا الجو ، فبوسعه ان يتسلق ذرى الارتقاء التدريجي رغم ما قد يواجهه من الاحباطات ، فيتمكن من ان يحقق ذاته وينال شيئاً من استقلاله الذاتي ، بالاعتماد على نفسه وعلى جهده الخاص به . وكلما تفرد الطفل ولقي التشجيع في هذا السبيل من لدن أبويه أحرز هويته الذاتية وحقق قوة اناه في المجتمع . هذه حقيقة ملموسة خليق بالآباء ادراك اهميتها بالنسبة لنشأة الأبناء .

ان كلّاً من الحماية المفرطة للطفل او التعسف والعنت في اذلاله ، تتولد عنهما نتائج عكسية تتبدى تدريجياً في تصرفات الفرد ، وترافقه كلما تقدم في مدارج النمو . فلا اللامبالاة والتهور ولا الحماية المغالى فيها يمكن ان يؤديا الى نمو الطفل نمواً قويماً . ان التشجيع والتقدير السليم لما هو عليه الـطفل من قدرات ، يؤول الى افضل النتائج المرتجاة .

بطبيعة الحال ، فنادراً ما يلزم الآباء أبناءهم باتخاذ ادوار مغايرة لأدوار الجنس الذين ولدوا بالفطرة عليه . بل انهم كثيراً ما تكون متطلبـاتهم من ابنائهم تحقيق المواءمات الاجتماعية الملائمة . فالآبـاء يتطلبـون من ابنائهم احراز الدرجات المدرسية المرتضاة ، وان يكون طبيعيـاً في تصرفاتـه ، وان يندمج في الوسط الاجتماعي بما يبعده عن مواطن الشبهات . ولكي يعيش

الأبناء وفق اماني الآباء انما يمثل السبيل الوحيد الذي يتيح للأبناء الظفر باطراء الآباء ، وان يبقوا دائماً هم (حدقات العيون) . فالتشجيع على مواجهة الحياة برصانة انما هو جوهر الشجاعة ، وللشجاعة آفات تعترض سبيلها وتفسد مزاياها ، ومن تلك الأوباء : التهور ، والغرور ، والنرجسية .

الشجاعة تنشأ وتنمو من احساس المرء بكرامته وحسن تقديره لذاته . ولكن الغرور والنرجسية ، حين تتسلطان على الفرد ، يصرفانه عن اهداف الشجاعة[٦] : اهدافها السامية ، وكل من الغرور والنرجسية يجعلان الفرد يحس الضعة في قرارة نفسه . الشجاعة والحكمة صنوان لا يفترقان ، وهما وجهان لمسكوكة ثمينة واحدة .

ان الفكر والتمييز النظر في حقائق الأمر لهي من المكاسب التي يتمكن منها المرء بالمران والممارسة والاعتياد عليها . فهي نتائج طيبة لتربية وتنشئة طيبة . واكتساب محامد الأخلاق انما يتأتى من حسن التأديب الحصيف ، فيكسب الذات فضائلها[٧] .

---

(٦) قارن ما جاء في التراث العربي ، وقول الشاعر ناهياً عن التهور والاندفاع غير المتروي :
الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني
(المترجم) .

(٧) قارن هذا الكلام بقول ابي علي احمد بن محمد مسكويه في : تهذيب الأخلاق تحقيق الدكتور قسطنطين زريق : (النفس والعقل والفضائل الموهوبة لناهبة لا تسترد ولا ترتجع) .
(المترجم) .

لي ان ادع هذا الزواج يتصدع ، وان ارضى بما يتبقى مما فيه من علاقات مؤقتة ابان هذه السنين غير المعلومة) .

وهنا مثال آخر ، يخص شاباً يعمل محاضراً في جامعة . وانه قد وطد العزم على تأليف كتاب قد يستغرقه العمل فيه خمسة اعوام وانه قدّر ان كتابه المرتقب اسهام كبير في مجاله العلمي . وانه قد بدأ العلاج من حالات نفسية دون إتمام ما كان يتوقع أن يكون افضل اعماله . فراح يتساءل في قرارة نفسه : (كيف يتمكن المرء من تأليف كتاب تتمثل فيه الرصانة ، اذا لم يكن في طوقي تهيئة مثل هذا الكتاب ابان السنين القلائل القادمة : وانا اريده كتاباً جيداً ؟ فمن يدري : لعله من المحتمل ان تلقى قنبلة ذرية على نيويورك اثناء تلك الفترة - فهل هناك ، اذن ، جدوى من الشروع بتأليف الكتاب المطلوب أبداً ؟) . النظر الى الزمن بهذه الرؤية يحدد بؤرة القلق الأكثر ضغطاً في حياة هذا الشاب وفي حياة أمثاله في الوقت الراهن .

فمن المؤكد ان الحياة الخاصة بمشكلات كل فرد ومقدار قلقه يصبان في هذا الإتجاه الخاص بالاهتمام بالوقت وجريانه في عالمنا هذا . وكما هو معروف لدى كل امرىء انه لمن السهولة بمكان استخدام عدم الشعور بالامان في عصرنا هذا - عدم امان اصبح سائداً - قد جعل عدم الاطمئنان هذا ذريعة لما يتعرض له المرء من عصاب يصاب به . وعندما نتنهد فإننا ننفث الزفرات تحسراً فنقول : (انه لزمن مضطرب) ، نتلفظ بذلك ، ومن ثم نعفي انفسنا من مهمة البحث عما اذا كان هناك شيء من الخلل يكمن فينا نحن[1] ، فلا نريد ان نقرّ بأن الشيء المضطرب على نحو خطير ليس بخارج اهابنا .

ولكن بصرف النظر عن حقيقة ان ميولنا العصابية في الرغبة في التنكر والتستر وراء العبارة الضاغطة القائلة (وضع عالمي مأساوي فاجع) - امر لا

---

(١) قارن قول القائل في باب الحكمة :

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

(المترجم)

يخلو من حقيقة ـ غير أنه يبقى لدينا هامش واسع اتاح للمتسائلين ان يثيروا فيه عبارتهم المقتبسة هنا ، لا ريب ان في العالم متسع يمكن وصفه معه بأنه عالم واقعي ومعاق الى حد معقول . بيد ان هذا لا ينفي حقيقة اخرى تلك هي ان عالمنا هذا سيستمر في مجراه الدائب هذا فيلبث عصراً حافلاً بالقلق وسيبقى هكذا الى حين من الدهر آتٍ ؛ وعلى كل فرد لا يريد ان يؤدي دور النعامة ان يهيء نفسه ليتعلم تقبل الحقيقة وعليه ان يكيف نفسه ليعيش في عصر اللاأمان هذا . ففي دفاتر المثقفين ثقافة رفيعة ، مثل الفنانين والمفكرين ، اننا لنجد التوجسات هذه نفسها والهواجس ذاتها شاخصة هناك ، وان مثالينا اللذين سقناهما عن الشخصين الآنفين ، لدليل على ما نذهب اليه ، فكلا الشخصين يقولان (اننا ولدنا في العصر المغلوط) . وفي سياق مناقشاتنا هذه ، سيكون هناك ، عاجلاً أم آجلاً ، من يقول جازماً : انه كان من الأفضل لنا لو اننا عشنا في عصر النهضة ، او في عهد آثينا الكلاسيكي ، او في باريس في العصر الوسيط ، او في أية فترة أخرى ، غير عصرنا هذا .

فلا جدوى من تحاشي اسئلة كهذه ، كأن نبتدع اجابات رواقية لها ، مثل (كنا قد ولدنا في هذا العصر ، واذن فمن الأفضل لنا ان نستفيد من أحسن ما فيه) . فبدلاً من ذلك ، دعنا نتحرى علاقات الانسان بالزمن ـ انها في الواقع لأغرب من ان نجعل الزمن حليفاً لنا ونصيراً بدلاً من ان نخسره فيكون شانئاً لنا وعلينا ظهيراً .

الانسان لا يحيا في الزمن المحدود فقط

رأينا ان احدى خصائص الانسان الفريدة هي انه يستطيع ان يقف خارج نطاق الزمن الحاضر فيتصور نفسه انه يحيا في المستقبل او يتصورها ويتخيلها كائنة في الماضي فترقب انسياب الزمن . فالقائد في المعركة ، مثلاً ، بمقدوره ان يتخيل ماذا يحدث اثناء المعارك ، وعلى هذا الاساس فإنه يعبىء قواته ويحركها وفق خطط معدة مسبقاً لهذا الغرض . فهو يكون قد هيأ أموره عن طريق التخيل قبل وقوع المعركة بمدة عدة أيام او اسابيع .

بل تأمل متحدثاً وهو يهم بإعداد نفسه لإلقاء خطاب هام ـ واذا كان حساساً وذا بصيرة نفاذة ، فإنه يستحضر في ذهنه شوارد الكلم وشذرات خبرته السابقة ، فيعرف مثلاً ، او يدرك ما هي متطلبات الساعة التي هو فيها ، وماذا يستدعي الموقف ، وما هو الغرض الذي ينبغي ان يتحدث من أجله ، فيخاطب في مستمعيه العقل والوجدان ، مضمناً كلامه الحقائق ووسائل الاقناع ، مستفيداً من عبر الماضي وكيف يواجه في ضوئه الحاضر .

ان هذه القدرة لدى الانسان ، والتي تمكنه من النظر الى الامام واستشراف المستقبل وما يليه ، هي جزء من طاقة الانسان على ان يكون مدركاً لذاته واعياً لها . ان الانسان بخلاف النباتات والعجماوات التي تعيش في حدود الزمن الكمي المحدود بالساعة ، او الاسبوع ، او بعام مضى ؛ فالشجرة مثلاً نجد حلقة اضافية حول جذعها تدل على مدى ومقدار ما اضيف الى عمرها . لكن الزمن ، بالنسبة للكائنات البشرية ، شيء مختلف تماماً ؛ الانسان هو المخلوق الوحيد المتسلق حدود الزمن المتجاوز لها ، time-surmounting ، ففي كتابه عن معاني الدلالات Semantics ، يؤكد الفريد كورزيبسكي Alfred Korzybski ، باستمرار على نقطة بعينها تلك هي ان الصفة المميزة للانسان عن سائر المخلوقات الأخرى ، هي قدرته على ربط الزمن وتعشقه ببعضه time-binding . (وأعني بذلك) ، يقول كورزيبسكي ، (القدرة على استعمال ثمار جهود الماضي وخبراته استثماراً فكرياً وروحياً من اجل التطوير في الحاضر . . . اعني بذلك استغلال قدرة الكائنات البشرية لتوجيه حياتهم في ضوء الحكمة الفطرية ؛ اقصد القدرة التي بفضيلتها يكون الانسان تواً وريث العصور الخوالي فيكون بذلك الأمين على احداث الرخاء واستحداث الازدهار)[٢] .

فالانسان ، من الناحيتين النفسية والروحية ، لا يحيا بالزمن وحده ؛

---

(٢) من كتاب كورزيبسكي بعنوان : **The Manhood of Humanity** Lakeville company, (1950) p. 59.

بل ، بالأحرى ، هو يعتمد على أهمية الحدث الذي يكون فيه وما ينطوي عليه من مغزى . ولنتمثل بحالة شاب ، مثلاً ، يقطع طريقه الى عمله بقطار الانفاق فيستغرقه الزمن ساعة ، ثم يمضي في عمله حوالى ثماني ساعات ، ويقضي من وقته حوالى عشر دقائق في الحديث مع فتاة أحبها مؤخراً فراح يحلم في الزواج منها ، ثم انه ، الى جانب ذلك ، يمضي مساء كل يوم ساعتين في حضور صفوف تربوية ثقافية ، وعندما يؤوب الى بيته يتناول طعامه وبعدئذٍ يستلقي في فراشه مغمضاً عينيه ليستذكر كل احداث يومه ذاك ؛ لكنه وهو في استحضاره احداث يومه المنصرم ، يطردها كلها من ساحة ذهنه ما خلا الدقائق العشر التي أمضاها بالتحدث الى فتاته تلك . اما بقية الزمن فينحيه جانباً ويعلقه ولا يرى له ضرورة ولا لزوم له فيه . ان الدقائق العشر تلك بالنسبة اليه هي اهم ما يرى من كل ذلك الزمن . هكذا كان ديدنه ، حتى انه حلم في احدى لياليه اربعة احلام ، واحد يتعلق بدراسته المسائية ، وثلاثة منها تتعلق بالفتاة التي أحب . معنى هذا ان تفكيره بتلك الفتاة قد استغرق اكبر حيز ممكن من وقته وشغل اوسع مكان من عقله . فالزمن النفسي هو ليس مجرد مرور الوقت المادي كما هو وكما تشير اليه عقارب الساعة ، بل انه يعني الخبرة والتجربة ، اي : انه يعني ما هو مهم وجوهري في حياة الشخص حسب تقديره ، وما له في زمنه من آمال ، وما يصاحب ذلك من قلق ، وما يرافقه في تطوره من نمو نفسي واجتماعي ، وما يبلغه من نضج .

أو خذ مثلاً آخر ذكريات راشد عن طفولته وهو الآن في الثلاثين من عمره . خلال السنة الخامسة من العمر آلاف الاحداث كانت حصلت له . لكنه وهو في هذه السن الآن لا يتذكر من الاحداث تلك سوى ثلاثة منها أو اربعة : اليوم الذي انطلق فيه ليلعب مع اقرانه ، او عندما انطلق صديقه مع طفل اكبر منهما سناً بعيداً عنه وتركاه وحده ، اواليوم الذي استيقظ فيه فوجد دراجة بثلاث عجلات بانتظاره تحت شجرة عيد الميلاد ، او الليلة التي صفع فيها أبوه امه عندما عاد الى البيت ثملاً في ساعة متأخرة من الليل ، أو أصيل ذلك اليوم الذي أضاع فيه كلبه . هذا ما كان يستطيع تذكره من سنيه تلك ،

وانه لمن المثير للعجب انه يتذكر هذا العدد الضئيل من الاحداث منذ خمس وعشرين سنة خلت ، يتذكرها بوضوح اكثر مما يتذكر احداثاً مرت به في أمسه .

الذاكرة ليست مجرد انطباع احداث زمن الماضي في اعماق الذهن ، بل انها مختزن لما هو ذو معنى لنا من آمال ومخاوف . فتكون الذاكرة بهذا ، بمثابة شاهد آخر ودليل شاخص على أننا نمتلك علاقة مرنة ومبدعة تربطنا بالزمن ، وان عنصر الدليل الهادي الى ذلك ليست الساعة ولا الزمن المادي ، وانما هي الأهمية النوعية qualitative significance من خبراتنا التي كنا قد استقيناها من قبل .

بيد ان هذا لا يعني ان الزمن الكمي quantitative time يمكن تجاهله او اهماله . لكن ما ينبغي تأكيده هو ان الانسان لا يتسنى له ان يعيش بمجرد الزمن المادي وحده . الانسان جزء لا يتجزأ من العالم الطبيعي ، فهو دائماً مندرج فيه ، انه مندمج في الطبيعة في كل نقطة وفي كل مجال . ومهما عمّر الانسان ، ومهما امتد به العمر ، فإنه يعمل ويكد ويتعب ويستمتع وكل ذلك يجري في اطار الزمن المادي والكمي . ومهما كانت ذكرياتنا فإنها لا تخرج عن نطاق الزمن الكمي هذا . لكن الأهم من هذا هو ما يتخزن لديه من ذكريات وما يتراكم عنده من خبرات يتفاعل معها وتجديه في حياته .

وكلما كان الشخص اكثر قدرة على توجيه حياته توجيهاً شعورياً كان اكثر قدرة على استثمار الزمن استثماراً بنّاء . وكلما جعل حياته اكثر غزارة من حيث الخبرات كانت اجدى وانفع ، وكلما تجمّد في عمله وفي فكره كان مستخذياً للزمن بدلاً من ان يجعل الزمن خانعاً له . فهو في الحالة الأولى يطوّع الزمن فيبدع . وما اكثر ما نسمع ان شخصاً ما يقرأ قصة بوليسية ليقتل الوقت ويقطع الزمن ، أو انه قام بالعمل الفلاني لكي يبدد الوقت ويقضي على رتابة الزمن ! حسن وأنه لأمر طيب : اذا كان الزمن نافعاً لك فلماذا تقتله ؟

ان الناس يخشون الزمن أحياناً ويخافونه بصورة لا شعورية . ان مخاوفهم من الزمن مبعثها في الغالب الخوف من التقدم في السن والكبر ، ومنها

خوف الانسان من وحشة الوحدة ، وكروب العزلة . ذلك لأن الانسان هو (المخلوق الوحيد الذي يحس بالملل والسأم والضجر) كما قال اريك فروم .

لا شك ان توقع الانسان للفراغ الزمني وتصوره له يمكن أن يكون شيئاً فظيعاً بالنسبة الى كثير من الناس ، ذلك لأنهم حين يحسون ان ما من شيء هناك يفعلونه ، ولا من خطط لديهم ينفذونها ، كل ذلك قد يؤدي بهم الى (الجنون) . وعندما يكون لديهم احساس بالذنب جراء مشكلات الحياة اليومية الخاصة بكل منهم ، وجراء القلق ، كما في حالة ماكبيث Macbeth ، أو كما في حالات الفراغ لدى كثير من الناس ، فإن الحياة تصبح بالنسبة اليهم لا تعني شيئاً ، انها واقع قائم ، ولكنه واقع مجرد :

غداً ، غداً ، غداً ،
يزحف بهذه الخطى الوئيده ،
من يوم الى يوم آخر يعيده
وآخر الزمن ينعطف على أوله بساعات جديدة ،
وكل أيام أمسنا التي اسعدت الحمقى
آيلة في طريقها الى الرغام والردى .

ولهذا السبب نجد الانسان يرغب في أن (يمحو الزمن) كما يضيف شكسبير . لهذا فإن أنت سألت فرداً ماذا يعني اليك (الزمن الطيب الجيد) ، فربما أجابك انه يعني اليه طرد الملل والتخلص منه بالهرب .

ان للتفكير بالماضي ذات الوظيفة التي يؤديها التفكير بالمستقبل . وحيثما واجهت المرء مشكلة في حاضره ، فإنه يعلل النفس بالقول انها (في الأقل كانت تكون افضل لو انها حدثت في كذا وكذا من الزمان) ، فهو يقول ذلك ، وكأنه يريد ان يطرد وحشة اللحظة التي هو فيها بذكرى الماضي . ان الانسان يسعى جاهداً ، ان يتخطى عتبات الزمن وبما فيه من ملل ، وعندما يدهم الانسان الضجر فإنه يحاول ان يتململ ليجد ما يشتت به فلول الضجر هذا ، ولعله يصل من خلال ذلك الى شيء من عمل او الى شيء من ابداع .

فبمقدور المرء تجاوز الزمن وتزجيته وطرد وحشته عن طريق الاندماج في العمل .

ان اميز صورة تمثل الكفاح من اجل تجاوز الزمن هي تلك الصورة التي رسمها غوته Goehte بقلمه في مسرحية (فاوست) Faust . كان فاوست قد عقد حلفاً مع الشيطان ، ميفستوفيلس Mephistopheles ، ذلك لأنه ـ فاوست ـ كان متبرماً ، ضجراً ، مستاءً ، غير راضٍ عن هذه الفعالية او تلك ، فلم يجد في حياته ما يقنعه بأن في الحياة ما هو جدير ، فكان يرى ان الزمن مجرد (رتابة تامة) ، انه بكلمات غوته :

ما الجدوى ، لنا من هذا التباطؤ ، تجدينا . . .
انها الرتابة كانت وهي سائرة حوالينا ،
انها في حلقات تلفنا في دوران سرمدي
وليس لي من خيار سوى الفراغ الأبدي .

لكن فاوست ، بعد ان تحققت له كل امانيه ، بعد ان تزوج من حبيبته مرغريت ، واخيراً هلينا الطروادية ، وبعد ان اخصبت ارضه واقطاعياته ، وبعد ان اصبح مستشاراً للأمبراطور ، فجمع الثروة الى المعرفة والجاه والنفوذ ، بعد هذا كله ، أخذ يستمرىء معنى الحياة وطعمها وقيمة الزمن فينطقه غوته بقوله :

تجرأت ان أنادي اللحظات المتعات
(مهلاً أيتها اللحظات الجميلات الهاربات
فما من هذه الارض رسمت خطواتي
ففي الدهر تلاشت خطاي ، هناك هي في الزمن الآتي ،
واني لإزدهي بتلك البركات الآتيات الساميات
انا مستمتع بكل ما في هذه اللحظات .

ان اولى الضرورات التي يجدر ان يتعلمها المرء هي ان يعرف كيف يتعامل مع الزمن بشكل بنّاء ؛ عليه ان يتعلم كيف يتعامل بواقعية مع اللحظات الحاضرة في حياته . ذلك لأن اللحظة الحاضرة هي كل ما لدينا من

الناحية النفسية . اننا جميعاً كنا جزء من الماضي بلحظاته وسنكون جزءاً من المستقبل بلحظاته وبكل تبعاته ، والحاضر هو زورقنا الذي نتعايش معه بحكمة الخبرة ومتطلبات الواقع المعاش . فعندما يتملى المرء جوانب نفسه فإن كل ما يعيه منها هي لحظة نفسه ، لحظة حالته الشعورية في تلك اللحظة بالذات .

ولعل الدكتور أوتو رانك Otto Rank هو المعالج النفساني الوحيد الذي صاغ الموضوع على نحو اكثر اقناعاً حين ذكر بأن الماضي والمستقبل انما هما متضمنان في سيكولوجية الحاضر وفيه مندمجان . ان بوسع المرء ان يكيف الزمن لصالحه وان يرّوض نفسه لظروف الزمن ، ولهذا قال عيسى (عليه السلام) ، (ان مملكة الفردوس فيك كائنة) ؛ ان التطبيق العملي لذلك والمضمون زمنه بإبداعه هو ، بغض النظر عن العمر ، وعليه ان يعمل بأمانة وشرف وصدق وحرية ومسؤولية . وبذلك يكون في كل لحظة قد حقق بدائع طبيعته وانجز مهام تطوره ، وبهذا يكون صانعاً للزمن ، وكما ارادته واعدته له الحياة .

ان خصائص الحرية ، والمسؤولية ، والشجاعة ، والحب ، والتكامل الذاتي ، انما هي خصائص مثالية ، لم يدركها كاملة وبتمامها أي امرىء من قبل . بيد انها تمثل بلا شك الأهداف السيكولوجية التي تتيح معنى لحياتنا باتجاه التكامل المنشود . فعندما كان سقراط يصف في حديث له الطريقة المثلى في الحياة ، والفضائل المثالية في المجتمع المثالي ، قاطع حديثه غلوكون Glaucon قائلاً : (يا سقراط ، اني لا اعتقد أن هناك شيئاً اسمه مدينة الله كائنة على الارض ، كهذه التي تصف) . فرد سقراط بالقول : (سواء اكانت مثل هذه المدينة موجودة في الارض ام قائمة في السماء ، فإن على الانسان الحكيم ان يكيف حياته ويحيا وفق فضائلها وسجاياها ، وان يتخلق بخلالها ، وان يضرب كشحاً عما سواها ، وهو بانتهاجه النهج هذا ، يتسنى له ترتيب بيته بما يتلاءم ومقتضيات الحياة) .

بعض الانجازات العلمية
للمترجم عبد علي الجسماني

اولاً : مبتكرات

* Students' Attitudes Towards Vasious Aspects of Teachers' Training: A Psychological Study, **H. Dip.**

* Psychological Research into Progressive Educational Theory and Practice: Field Study. **M. A.**

* McDougall's Hormic Theory and Its Influence on Subsequent Psychological Thought. **Ph. D.**

ثانياً : كتب مؤلفة ومترجمة .

- الطفل السوي وبعض انحرافاته : مقدمة عامة في سيكولوجية الطفولة . ترجمة .
- المدخل الى علم النفس الحديث . ترجمة .
- مأدبة افلاطون في الفلسفة . ترجمة .
- علم النفس العام . تأليف .
- مقدمة عامة في فلسفة التربية . ترجمة .
- سيكولوجية الطفولة والمراهقة . تأليف .
- علم النفس التربوي . تأليف .
- علم التربية وعلم نفس الطفل . ترجمة .

- علم النفس وتطبيقاته التربوية والاجتماعية . تأليف .
- موسوعة نفسية ـ تربوية ـ اجتماعية / الجزء الأول . تأليف .
- موسوعة نفسية ـ تربوية ـ اجتماعية / الجزء الثاني . تأليف .
- موسوعة نفسية ـ تربوية ـ اجتماعية / الجزء الثالث . تأليف .
- اتجاهات الطلبة نحو مختلف جوانب اعدادهم : دراسة نفسية ميدانية . تأليف
- التربية المتجددة : دراسة ميدانية . تأليف
- النظرية الفرضية في علم النفس . تأليف .
- الوراثة والسلوك الجزء الأول . تأليف .
- الوراثة والسلوك الجزء الثاني . تأليف .
- علاجك النفسي بين يديك . .ترجمة .
- مذكرات فتاة مراهقة . ترجمة .
- دكتور جيكل ومسترهايد / قصة نفسية . ترجمة .

ثالثاً : كتب انجزت بإشرافه

- التفكير الواضح .
- علم النفس لكل رجل وامرأة .
- القلق .

رابعاً : بعض البحوث الميدانية الموسعة .

- دراسة نفسية لظاهرة الخجل عن الشباب .
- تحصين الشباب ضد الجريمة : دراسة نفسية ميدانية .
- التكيف النفسي للشباب .
- بناء اداة لقياس دافعية المعوقين نحو العمل .
- دراسة نفسية ـ اجتماعية لمشكلات الاطفال من وجهة نظر الآباء والمعلمين .

- الشخصية العراقية الجديدة .
- دراسة ميدانية لكيفية استثمار اوقات الفراغ لدى الطلبة الجامعيين .
- دراسة ميدانية للتوافق الزواجي والتفكك الأسري .
- دراسة ميدانية لبعض حالات الإجرام .
- دراسة نفسية تحليلية لشخصية المتنبي من خلال شعره .
- دراسة نفسية ميدانية لاتجاهات الطلبة حول التخصص في علم النفس والتوجه المهني للتدريس .
- دراسة نفسية ميدانية لمشكلات المراهق في الوطن العربي .
- دراسة القيم ومفاهيمها لدى الطلبة الجامعيين .
- دراسة نفسية ميدانية للعلاقة بين البيت والمدرسة وأثر ذلك في تنشئة المراهقين .

خامساً : بحوث نشرت في مجلات متخصصة محلية وأجنبية .

سادساً : بحوث القيت في مؤتمرات وندوات محلية وعالمية ..

سابعاً : مقالات نفسية وتربوية نشرت في الصحف العراقية والعربية .

ثامناً : أكثر من (١٢٠) حديثاً اذاعياً نفسياً وتربوياً .

تاسعاً : كتب قيد الانجاز .

آفاق جديدة في علم النفس (الجزء الثاني) . ترجمة .
المجتمع المعاق . ترجمة .

نبذة من السيرة العلمية
للمترجم عبد علي الجسماني

- حاصل على شهادة دار المعلمين الابتدائية ـ ٣ سنوات بعد الدراسة المتوسطة .
- حاصل على شهادة الثانوية العامة ـ بجهد ذاتي .
- حاصل على ليسانس اللغة الانكليزية من دار المعلمين العالية ـ (كلية التربية الآن) ـ جامعة بغداد .
- حاصل على الدبلوم العالي في علم النفس من المملكة المتحدة .
- حاصل على الماجستير في علم النفس من المملكة المتحدة .
- حاصل على الدكتوراه في علم النفس من المملكة المتحدة .
- عمل معلماً في التعليم الابتدائي وعمل في الادارة فيه كذلك .
- عمل مدرساً في التعليم الثانوي .
- عمل مدرساً لعلم النفس بجامعة بغداد
- عمل مدرساً لعلم النفس بجامعة الرياض (حالياً جامعة الملك سعود) في المملكة العربية السعودية ، بموافقة من جامعة بغداد .
- عمل استاذاً مساعداً في مادة علم النفس بجامعة الامارات العربية المتحدة ، بموافقة من جامعة بغداد .
- عمل رئيساً لقسم علم النفس بجامعة بغداد .
- عمل وكيلاً لكلية التربية (نائب) عميد ثم عميدا بالنيابة في جامعة الامارات العربية المتحدة .

- حاصل على مرتبة الاستاذية في علم النفس .
- حالياً استاذ متمرس في علم النفس .
- اشرف على عدة رسائل ماجستير ودكتوراه وكان ممتحناً لعدد كبير من طلبتهما .
- له حوالى (٣٠) كتاباً منشوراً ، تأليفاً وترجمة .
- له اكثر من (٢٠) بحثاً ميدانياً موسعاً .
- له اكثر من (٨٠) بحثاً القيت في مؤتمرات وندوات متخصصة محلية وعالمية .
- له عشرات المقالات العلمية والبحوث المنشورة في المجلات العلمية وفي الصحف .
- له اكثر من (١٠٠) حديث اذاعي كلها تصب في الميادين العلمية والتربوية والاجتماعية .
- حضر العديد من المؤتمرات العلمية المحلية والعالمية .
- عضو في عدد من جمعيات علم النفس المحلية والعالمية .
- حاصل على عدة شهادات تقديرية من مجالس علمية محلية وعالمية .

محتويات الكتاب

الموضوع .... الصفحة

القسم الأول : معضلتنا

القسم الثاني : استكشاف الذات

القسم الثالث : أهداف التكامل

البحث عن الذات

احدى النعم القلائل للعيش في عصر يسوده القلق هي أننا مضطرون الى ان نعي حقيقة أنفسنا . فعندما لا يكون بمقدور مجتمعنا ، وهو يجتاز وقتاً تضطرب فيه المعايير والقيم ، أن يرفدنا بصورة صافية واضحة المعالم ، فإننا ، في هذه الحالة نكون قد انكفأنا على أنفسنا بحثاً عن ذواتنا ، فهاجس التوجس والخوف المحدق بنا من كل جانب يبعث فينا حافزاً جديداً يحملنا على أن نسأل : هل يحتمل أن يكون هناك مصدر مهم من نوع ما من مصادر الهداية والقوة كنا قد أهملناه ؟

هذا الكتاب يتولى بالبحث حكمة اولئك الذين سعوا ليتبنوا ما تجمّع لديهم وتراكم من خبرات الحياة بحكم تقادم الأعمار وما حفلت به مجالات الأدب ، وما زخرت به حلبات الفلسفة ، وما جدّ في مجال مستجدات علم الأخلاق ، وليتفهموا كيف يتمكن الإنسان في أحسن الأحوال ان يضمن لنفسه جواً من الأمان ، وكيف يواجه ازماته الشخصية ، ليحولها ، من ازمات ، الى منافع بنّاءة . وهو ، فضلاً عن ذلك ، يتيح لنا استكشاف أساليب تمكننا من الوقوف ، في وقتنا الراهن ، بوجه ما يتهدد أمننا ، وبذلك نتحرى مواطن القوة في دواخل انفسنا ، ونحدد ، بالتالي ، معالم الطريق المؤدي الى تحقيق القيم والأهداف التي يمكن الاتكاء عليها في وقت تضاءلت فيه فرص ضمان الأمن والأمان .



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
ARAB INSTITUTE FOR RESEARCH AND PUBLISHING
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ، ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيالي ، هـ ٨٧٩٠٠/١ ، تلكس : LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧
الغلاف : زهير أبو شايب